

جامعة عين شمس
كلية التربية

مجمل

التاريخ الأندلسي

أ.د/ محمد عبد الحميد عيسى

أستاذ التاريخ الأندلسي والحضارة

رئيس قسم التاريخ

جامعة عين شمس

مكتبة
محمد عبد الحميد عيسى

مقدمة

يتزايد الحنين يوما بعد يوم إلى ذكرى تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس كلما ضاقت الدنيا بالأمة الإسلامية ، وتكالب عليها أعداؤها فيرجع الناس إلى ذكرى الجهاد ، وإلى سيرة الأبطال الذين رفعوا راية الإسلام خفاقة في تلك البلاد .

كما يتذكر الناس في هذه الأيام الأسباب التي قضت على دولة المسلمين في الأندلس ، ومن المهم جدا أن ندرس تلك الحقبة وأن نستوعب دروسها وأن نتعلم منها ، وأن نستخلص العبرة والعظة ، وأن نضع هذا الدرس أمام أعيننا .

هي ملحمة تاريخية بكل ما في الكلمة من معنى ، وهي تجربة إنسانية خالدة بكل إيجابياتها وسلبياتها .

لقد كررت في مناسبات متعددة أننا سنلقى نفس مصير الأندلس إن لم نستوعب أخطاءهم شعوبا وحكاما . وإن لم نعمل بجد من الآن على حماية أنفسنا ، وعلى لم شملنا وتوحيد صفوفنا ، وإلا فالنتيجة واضحة والمصير محتوم ، وسنمضي في نفس الطريق الذي سار فيه الأندلسيون .

علينا أن ننتبه إلى أن دولة الإسلام في الأندلس لم تسقط في عام ١٤٩٢م ، إنما تمكن الأسبان من القضاء عليها قرية فقرية ومدينة بعد الأخرى ، وأن الصراع استمر طوال فترة الوجود الإسلامي هناك .

وعلينا أن ندرك أنه لو صدقت مقولة أن التاريخ يمكن أن يعيد نفسه ، لكانت صورة أوطاننا الآن في القرن الخامس عشر الهجري أشبه بما كانت عليه أوضاع الأندلس في القرن الخامس الهجري .

وأن عددا من السلوكيات في الأقاليم الإسلامية تتشابه مع سلوكيات ملوك الطوائف في الأندلس في القرن الخامس الهجري .

كل ما أرجوه أن يحمي الله وطننا العربي والإسلامي من نفس المصير الذي كتبه على الأندلسيين من أجل ذلك .

قدمت دراسة عامة مجملة عن تاريخ المسلمين في الأندلس ، وأتبعتها بدراسة عن أوضاع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي لكي أبرهن للقارئ أن الحضارة الإسلامية لم تكن يوما كارهة لمن يخالفها في الدين أو العقيدة .

ثم قدمت دراسة ثالثة عن موقف المثقفين الأسبان من هذه الحضارة العظيمة ورأيهم فيما أنجزته .

وأخيرا قدمت دراسة مختصرة وعامة عن حضارة الإسلام في جزيرة صقلية ، والتي ارتبطت بتاريخ الأندلس ارتباطا وثيقا .

أسأل الله التوفيق والسداد

أ.د / محمد عبد الحميد عيسى

القاهرة ١٤٢٣ هـ

٢٠٠٣م

الأندلس: الموقع والجغرافيا

تشـــكل كل من أسبانيا والبرتغال شبه جزيرة تعرف جغرافياً باسم شبه الجزيرة الأيبيرية، وتقع إلى الجنوب الغربي من القارة الأوربية.

مســـاحـــة شـــبه الجزيرة الأيبيرية صغيرة نسبيـــاً، فهي لا تزيـــد علــــى (٦٠٠٠٠٠ كم) ستمائة ألف كيلو متراً مربعاً،تشغل أسبانيا منها المساحة الأكبر، حوالي ٨٥% وبالتحديد ٤٩٢٤٦٣ كيلو متراً مربعاً، بينما تشغل البرتغال نسبة الـــ ١٥% الباقية وهي بالتحديد ٨٨٤١٩ كيلو متراً مربعاً هذا بالإضافة إلى وجود كيانين مستقلين هما أندرا Andorra وتقع فـــي مـــنطقة جبلية بين أسبانيا وفرنسا ومساحتها حوالي ٤٨٥ كيلو متراً مربعاً فقط بينما لا تزيد مساحة مستعمرة جبل طارق عن ستة كيلو مترات مربعة.

الشكل العام: تنقسم شبه جزيرة أيبيريا من ناحية التضاريس العامة إلـــى أقســـام متمـــيزة أهمها وسط هذه البلاد ويطلق عليها اسم الهضبة الوسطى وتعتبر صلب التكوين الجغرافي لهذه البلاد. وبها عدد كبير من المـــدن الرئيسية كطليطلة ومدريد ويطلق عليها La Mereta إلى الشرق مـــن هذه الهضبة تقع بلاد شرق أسبانيا ويسمى El Levante ومن أهم مدنه مدينة بلنسية المطلة على البحر المتوسط.

أمـــا الجـــنوب فهـــو الإقلـــيم الذي يطلق عليه في اللغة الأسبانية Andalucia وهـــو تحـــريف مـــن كلمة Al-Andalus لوجود الإسلام والمسلمين بهذا الإقليم أطول مدة زمنية، ومن أشهر مدنه قرطبة – أشبيليه وغرناطة وغيرها.

أمـــا غـــرب هـــذه الهضبة فيشكل جزء منه أراضي دولة البرتغال والباقـــي يعـــرف باسم إقليم Extramadura ومن أشهر مدن هذا الإقليم مدينة بطليوس.

أمـــا الشمال فيقع جميعه ضمن دولة أسبانيا، ويمكن أن نقسمه إلى ثلاثـــة أقالـــيم رئيسية، الشمال الشرقي وتقع به مدينة برشلونة. العاصمة الثانية لأسبانيا. والشمال ويضم إقليم قشتالة القديمة، والشمال الغربي ويقع بـــه إقلـــيم غاليســـيا Galicia ويتصل بالأرض الكبيرة في فرنسا عبر مجموعة من الممرات تخترق سلسلة الجبال الكبرى المعروفة باسم جبال البرتات أي Piraneos..

تتبايـــن طبـــيعة سطح الأرض من الشمال إلى الجنوب حيث يمكن ملاحظـــة صعوبة التضاريس بين أجزائها، والغالبية العظمى من أنهارها وسلاســـل جبالها تتجه من الشرق إلى الغرب مما شكل صعوبة كبيرة في الاتصال بين أجزائها وكان له دوره الكبير في أحداثها التاريخية وتطور تلك الأحداث.

الأندلس:

أطلق المسلمون على هذه البلاد تسمية جميلة دون أن يبينوا لنا من أيـــن جـــاءتهم هـــذه التسمية، وإن كانت الغالبية من المؤرخين تميل إلى إرجاع أصل هذه الكلمة إلى قبائل الونْدال التي سكنت زمناً في هذه البلاد، ويـــبدو أن هذا التعليل معقولاً، لأن كلمة Vandal تجمع Vandalos، وحـــرف V يمكن أن ينطلق في اللغة العربية "ف" أو "و" ومن ثم جاءت التسمية ببلاد الوندال إلى أن تطورت وأصبحت بلاد الأندلس.

وإذا كـــان تعبير الأندلس يطلق على كل أنحاء شبه الجزيرة إلا أنه بطبـــيعة الحال كان خاضعاً للتطورات السياسية، ويمكن أن نقول أن هذه التســـمية تعنـــي حقـــيقة الإشارة إلى الأراضي التي كانت خاضعة للحكم الإسلامي فقط، سواء عندما كان هذا الحكم شاملاً الغالبية العظمى حداً من أراضي شبه الجزيرة أو عندما تقلص هذا الحكم ولم يعد قاصراً إلا على بلاد قليلة في جنوب هذه البلاد.

ولذلك من الصعب القول بأن الإسلام قد استمر في أسبانيا أكثر من (٩٠٠) تسعمائة سنة، لأن الإسلام لم يبق في كل أسبانيا كل هذه المدة الزمنية، وإنما بقي في الأندلس بحدودها التي أشرت إليها آنفاً.

الأندلس والفتح الإسلامي:

قد لا يعنينا كثيراً تفاصيل التاريخ الأسباني قبل الإسلام، ولذلك فإنني أقدم ملخصاً جيداً يفيد في التعرف على أحوال تلك البلاد حين مجيء المسلمين ووصولهم إلى شواطئ أسبانيا.

كان القوط الغربيون قد تمكنوا من إقامة دولة مستقلة لهم في هذه البلاد بعيدة عن نفوذ الإمبراطورية الرومانية واستمرت هذه الدولة لما يزيد على قرنين من الزمان ارتفعت في بعض فتراتها إلى درجات عالية من القوة والازدهار وانهارت في أحيان أخرى إلى درجات سحيقة من التدهور والقلاقل والشقاق.

كان أخطر ما تعاني منه الدولة القوطية هو كيفية انتقال السلطة مما فتح الباب أمام الزعماء الأقوياء للتنافس على العرش كلما مات أحد ملوكهم، وفشل مجمع طليطلة في وضع قواعد تنظم انتقال السلطة، ومع مطلع القرن الثامن الميلادي وتحديداً عام ٧٠٩م توفي الملك غيطشة ووثب على السلطة أحد قادته ويسمى لذريق أو رودريجو، وكان طبيعياً أن يحدث صدام بين الملك الجديد وأبناء الملك القديم.

ومع أن الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس نتيجة طبيعية لوصول المسلمين إلى شواطئ بلاد المغرب المطلة على مضيق جبل طارق ورؤية الجانب الآخر من المضيق رأي العين، ووصول الفاتحين المسلمين إلى شواطئ المحيط الأطلسي، وأصبح من الضروري أمام المسلمين أما الاتجاه إلى الجنوب حيث الصحراء الكبرى أو الاتجاه إلى الشمال حيث بلاد الأندلس، وكما أنه كان طبيعياً أن لا يتوقف الفتح الإسلامي عند حدود

بـــلاد المغرب فقد كان طبيعياً أيضاً أن يتجه إلى إحدى الجهتين المشار إليهما، ولعبت عوامل طبيعية ونفسية وسياسية وظروف طارئة في توجيه دفـــة الفتوحات الإسلامية إلى اتجاه الشمال أي بلاد الأندلس ومن ثم كان الفتح الإسلامي.

فقـد وقـف يوليان حاكم سبتة التابعة للقوط إلى جانب المسلمين، للتخلص من لذريق الذي اغتصب عرش القوط من الملك القوطي المخلوع غيطشـــة، وعرض على المسلمين مساعدتهم في دخول الأندلس ، فاتصل طـــارق بن زياد بالقائد موسى بن نصير، وعرض عليه ما كان من أمر يوليان، ومن ثم طلب موسى بن نصير من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الإذن بفتح الأندلس فكتب إليه الوليد: "أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختـــبر شـــأنها، ولا تغـــرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه (موســـى) أنه ليس ببحر زخّار، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا".

فعمـــد موســـى بن نصير أولاً إلى تكليف خوليان حاكم سبتة بالإغارة علـــى الأندلـــس – فقام بذلك وعاد محملاً بالغنائم والأسرى ومن هنا اطمأن موسى إلى نصيحة خوليان وأعد سرية استطلاعية ثانية سنة ٩١هـ/ ٧١١م مكونـــة مـــن خمســـمائة جندي بقياد طريف بن مالك نزلت بأقصى الطرف الجنوبي للأندلس، ونزل المسلمون بجزيرة (باكوما) وعرفت بعد ذلك بجزيرة طريف، وعادت السرية بالغنائم والتشجيع للفتح.

أغرت السرية السابقة موسى بن نصير بالمضي في فتح الأندلس فأعد جيشـــان مـــن سبعة آلاف جندي معظمهم من البربر، وجعل طارق بن زياد قـــائداً عليهم، فنزل طارق وجنوده عند جبل كالبي، وهو الذي حمل بعد ذلك اسم جبل طارق، ومضى سائراً إلى بلدة قرطاجة، ثم عسكر عند رأس بارز بنيـــت فيه بعد ذلك مدينة الجزيرة الخضراء، وكان لذريق وقتها يعمل على إخمـــاد ثـــورة في شمال البلاد، فلما علم بجيش المسلمين جهز جيشاً ضخماً

يتراوح عدد أفراده ما بين ٤٠ ألفا و ١٠٠ ألف مقاتل فأمد موسى بن نصير المســلمين بخمسة آلاف، وتم اللقاء بين الجيشين على ساحل بحيرة الخندق، وهزم القوط هزيمة ساحقة في ٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ٧١١م.

أمــا لذريق فلم يعرف مصيره. والغالب أنَّه قتل غريقاً في وادي كله. ومعــركة وادي كلــه بذلك من المعارك الفاصلة، إذ أن المعارك التي بعدها كانت أقل منها، ولم يستغرق فتح الأندلس أكثر من ثلاث سنوات.

وبهــذا الانتصار الكبير أصبح الطريق إلى طليطلة سهلاً ولذلك أسرع إلــى فــتحها طــارق واستولى عليها بسهولة وغنم المسلمون كماً هائلاً من الذخائر القيمة ومنها مذبح كنيسة طليطلة والمسماة بمائدة سليمان، وإن تباينت الدراسات حول أصل هذه المائدة ثم كتب طارق إلى موسى بن نصير يخبره بالفتح، فأمره موسى بالتوقف حتى يلحق به ويعزز قواته لأنه توغل كثيراً في الأندلــس، ولــيس صــحيحاً أن موسى بن نصير أضمر الحسد والغيرة من طارق، لأنه تابعي جليل، وطارق بن زياد تحت إمرته، وكل ما فعله موسى بن نصير أن لام طارق بن زياد على إيغاله في الأندلس بغير إذنه.

واصطحب موسى بن نصير معه ١٨٠٠٠ رجلاً معظمهم من العرب، ونزل بالجزيرة الخضراء ٩٣هـ/ ٧١٢م ولم يسلك طريق طارق، بل رأى أن يؤمــن ظهــره ويفتح ما لم يشمله الفتح، ففتح شذونة وقرمونة، وحاصر إشبيلية واستولى عليها وحاصر ماردة واستولى عليها بعد مقاومة شديدة سنة ٧١٣/٩٤، ثــم خرج إلى طليطلة لملاقاة طارق بن زياد والتقيا عند طلبيرة وأقاما بطليطلة فصل الشتاء، ونظم موسى بن نصير شئون الأندلس، فضرب عملة مزدوجة باللغة بالعربية واللاتينية.

وفــي ربــيع سنة ٩٥هـ/٧١٤م خرج القائدان لمتابعة الفتح، فافتتحا مدن: سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة وبرشلونة، وهرب أهل المنطقة إلى قمــم الجــبال الوعــرة، ومن هؤلاء الفارين الهاربين كان أحد أفراد الجيش القوطــي المهــزوم ويدعــي بلاي ومعه مجموعة من الفارين، وقد تركهم

المسلمون احتقاراً لعددهم واستخفافاً بشأنهم. ومن هنا نبتت الحركات الأولى التـي نجحـت في تأسيس إمارة أسبانية ظلت تتسع حتى تمكنت من حرب المسلمين، وأعانتهم ظروف داخلية وخارجية، وأخرى من الجانب الإسلامي على التوسع حتى تم لهم القضاء على دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأمر.

وهكذا فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير الأندلس في مدة قياسية، ثـم تـركاً الأندلس وعادا إلى دمشق لاستدعاء الخلافة الأموية لهما، وترك موسـى بن نصير ولده عبد العزيز في الأندلس أميراً عليها فأخذ ينظم البلاد وبه يبدأ عصر الولاة.

ثانياً: عصر الولاة (٩٥–١٣٨هـ/ ٧١٤–٧٥٥م)

ببداية حكـم عبد العزيز بن موسى بن نصير يبدأ ما عرف بعصر الولاة الذين يتبعون الحكومة الأموية في دمشق أو إلى الشمال الإفريقي، واسـتمر عصر الولاة اثنتين وأربعين سنة، تولى خلالها عشرون والياً، وحكم اثنان منهم مرتين، أي أن متوسط حكم الوالي لا يزيد على سنتين، وربما كان سبب التغير السريع للولاة يرجع إلى خوف خلفاء بني أمية من اسـتقلال الـولاة بـالحكم لـبعدهم عـن مركز الخلافة، وربما يعود للاضـطراب السياسـي في هـذه المرحلة. وكان الوالي يعين مـن قبل الخلـيفة مباشرة وأحياناً مـن عامل مصر أو عامـل إفريقية، أو ينتخبه أهل البلاد من بينهم.

وهذا ثبت بأسماء ولاة الأندلس:

١- عبد العزيز بن موسى بن نصير = سنة وعشرة أشهر

ذي الحجة ٩٥هـ – رجب ٩٧هـ / ٧١٤م – ٧١٦م.

٢- أيوب بن حبيب اللخمي = ستة أشهر.

رجب ٩٧هـ – ذي الحجة ٩٧ هـ.

٣- الحر بن عبد الرحمن الثقفي = سنتان وثمانية أشهر
ذي الحجة ٩٧هـ - رمضان ١٠٠ هـ/ ٧١٦م - ٧١٩م.
٤- السمح بن مالك الخولاني = سنتان وثلاثة أشهر
رمضان ١٠٠ هـ - ذي الحجة ١٠٢هـ / ٧١٩م-٧٢١م.
٥- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي = الولاية الأولى شهر - إلى صفر ١٠٣هـ.
٦- عنبسة بن سحيم الكلبي = أربع سنين وستة أشهر.
صفر ١٠٣ - شعبان ١٠٧هـ/ ٧٢١م - ٧٢٥م.
٧- عذرة بن عبد الله الفهري = شهران - حتى شوال ١٠٧.
٨- يحيى بن سلمة الكلبي = سنتان وستة أشهر.
شوال ١٠٧ - ربيع الأول ١١٠هـ/ ٧٢٦م - ٧٢٨م.
٩- حذيفة بن الأحوص القيسي = ستة أشهر أو أكثر
ربيع الأول ١١٠هـ - شعبان من العام نفسه.
١٠- عثمان بن أبي نسعة الختعمي = خمسة أشهر ١١٠هـ.
١١- الهيثم بن عبيد الكناني ١١١هـ، لمدة عشرة أشهر.
١٢- محمد بن عبد الله الأشجعي = شهران ١١١هـ.
١٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي = الولاية الثانية. سنتان وثمانية أشهر صفر ١١٢هـ - رمضان ١١٤هـ/ ٧٣٠ - ٧٣٢م.
١٤- عبد الملك بن قطن الفهري = الولاية الأولى - سنتان (١١٤-١١٦ هـ/ ٧٣٢-٧٣٤م).
١٥- عقبة بن الحجاج السلولي = خمس سنوات وشهران (١١٦-١٢٢هـ / ٧٤٠-٧٤١م).

١٦- عبد الملك بن قطن = الولاية الثانية = سنة وشهر (١٢٢-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤٠).

١٧- بلج بن بشر القشيري = أحد عشر شهراً أو أقل (١٢٣-١٢٤هـ/٧٤١-٧٤٢م).

١٨- ثعلبة بن سلامة العاملي =عشرة أشهر (١٢٤-١٢٥هـ/٧٤٢-٧٤٣م).

١٩- أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي- ثلاث سنوات وستة أشهر (١٢٥-١٢٧هـ/٧٤٣-٧٤٥م).

٢٠- ثوابة بن سلامة الجذامي = سنة (١٢٨ - ١٢٩هـ/ ٧٤٥-٧٤٧م).

٢١- عبد الرحمن بن كثير اللخمي = بضعة أشهر (١٢٩هـ/ ٧٤٧م).

٢٢- يوسف بن عبد الرحمن الفهري. آخر الولاة. تسع سنوات ١٢٩هـ - ١٣٨هـ/ ٧٤٧ - ٧٥٥م).

سمات عصر الولاة

١- مواصلة الجهاد وإتمام الفتح

أنفــق عبد العزيز بن موسى ولايته في استكمال الفتح، ففتح عدة مدن فـــي حي شرق وجنوب الأندلس وغربها مثل: بابرة وشنترين وقلنبربة، غير أن المصـــادر لا تمدنا بتفاصيل حول فتوحاته، وإنما إشارات مثل: "أقام يفتح مـــا بقي عليه من مدائن الأندلس" وافتتح في ولايته مدائن كثيرة" ولكن هناك من الدلائل على قيامه بالفتوحات في مناطق كثيرة من شرق الأندلس.

ورغم أن المصادر لا تفصل في دور كل وال في عملية الفتوح ولكن لا عهـــد وال مـــن عملـــيات جهاد وفتح، وهذا ما يصرح به صاحب كتاب: "أخـــبار مجموعـــة" عقب الحديث عن كل وال بأنهم كانوا يجاهدون العدو، ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا إفرنجة، وحتى افتتحت عامة الأندلس.

ورغـــم هـــذه العبارة إلا أننا نؤكد بقاء القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة دون أن تدخله قوات المسلمين، وفي هذا الإقليم بدأت البذور الأولى للدويلات الأسبانية.

٢- الجهاد خلف جبال البرتات:

انقســـمت بلاد غالة – الأرض الممتدة خلف جبال البرتات – إلى عدة ولايات مثل:

أ- ولاية سبتمانية: وتضم سبع مدن، وعاصمتها أربونة.

ب- ولايـــة أكيتانية: تقع شمال غرب سبتمانية، وعاصمتها برديل على نهر الجارون.

جـ- إقلـــيم بـــروفانس: شـــمال شرق سبتمانية. وعاصمته أبنيون على نهر الرون.

د- إقليم برغندية: غربي نهر الرون، وعاصمته لوذون.

ويعتبر موسى بن نصير أول من فكر في فتح هذه البلاد ولكنه لم يتح

لــه ذلــك، ومن هنا يعد السمح بن مالك الخولاني أول من غزا بلاد غالة، فاستولى على أربونة وطُولُوشة وتولوز ، وعلى ولاية سبتمانية كلها، واتخذ مــن أربونة قاعدة للجهاد وراء جبال البرتات، واستشهد يوم عرفة ١٠٢هــ بالقــرب من طولوشة. وواصل عنبسة بن سُحَيْم الكلبي الجهاد، فافتتح إقليم بروفانس واتجه شرقاً حتى نهر الرُّون ووصل إلى مدينة ليون شمالاً، وتوغل في الأراضي الفرنسية إلى مسافات بعيدة.

لكنه استشهد كذلك في طريق عودته سنة ١٠٧هــ، وعاد بالجيش إلى الأندلس أحد قادته وهو الأمير عبد الرحمن الغافقي.

ثــم توقفت الحملات ما يقرب من خمس سنوات للمشكلات والخلافات بيــن المســلمين ، ثم عُين عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢هــ/ ٧٣٠م، والياً علــى الأندلس، وكان من أفضل الولاة عدلاً وصلاحاً، وتابع الغافقي الجهاد، فســار ســنة ١١٤هــ/ ٧٣٢م نحو الشمال عابراً جبال البرتات من طريق بنبلونة متجهاً إلى دوقية اكيتانيا ودخل عاصمتها برديل عنوة ثم استولى على مدينتــي تــور وبواتية وأزعجت هذه الحملات مملكة الفرنجة فاستجابوا إلى نداءات الدوق أودد، وتوجهت جيوش الفرنجة للقاء المسلمين، وفوجئ الغافقي بجــيوش الفرنجة بقيادة شارل مارتل فوقعت معركة بلاط الشهداء على بعد عشــرين كــم شمال بواتيه سنة ١١٤هــ/ ٧٣٢م، واستمرت المعركة ثمانية أيــام، وانضــم كثير من الأوربيين إلى جيش شارك مارتل، وهوجم مؤخرة جــيش المســلمين، وأصاب سهم الغافقي فاستشهد فانسحب المسلمون ليلاً. وكانت لهذه المعركة آثاراً كبيرة على مجرى التاريخ سواء بالنسبة للمسلمين أو بالنســبة للأوربيين، ويعتبرها المؤرخون الغربيين أهم حادث في تاريخهم وحاول المؤرخون تعليل هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، فقيل إن الهزيمة بســبب الخلافــات بين عناصر الجيش المسلم، أو لابتعاد المسلمين عن بلاد المســلمين، فبعدوا عن جبال البرتات ٤٠٠ كم، وعن قرطبة ٩٠٠ كم، مما جعــل وصــول المــؤن والإمــدادات أمــراً عسيراً، بينما إمدادات الفرنجة

متواصلة، أو أن المسلمين ساروا مثقلين بالغنائم، مما جعل الفرنجة يهاجمون مؤخـــرة الجيش الإسلامي فارتبكت صفوفه، هذا بالإضافة إلى تكتل إمارات غالـــة لمواجهة جيش المسلمين. وأخيراً ذلك السهم الطائش الذي أصاب قائد الجـــيش الأمير عبد الرحمن الغافقي فأرداه شهيداً، وكان لذلك تأثيراً خطيراً على الحملة.

ولم تتوقف محاولات المسلمين لنشر الإسلام في هذه المناطق، فقد عبر عبد الملك بن قطن جبال البرتات وأعاد الهدوء في إقليم سبتمانيا وماياليه من بلاد الغال، وحصَّن المواقع التي بأيدي المسلمين، وانشغل عنه شارل مارتل بصـــراعاته مع كثير من أبناء جنسه في شمال المملكة. واختتمت محاولات الجهاد في هذه المنطقة بعقبة بن الحجاج السلولي الذي توغل في إقليم جليقية شمال غربي الأندلس، واتخذ ثغراً أربونة قاعدة للجهاد واستشهد في المنطقة سنة ١٢١هـ .

٣- تنظيم الأندلس:

أبـــدى عبد العزبز بن موسى بن نصير همة كبيرة في تنظيم الأندلس، واختار إشبيلية عاصمة للبلاد، ويجمع المؤرخون المسلمون والغربيون على كفاءة الأمير عبد العزيز الإدارية والسياسية، لأنه استطاع . بحنكة كبيرة أن يجعـــل الشعب الأسباني متقبلاً للحكم الإسلامي، وأنه تزوج من أرملة الملك القوطـــي وشجع المسلمين على مصاهرة الأسبان ومن هنا بدأ الامتزاج بين العنصرين، وأقبل الأسبان على الإسلام.

وتبعت الأندلس في عصر الولاة للعامل في إفريقية أو في مصر، حتى زمن عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) فجعلها ولاية مستقلة عن إفريقية وتبعـــت الخلافة الأموية مباشرة، وعين السمح بن مالك الخولاني والياً على الـــبلاد وأمـــره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الـــرفق. ولما توفي عمر بن عبد العزيز رجع تعيين والي الأندلس إلى والي

إفريقية وبموافقة الخلافة، ولما اضطربت الأمور عين الزعماء والقادة الوالي مثلما حدث مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة ١٢٩هـ/٧٤٧م.

ومن أظهر التنظيمات الاقتصادية في عصر الولاة ما قام به السمح بن مـــالك الخولانـــي فـــي مسح أرض الأندلس مدنها وقراها وجبالها وأنهارها وطبيعة أرضها وأهم منتجاتها، وميز ما فتح عنوة وما فُتح صلحاً، وأعاد بناء قـــنطرة قرطـــبة الشهيرة على نهرر الوادي الكبير، والتي وصفت بأنها من أعظم آثار الأندلس وأعجبها.

واتصـــفت سياســـة الولاة بالعدل والإنصاف والتسامح، وفي هذا يقول دوزي: "كـــان الفـــتح العربـــي خيراً على أسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة، وقضى على شطر كبير من المساوئ التي كانت البلاد ترزح تحتها مـــنذ عـــدة قرون. أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضاءل إلى حد التلاشي، وظهرت الملكيات الصغيرة نظراً لتوزيع الأراضي على عدد كبير جداً من الناس انطوى على الخير العميم، وكان ذلك من أحد الأسباب التي أدت إلى ازدهار الزراعة وكذلك عمل الفتح على تحسين حال الطـــبقات الدنـــيا، وكان الإسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد والارتقاء بالطبقات الدنيا.

٤- نشر الإسلام:

عمـــل المسلمون على نشر الإسلام بعد استقرارهم في الأندلس، أثناء حـــركة الفتوح، ولا تفصل المصادر في هذا الجانب، ولكن يمكن القول "إن الإســـلام أخـــذ طريقه للانتشار في أسبانيا، واتبع الفاتحون الذين عبَّروا عنه وشـــرحوه بسلوكهم خطة لنشره، وبذلوا جهدهم في بيانه والدعوة إليه، وكان ذلـــك هدفـــاً واضحاً لدى الفاتحين في أعمالهم كافة، فأتقنوا مهمتهم وحسنت مقدرتهـــم فـــي إظهار جمال الدعوة الإسلامية، قول وعمل، وحافظوا على إشـــراقها وجاذبيتها، فأقبل الأسبان على دين الله سبحانه مختارين حريصين،

ودخلـــوه أفواجاً، حتى إن من لم يسلم منهم مارس بعض العادات الإسلامية، وتسموا بأسماء إسلامية، وتكلموا لغتهم.

وممـــا ســـاعد على نشر الإسلام وجود مجموعة من التابعين في فتح الأنـــدس ومهـــم: حنش بن عبد الله الصنعاني (ت١٠٠هــ) وهو الذي أسس جـــامع سرقســـطة، وحـــبَّان بن أبي جبلة القرشي ت١٣٢هــ. ومن خلال النصوص التي بين أيدينا نجد انتشار الإسلام بين الأسبان، فقيل لعمر بن عبد العزيـــز عـــندما رغب في إجلاء المسلمين عن الأندلس لانقطاعهم وعزلتهم وراء البحر "إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها" وكان عقبة بن الحجاج السلولي (١١٦-١٢١هــ) "إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويبين له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل".

٥- الفتن والصراعات القبلية وانحسار التواجد الإسلامي

ثـــارت في عصر الولاة الفتن والصراعات القبلية بين العرب أنفسهم، واشـــتعلت العصـــبية بين عنصري العرب: المصريين واليمنيين (العدنانيين والقحطانييـــن)، فإذا كان الوالي من أحد الفرقين، أساء للفريق الآخر، فتقوم لذلك الثورات والفتن، حتى لم يكن للأندلس والٍ لعدة شهور، وبدأ النزاع بين القيسية (الشاميين) واليمنية (البلديين) عندما بعث حاكم إفريقية أبو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي قريبة الهيثم بن عبيد الكناني والياً على الأندلس سنة ١١١هــ، فتعصب للشاميين واضطهد المينية وسجن زعماءها.

ولـــم تكن الأمور بين العرب والبربر بأحسن من العلاقات بين العرب أنفســـهم، فكانـــت ولايـــة عبد الملك بن قطن مظالم كلها، مما أسخط الناس وأثارهم غير أنه تولى بعده عقبة بن الحجاج السلولي الذي كان قيسياً صالحاً، فصرف وقته للجهاد، وكانت ثورة البربر على العرب في إفريقية على أشدها ولـــم يكـــن بربر الأندلس مستريحين إلى سلوك بعضهم العرب الذي استبدوا بالسلطان، كأن الدولة الأموية دولتهم، وأساء بعضهم الولاة السيرة مع البربر

في المغرب والأندلس، ففي المغرب أساء الوالي القيسي عبد الله بن الحبحاب (١١٦-١٢٣هـــ)، وتعــدي في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعــم أنهم فئ للمسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله.. فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقص البلاد ووقوع الفتنة العظيمة المؤدية إلى كثير القتل للعباد.

وما إن تسامع البربر بأخبار الثورة في المغرب حتى قاموا بثورتهم في الأندلس، وأخرجوا العرب من المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة في أطــراف الأندلــس مــثل المــناطق الشمالية في جليقية واشتوريس وغرب الأندلس، لأن أغلبها من البربر. وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من البربر.

وســار بربــر الــثورة فــي ثلاثة جيوش منتظمة متجهة إلى طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء. وتحرَّج موقف العرب الذين فقدوا أي أمل من مــدد يأتيهم من المشرق، فاستعانوا ببلج بن بشر القشيري القيسي المحاصر في مدينة سبتة ومعه عشرة آلاف شريطة أن يتركوا الأندلس مرة أخرى بعد انــتهاء ثورة البربر، وبالفعل انتصر العرب على البربر في شذونة وقرطبة وطلــيطلة سنة ١٢٤هــ/ ٧٤٢م، وطاردوا البربر، فتركوا أماكن استقرارهم في الوسط والشمال الغربي، فخلت هذه الأراضي من العرب والبربر، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة الإيبيرية.

بعــد انــتهاء الحــرب مع البربر رفض بلج بن بشر مغادرة الأندلس وثــاروا علــى عبد الملك بن قطن وقتلوه، واستمرت المعارك بين الشاميين والبلديــن وقتل فيها بلج، وانتصر الشاميون وتولى ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٤هــ/٧٤٢م، ثم انقسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وتولى أبو الخطار حسام بــن ضــرار الكلبي سنة ١٢٥هــ/ ٧٤٣م الذي اجتهد في فض الصراعات العصــبية، ثــم مــا لبث أن غيَّر سياسته ، ومال إلى قومه اليمنية فتجددت المعــارك من جديد، وقتل بعضهم بعضاً، واتفقت الكلمة على اختيار يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

ثم قامت الحروب مرة أخرى بين الصميل بن حاتم متحالفاً مع يوسف الفهري زعيم البلديين وبين زعيم يمني يسمى يحيى بن حُرَيث الجذامي حاكم ريـــة، والـــتقى الطـــرفان عـــند شقندة سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، ووصفت هذه المعـــركة بأنه: "لم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد حرب الجمل وصفين" وانتهت بهزيمة اليمنية ومقتل يحيى بن حريث وأبي الخطار، وانفرد الصميل ويوسف الفهري بالأمر.

وأدت هـــذه الحروب العصبية القبلية إلىحدوث مجاعة شديدة بالأندلس سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م، فازداد المسلمون قلة عددية، مما أتاح لنصارى الشمال تكاثـــراً عددياً، واحتلوا الأرض التي تركها المسلمون. وهكذا تثبت الأيام أن المسلمين لا يتعلمون من دروس التاريخ، وأن خلافاتهم فيما بينهم كانت أقسى عليهم من خلافاتهم مع أعدائهم.

ثالثاً: عصر الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨ – ٣١٦هـ/ ٧٥٦-٩٢٩م).

يمتد هذا العصر نحو ١٨٤ سنة، وسمى بذلك لأن الأندلس حكمت من أمراء أمويين استقلوا عن الخلافة العباسية ببغداد والأمراء الأمويون في هذا العصر هم:

١- عـــبد الرحمـــن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨- ١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م).
٢- هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ – ١٨٠هـ/ ٧٨٨ – ٧٩٦م).
٣- الحكم بن هشام (الربض) (١٨٠ – ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ – ٨٢٢م).
٤- عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط) (٢٠٦ – ٢٣٨هـ/ ٨٢٢ – ٨٥٢م).
٥- محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣هـ / ٨٥٢ – ٨٨٦م).
٦- المنذرين محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ – ٢٧٥هـ / ٨٨٦ – ٨٨٨م).
٧- عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـ / ٨٨٨ – ٩١٢م).

ومـــن خـــلال الأحـــداث يمكن القول أن عصر الإمارة انقسم إلى فترتيـــن: فترة الأمراء الأقوياء وفيها استتبت الأمور، وتمتد من ١٣٨ – ٢٣٨هـــ، وفترة الاضطرابات والصراعات والثورات، وسميت هذه الفترة "بدويـــلات الطوائف الأولى" وشملت الفترة من (٢٣٨ – ٣٠٠هــ) وذلك لكثرة الثورات والانقسامات خلالها.

١- عبد الرحمن بن معاوية "الداخل" (١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م):

عندما سقطت الدولة الأموية بالشرق سنة ١٣٢هــ / ٧٤٩م، تعقب العباســـيون بنـــي أمية وقتلوا كـــل مـــن وجدوه، ولكن عبد الرحمن بن معاويـــة أفلـــت من القتل، وهرب مختفيا لاجئا من مكان لآخر من شمال الشـــام إلـــى العـــراق إلـــى فلسطين إلى مصر ثـــم التجأ إلى قبيلة نفزة بطـــرابلس المغرب إلى مدينة سبتة أو مليلة، واتصل بموالي الأمويين في الأندلـــس، حيث كانت طالعة بلج بن بشر الشامية من هؤلاء الموالي وقام بالسفارة للداخل مولاه بدر الذي فاوض زعماء الموالي الشاميين، فعرضوا الأمـــر على الصميل بن حاتم وزير يوسف الفهري في فض مساعدتهم، فعرضوا الأمر على اليمنية الذين رحبوا بالداخل، فنزل الأندلس سنة ١٣٨ هـــ/ ٧٥٥م.

وكانـــت مـــن أطول الثورات وأخطرها ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناســـي البربري، والتي استمرت مـــن سنة ١٥١هــ إلى ١٦٠هــ / ٧٦٨ – ٧٧٧م، وامتدت بين ماردة وقورية غربا ووادي الحجارة وقونقة شرقا، وادعي الانتساب إلى الحسين بن علي، فدبر له الأمير عبد الرحمن مؤامرة وقتلة.

وقـــام ملك الفرنجة شارلمان لمحاولة بالاستيلاء على سرقسطة سنة ١٦١هــــ / ٧٧٨م واتفق مع البشكنس على مهاجمة المسلمين في الثغر الأعلـــى، وحاصـــر شـــارلمان سرقسطة ثم تركها ورحل، فانقض عليه

المسلمون وقتلوا قائد مؤخرة جيشه رولان بطل الملحمة الشعبية الفرنسية "أنشودة رولان".

ولقد بذل عبد الرحمن الداخل جهدا خارقا في الارتقاء بالأندلس وتوحيد أقاليمها والتغلب على الصعوبات التي اعترضت محاولة إقامة دولة أموية في الأندلس وتمثلت الصعاب التي واجهها عبد الرحمن الداخل في قيادات الأندلس القديمة – الصميل ويوسف الفهري وانتهى الأمر بالقضاء عليها كما أن القبائل اليمنية قد انقلبت على عبد الرحمن الداخل واضطرته إلى خوض عدد من المعارك معها ولم يخل الأمر من محاولات أفراد الأسرة الأموية الطامعين في الإمارة حيث قاموا أكثر من مرة بالمؤامرة ضد عبد الرحمن الداخل لكنه نجا منها جمعيا.

أما أخطر هذه الصعاب فتمثلت في ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي الذي رفع راية الدعوة للعباسيين وشايعته القبائل اليمنية وكل الثائرين على عبد الرحمن الداخل الذي تمكن بمعجزة كبيرة من الانتصار على اليحصبي ورجاله وقام الداخل بإرسال رأس قائد هذه الثورة قد تلقى في طريق الخليفة أبي جعفر المنصور في رحلته للحج ممن جعل المنصور يقول الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراً.

ويمكن القول إن شخصية عبد الرحمن الداخل كانت من الشخصيات المؤثرة تاريخيا لما تمتع به من خصال وعبقرية، فوصفه ابن حيان بقوله: " كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم ثاقب الفهم، كثير الحزم، ناقد العزم بريئا من العجز، متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداما، بعيد الغور شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغا مفوهاً، سمحا سخيا، طلق اللسان، وكان قد أعطى هيبة من وليّه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلي عليها، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد ويعود المرضى

ويكثــر مباشرة الناس والمشي بينهم".

وكــان لعبد الرحمن الداخل إنجازات حضارية مميزة فأنشأ مسجد قرطبة، ومدينة الرصافة، واهتم بالعلم والعلماء وبنى عددا من القصور، ونظــم الجــيش وتغلــب علـــى كل الصعاب حتى أطلق عليه أبو جعفر المنصـــور اسم "صقر قريش" وتــرك الأندلس دولة قوية ثابتة الأركان، وانـــتقل إلـــى رحاب ربه بعد أن حكم الأندلس ٣٤ عامـــا وذلك في عام ١٧٢هـــ.

٢- هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م):

خلف هشام والده في الإمارة بعهد منه لأنه أميز أبناء عبد الرحمن الداخـــل، فكان ليناً ورعاً حسن السياسة بصيراً بالأمور، وجذب الناس له بإقامـــته للحق، وتحريه للعدل، ومعاقبته الولاة المقصرين، وذهب بسيرته ســـيرة عمر بن عبد العزيز، فـــكان يبعث بقوم ثقات إلى الكور يسألون الـــناس عـــن سيرة عماله، وخبرته بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به".

وكـــان حاكما بالسنة والكتاب، قبض الزكوات من طرقها ووضعها في حقها، ولم يأخذه في الله لوم ولا تعلق به ظلم.

ولم يعكر إمارته إلا ثورات أخويه سليمان وعبد الله البلنسي، وكان سليمان بطليطلة، فحشد الحشود والجنود، وانضم له أخوه عبد الله، فخرج إلـــيهم الأمـــير هشـــام، وحاصر طليطلة، ففر سليمان إلى ماردة، وطلب الأمان، فأمنه هشام، وأعطى أخواه مالا، ورَحَّلهم إلى المغرب.

ووجه الأمير هشام حملتين إلى منطقتي: ألبه وجليقية سنة ١٧٥هـــ/ ٧٩١م نكلـــتا بهما تنكيلا شديدا، وفي سنة ١٧٨هـــ / ٧٩٤م وجه الأمير جيشين إلى ألبة والقلاع وإلى مدينة أبيط عاصمة أشتوريس الجديدة.

وفـــي عهـــد هشام وصل المذهب المالكي إلى الأندلس حمله طلاب

الأندلس الذين تعلموا بالمدينة ومنذ ذلك التاريخ حافظت بلاد الأندلس على المذهب المالكي طوال فترة وجود الإسلام بها.

٣- الحكم بن هشام المعروف بالربضي ١٨٠ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢م.

ورث الحكم الربضي إمارة مستقرة إلا أنه انصرف إلى متعة الشراب والصيد، مع كونه شديد الحزم، ماض العزم، حسن التدبير، وهو أول من جند الأجناد والمرتزقة، واستكثر من الحشم والحراس، واتخذ المماليك الصقالبة، وسماهم الخُرس لعجمتهم، وبلغوا خمسة آلاف، وكانوا شديدي القسوة.

وواجه الحكم الفتن والثورات بحزم، فثار عليه عمه سليمان بن عبد الرحمن الداخل، واستولى على جيان وإلبيرة، والتقى مع جيش الحكم، إلا أنه هزم وقتل سنة ١٨٢هـ / ٧٩٨م.

وتكررت الثورات في طليطلة، فعيّن الحكم عليهم عمروس بن يوسف الذي أوقع بزعماء طليطلة في مذبحة قتل فيها عدد كبير، وسميت باسم "وقعة الحفرة" فضعفت شوكة أهل طليطلة، وأكثرهم من المستعربين الذميين.

وأخطر حركات التمرد كانت في ربض شقندة الواقع على الضفة اليسرى للوادي الكبير، وكان حياً مزدحماً يسكنه صغار التجار والفقهاء، وآثار الفقهاء الناس على الحكم، وأكثروا من نقده، وثاروا عليه سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥م، فقضى الحكم على ثورتهم، وصلب منهم اثنين وسبعين رجلا، وكان منهم الفقيه يحيى بن مضر القيسي .. ولم يمنع هذه القسوة تكرر الثورة مرة أخرى سنة ٢٠٢هـ / ٨١٨م واشترك في هذه الثورة أعلام الفقهاء مثل: يحيى بن يحيى الليثي وطالوت بن عبد الجبار من تلاميذ الإمام مالك، واقتحم الثوار قصر الإمارة، وكادوا ينالون من الحكم الذي نجح في أن يرسل فرقة من جيشه أشعلت النيران في مساكن

الربض، فعاد الثوار لإنقاذ أسرهم، فأخذتهم السيوف واستبيح الربض ثلاثة أيـــام، فقـــتل عدد كبير، وصلب ثلاثمائة، وهدم الربض وأقيمت بدلا منه مزرعة، وأمر الحكم بجلاء سكان الربض عن الأندلس، فسار نصفهم إلى مديـــنة فـــاس والنصف الآخر تمكن من الاستيلاء على الإسكندرية حتى أخرجهم منها والى مصر فاستولوا على كريت.

وقـــيل إن الحكم الربضي ندم على ما فعله مع أهل الربض، فاتجه إلـــى الإحسان إلى الرعية، يقول ابن عذاري: " عتب نفسه فيما تقدم منه عـــتابا وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المثلى، وقال: إن الآخرة هي الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى، وأقر بذنوبه واعترف". وعفى عن الفقهاء والعلماء الذين شاركوا في الثورة. ومع ذلك تمكـــن الحكم من تثبيت عرش الإمارة، وأن يتيح الفرصة لازدهار البلاد ثقافياً وعلمياً.

٤- عبد الرحمن (الثاني) بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م):

تولـــى عبد الرحمن الثاني الإمارة في سن الثلاثين، وعرف بدماثه الخلـــق محـــبا للـــتقرب للرعية ميالا للراحة، ذا حزم وقدرة على اتخاذ القـــرارات المناسبة، رفيع الخلال والكفاية، يحسن اختيار الرجال، فكان عهـــده عهـــد رخـــاء وسلم بعد ثورات، وبذلك فهو أزهى عهود الإمارة وأكثرها استقراراً ومنجزات.

غير أن عهد عبد الرحمن الأوسط لم يصف له تماما، فثارت بعض المـــدن مثل الفتنة بين المضرية واليمنية في تدمير، ودامت سبع سنوات ٢٠٧ - ٢١٣هـــ / ٨٢٢ - ٨٢٨م.

علـــى أن أخطر ما حدث في عهد عبد الرحمن الأوسط هو مهاجمة النورمانديين (أو المجوس) لسواحل الأندلس سنة ٢٢٩هـــ/ ٨٤٤م، ونزلوا ميناء الأشبونة بمراكبهم الخفيفة، فتصدى لهم عامل المدينة دهب بن عبد

الله بـــن حـــزم، فنزلوا إلى قادش، إلى أشبيلية وأحرقوا مسجدها الجامع ونهـــبوا المديـــنة، فتصدى لهم الأمير عبد الرحمن الأوسط وقواده حتى أرغموهم على الفرار ووقع منهم قتلى وأسرى في يد المسلمين.

وتميز عهد عبد الرحمن الأوسط بظهور عدد من الشخصيات العلمية الكـــبرى فـــي كل مجال من مجالات الحياة الفكرية منهم يحيى بن يحيى الليثـــي، والحكم الغزال وعبد الله بن حبيب، وزرياب، وعباس بن فرناس وغيرهم ممن جعل مـــن عهد عبد الرحمن الأوسط فترة زاهرة في مجال العلوم والآداب والفنون حتى وصف بأنـــه عهد السلام الطويل.

٤- فترة الصراعــات والفتن في عهد الإمارة:

وشملت هذه الفترة ثلاثة أمراء، امتد حكمهم نحو ثلثي قرن (٢٣٨، ٣٠٠هـــ/ ٨٥٢ ، ٩١٢م) وهؤلاء الأمراء هم:

أ - الأمير محمد بـــن عبد الرحمن بـــن الحكم (٢٣٨، ٢٧٣هـ/ ٨٥٢، ٨٨٦م):

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن حازماً فطنا بعيد النظر، إلا أنه واجـــه مشـــكلات داخلـــية كثيرة في مختلف نواحي الأندلس، كان أهمها ثـورات أهل طليطلة المستمرة منذ ٢٣٨هـــ/ ٨٥٢م، فأرسلت الحملات إلـــيهم، وحاصرت المدينة فانتسفت الزروع حولها سنة ٢٤٢هـــ/ ٨٥٦م. وخرج إليها الأمير بنفسه سنة ٢٤٤هـــ/ ٨٥٨م، وقد قل عددهم وضاقت معيشـــتهم، وثـــارت النواحي الغربية في ماردة وبطليوس سنة ٢٥٤هـــ/ ٨٦٨م، وكـــان أغلـــب الثوار في حصون أقطعها لهم الإمارة مثل: عبد الرحمـــن بن مروان الجليقي وخير بن شاكر وأسكن الأمير محمد القواد المولدين في قرطبة، إلا أن عبد الرحمن بن مروان الجليقي هرب وتحصن بقلعة في ريف ماردة، واتفق مع الأمير محمد على النزول بقرية بطليوس وما حولها على أن يعفيه الأمير من المغارم والمكوس.

وقامت في مدن الثغر الأعلى ثورات بني قسي المولدين سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠م واستمر الوضع مضطربا بين الإمارة والثغر الأعلى إلى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م حيث آل الأمر إلى مطرف بن لب بن قسي الذي حكم سرقسطة وتطيلة. ثم كانت ثورة رية " مقدمة فتنة عمر بن حفصون التي طغت على جميع فتن الأندلس".

ومن العوامل التي أثرت على الأحوال في عهد الأمير محمد الوضع الإداري في الدولة وسياسته الاقتصادية، فقد فشل الأمير محمد في استئلاف الرعية والسرعة في رفع الظلم، رغم ما عرف عن الأمير من الحزم في الأمور المالية وعلمه بعمال الإدارة. ورغم أن هناك عمالا عُرفوا بالشدة على الرعية في جباية الخراج فقد استمسك بهم الأمير محمد، وعزل من عرف بالنزاهة والعدل لا لسبب إلا أنهم تحرجوا عن ممالأته في بعض الأمور، وعَيَّن آخرين ممن ينفذون أمره، وإن كان في ظلم الناس.

ب- الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣ ، ٢٧٥هـ/ ٨٨٦، ٨٨٨م):

تولى الأمير المنذر بن محمد بعد وفاة والده، وكانت الأندلس عند وفاته قد "خرقت الهيبة وزال ستر الحرمة واستقبل ابنه المنذر نيران الفتنة ". وكانت فتنة ابن حفصون أكثر ما أقلق الأمير المنذر لإغارته على أرياف كورجيان وإلبيرة، فحاربته قوات الإمارة، وحاصرت حصن بشتر وحطمت القرى حوله، وحاول ابن حفصون الصلح، ثم هرب، فصمم الأمير المنذر على محاصرته واستنزاله، إلا أنه توفى سنة ٢٧٥/ ٨٨٨م.

وهكذا حكم الأمير المنذر ما يقرب من سنتين، ولم يستطع فيها بقصر مدته رتق ما كان انفتق من الملك، مع عزم منه في ذلك وجد، وأظهر المنذر العدل فأسقط عن أهل قرطبة عشور السنة، وقام بتغيرات إدارية فأصلح أمر كورة ريه، وحصَّن معاملها،

واسترد الأملاك التي اغتصبها الوزير هاشم بن عبد العزيز وردها لأصحابها.

جـ- الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥، ٣٠٠هـ/ ٨٨٨، ٩١٢م):

بويع الأمير عبد الله بعد وفاة أخيه المنذر، وكانت له مزايا جعلته محببا لدى الناس، فكان مقتصداً في ملبسه وجميع أحواله، شديد التواضع منكراً للسرف، مبعداً لأهله، قويا على ذوي الظلم والجور، ويعقد على أبواب قصره مجلسا في أيام معلومة، فترفع إليه الظلامات، وتصل إليه الكتب .. فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه.

وواجه الأمير عبد الله ظروف صعبة لتمزق الأندلس بالثورات، وأجمل ابن عذاري وصف بالأندلس في عصره بقوله: " وأفضت إليه الخلافة وقد تحيفها النكث وفرقها الشقاق، وحلّ عراها النفاق والفتنة مستولية، والقلوب مختلفة وغصا الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن والشر قد اشتهر .. وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك".

وتصدى الأمير عبد الله لمختلف مظاهر الفتنة بقوة وشجاعة مدة خمس وعشرين سنة دون تعب أو ملل، فقاتل الثائرين في كل مكان بالأندلس، وضرب بعضهم ببعض، ويعود للمنذر الجزء الأكبر من استقرار الأندلس وازدهاره في عصر الناصر بعد ذلك.

جمع ابن الخطيب: أسباب الثورة في ثلاثة أمور، فقال: " والسبب في كثرة الثور يومئذ ثلاثة وجوه، الأول: منعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الإذعان لبعض. والثالث الاستناد عند الضيقة والاضطراب إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين

بعضهم ببعض.

ومن الأسباب التي أدت إلى الثورات كذلك توالى الأزمات الاقتصادية من قحط ومجاعات وأوبئة، فأثر ذلك على معظم أهل الأندلس ويبدو أن الحكومة لم تواجه هذه الأزمات بحرص وتخفيف وطأتها، فوقعت الأزمات في الفترة من سنة ٢٥١ – ٢٥٥هـ/ ٨٦٥-٨٦٨م، وكانت أشد سنوات القحط سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م فعمت المجاعة وانعدمت الزراعة، وهلك كثير من الناس.

وحدث جفاف كبير ومجاعة سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م، وتكرر ذلك سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م فعمت الأندلس مجاعة كبيرة، وهلك كثير من الناس، حتى هاجر بعض الأندلسيين للمغرب.

ومن أسباب الثورات سوء سيرة العمال والوزراء، فالأمير محمد عرف أن بعض الجباة اتصفوا بالظلم والشدة إلا أنه استمسك بهم، وتتفق المصادر على سوء سيرة الوزير هاشم بن عبد العزيز في عهد الأمير محمد، فألقى بأمره إليه " فلم يلبث أن أفسد عليه أمره بشرهه وصلفه، وحمله إلى غير المنهج من محمود طرقه، وعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول وأولى السوابق والأصول إلى الأحداث واللاحقين من أولى الشرة والخيانة ودناءة الأصول والبراءة من عهده الحياء والمروءة .. فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك حالا بعد حال. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد، فما إن هلك الأمير محمد إلا وأكثر الأرض من الأندلس مضطرمة ناراً ".

وشملت الثورات معظم حواضر ومدن الأندلس وحصونها، فدخلت الإمارة في صراع مع الثوار الذين مثلوا معظم عناصر السكان من: عرب ومولدين وبربر.

على أن أخطر الثورات والفتن وأطولها عمراً كانت ثورة ابن حفصون في كورة رية، فبدأت سنة ٢٦٥هـ/ ٨٣٩م، واستمرت حتى

وفاتـــه سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٨م أي نحو أربعين سنة، وتمركزت الثورة في منطقة مالقة وجبال رندة، واعتصم أول أمـــره بقلعة ببشتر، وكانت على صـــخرة عالـــية ضخمة منحدرة عموديـــا، وهي " أمنع قـــلاع الأندلس قاطبة ".

ومـــن الأســـباب الاقتصـــادية للـــثورة بجانـــب الأسباب السياسية والاجتماعـــية أن عامل الدولة في كورة رية يحيى بن عبد الله بن يحيى طالب أهلها بسداد ما تبقى من العشور، واشتد عليهم في الطلب، واستغل ابـــن حفصـــون ذلك، فقـــاد الثوار، وحـــاول الاتصال بـــالأدارسة وبني قسى وبني حجاج والنصارى وثائـــرين مولديـــن آخرين، وعاونه بعضه حينا.

وحمـــل الجـــيش الأمـــوي عبء محاربـــة ابـــن حفصون بقيـــادة أحمـــد بـــن أبي عبدة، وهاشم بن عبد العزيز، وأغار ابن حفصون على المـــدن والقـــرى وردت عليه القـــوات الأمويـــة بنفس السلوك التدميري للزرع.

وضـــم ابـــن حفصون إليه: أرشذونه ومالقة وجيان واستجة وباجة وقـــبرة وحصـــن أشر، فأحكم قبضته على المنطقة الممتدة ما بين جيان وأشجة غربا، ومالقة على ساحل البحر المتوسط شرقا.

ودخل الأمير عبد الله في حروب حاسمة مع ابن حفصون ألحق فيها به هزائم حاسمة على يد اثنين من أمهر القواد وهما: عبد الملك بن أمية وعبـــيد الله بن أبي عبده، فاستولوا على معقله قلعة بلاي سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، وفـــي ســـنة ٢٨٦هـــ / ٨٩٩م أعلن ابن حفصون ارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية، مما أفقده كثيراً من أنصاره المسلمين وتقلص سلطانه.

وقـــرر الخلـــيفة الناصر حسم ثورة ابن حفصون فحاصره في قلعة ببشـــتر، واستولى على الحصون المهمة في كورتي جيان وإلبيرة، فطلب

اسم حفصون الصفح، ثم توفى سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م.

العلاقة مع نصارى الشمال في عصر الإمارة:

أفرز القرن الثالث الهجري ظواهر ساعدت النصارى على التوسع منها: ضعف سلطة الإمارة الأموية، وصراعات العسكر المسلمين وزيادة التجزئة السياسية والتدهور الاقتصادي، في حين كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الإمارات المسيحية تحفز حركة المد المسيحي واجتياح أرض المسلمين.

فقام ألفونسو الثالث بغارات على أراضي المسلمين في الثغور، ووسع حدوده الجنوبية على حساب أملاك المسلمين، وحاول التحالف مع بني قسي، إلا أنهم عادوا النصارى وجدوا الحصون القريبة من أراضي النصارى مثل حصن ناجرة، ورد ألفونسو الثالث على ذلك بتحصين الأراضي النصرانية، فبنى حصن برغش سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، الذي تحول إلى مدينة ثم إلى عاصمة مملكة قشتاله، وأغار ألفونسو على الفلاحين المسلمين في ريف مدينة طرسونة – تابعة لكورة تطيلة – وأخذ الأغنام والأموال والفلاحين، غير أن محمد بن لب القسوى استرد كل ذلك منه.

واستغل ألفونسو الثالث وضع الأندلس الإسلامي فوطد حدوده الجنوبية، فعمر المدن والقرى الواقعة على نهر دويرة في قطاعه الغربي فضلا عن المدن في الشمال، واحتوى أكبر مساحة ممكنة من حوض نهر دويرة وعمر المناطق التالية لها شرقا مقتربا من منابع النهر وموسعا حدود دولته الجنوبية الشرقية، وقدرت المساحة المعمرة بحوالي ٧٠ ألف كيلو متر مربع، فبنيت مدينة سمورة سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م وشيدت حصونها ومدينة شنت منكش وعدد كبير من الحصون والأديرة، واستوطن النصارى في أملاك المسلمين وأراضيهم التي تركوها، ونزلوا إلى

الجنوب.

وهكذا استطاع ألفونسو الثالث تعمير المناطق المقفرة فبلغت مساحة مملكة أشتوريس نحو ربع المساحة الكلية لشبه الجزيرة الإيبرية، وغطت جميع منطقة الشمال الغربي ودخلت في هذا الامتداد مدينة قلمرية، وبيد أن ألفونسو الثالث تخلى مكرها عن عرشه إلى ابنه غرسية (٢٩٧ – ٣٠٢ هـ/ ٩٠٩ – ٩١٤م) الذي قام بنقل حاضرته من "أوبيدو" إلى " ليون" لتصبح اسم المملكة مملكة ليون، وهذا يعني اتساع المملكة جنوبا على حساب المسلمين، فنقلت العاصمة من الجبال إلى السهول، ويعني أيضا قلة خطر المسلمين في هذه المنطقة.

وقامت مملكة نافار (نبرة) جنوب غربي البرتات، وعاصمتها (بنبلونة) وصاهر الأمير عبد الله الحاكم النافاري فرتون بن غرسية، فتزوج ابنته (ونقه) – (در) في المصادر العربية. ورغم ذلك، فشكلت المملكة خطراً على أملاك المسلمين وأراضيهم في القرى والحصون القريبة، لقيامهم بالغارات على هذه الأراضي، وقتل في إحدى هذه الغارات لب بن محمد، فقام أخوه عبد الله بحملة تأديبية على أراضي نبرة.

وكان خطر قطالونيا قليلا في هذا الوقت، إلا أنهم عمروا الأراضي الثغرية، فاتسعت حدودهم على حساب المسلمين، فحصن المسلمون المنطقة على يد لب بن محمد القوي ومحمد بن عبد الملك الطويل، وهاجموا حصون النصارى مثل حصون بليارش ومولة "وقتل بهذه الحصون نحوا من سبعمائة علج وسبى نحو من ألف سبية ".

الحضارة في عصر الإمارة:

تمكن الأمراء الأمويون من توطيد الأمر لهم، فانقاد إليهم كل أبى وأطاعهم كل عصي، وكان هذا دأبهم وقانونهم، ومثل عصر الإمارة مرحلة انتقال حاسمة إلى حياة إسلامية في السلوك الاجتماعي والحياة

اليومية، وقد بذل الأمراء والعلماء والدعاة الجهود في سبيل ذلك، فأصبحت قيم المجتمع مستمدة من القرآن والسنة، توصف أهل الأندلس بأنهم " الأغلب عندهم إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان".

واستمرت الإمارة الأموية بين القوة والتوسط عامة، إلى قبل الربع الأخير من القرن الثالث، حيث بدأت عوامل الضعف في السريان، فبدأ المجتمع يفقد تماسكه وأمنه. فازدهار الأندلس واضمحلاله مرتبط بالعلاقة بين المجموعات البشرية الممثلة للمجتمع وهي كثيرة تتمثل في:

١- العرب:

وهم ينقسمون بحسب النسب إلى قحطانيين ومضريين أو بحسب الدخول للأندلس إلى بلديين وشاميين، وتوزعت القبائل العربية في معظم الأماكن، فاستقر بعضهم في المدن والحواضر، وسكن بعضهم القرى والقلاع.

٢- البربر:

بفرعيهم الكبيرين البتر والبرانس، ويأتون بعد العرب أهمية، فلهم فضل كبير في فتح الأندلس، وأهم القبائل البربرية في الأندلس مطغرة، ومديونة، ومكناسة، وهوارة وهم من زناتة. ومنهم كذلك مغيلة وملزوزة وأوربة ومصمودة، واشترك البربر في توجيه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالأندلس.

٣- المولدون:

وهم الجيل الجديد الذي نشأ من أباء مسلمين وأمهات أسبانيات والذين أسلموا من الأسبان، وكانون من أصول متعددة لاتينية وقوطية وفينيقينة وإفريقية، وازدادت أعداد المولدين مع انتشار الإسلام والتزاوج بين العرب والبربر وبين أهل أسبانيا، وقاموا بالعديد من الثورات

في عصر الإمارة. كما رأينا.

٤- أهل الذمة:

من النصارى واليهود، وكان عدد النصارى عند دخول المسلمين كبيرا، لكن أعدادهم تناقصت، ولكن هناك أماكن تواجد فيها النصارى واليهود بصورة واضحة مثل إلبيرة ورية وجيان وبطليوس.

وتحرك النصارى الأسبان بإحساس أن الأندلس بلادهم، وأذكت الكنيسة هذا الإحساس واستغلته، فقام النصارى بثورات عدة في طليطلة والمناطق القريبة من الشمال النصراني.

٥- الصقالبة:

ظهروا في عصر الإمارة وهم مماليك جلبوا للأندلس من مناطق بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو عن طريق الحروب أو القرصنة وتركز عملهم في الجيش والحراسة والخدمة في القصور، ثم تولوا خططا مهمة أثرت على تاريخ الأندلس، حتى تدخلوا في تعيين الخلفاء والولاة، وكان لهم دور مؤثر في إنهاء الخلافة الأموية باشتراكهم في الفتنة البربرية – كما سنوضح.

وهذه العناصر والمجموعات السكانية إذا سيطر عليها الأمير الأموي ازدهر المجتمع، وإلا فالتشاحن والثورات والفتن، وما يستتبع ذلك من فقدان الأمن وانهيار الاقتصاد والعمران. فقبيل الربع الأخير من القرن الثالث الهجري بدأ الأمراء الأمويون يفقدون السيطرة على بعض المجموعات السكانية المكونة للمجتمع، فأطلت العداوة والبغضاء بين العناصر السكانية، وشملت الأندلس الثورات والفتن، وانفك عقد المجتمع، فالمولدون يتعصبون ضد العرب والبربر. والعرب يردون بالتعصب ضد المولدين والبربر، وتتحالف بعض العناصر مع بعضها.

وحاول الأمراء وقف هذه الثورات الكثيرة، لكن الأموال قليلة

والدخل يتناقص، والأهالي يصرخون والثغور تترك للأعداء ، فظهر عجز السلطة وقويت أطماع أهل الشرق في كل مكان.

وظهــرت النظم السياسية والإدارية في فترة الإمارة، فاتخذوا لقب الإمــارة "لأنهــم كانوا يشعرون بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشــرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين، أي المسيطر على الحجاز أصــل العرب والملة، وهو الخليفة العباسي في ذلك الوقت" إلى أن حول الخليفة الناصر الإمارة إلى خلافة سنة ٣١٦هـــ.

ويأتي منصب الوزارة بعد الإمارة، وتطورت هذه الخطة مع تطور أحــوال الأندلس، فوضحت الخطة مع هشام بن عبد الرحمن، ثم تطورت أكثر في عهد عبد الرحمن الأوسط، فقسمها إلى وزارات مختلفة ، واتخذ لهم رئيسياً يدعى الحاجب "رئيس الوزراء"، وجعل للوزارة بيتاً في قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شئون الدولة، فوزير للمال، ووزير للمظالم، ووزير للثغور أو الحرب.

وكــان معظم الوزراء من موالي بني أمية، وتوراثت بعض البيوت الــوزارة مثل: بني حُدير وبني أبي عبدة وبني شهيد وبني فطيس وبني حزم.

ونالــت خطة القضاء العناية والاحترام من الخاصة والعامة لتعلقها بــأمور الدين، وللقاضي شروط وصفات واختصاصات حددتها المصادر، وللقضاة كبير سمي في عصر الولاة بقاضي الجند، ثم قاضي الجماعة في عصــر الإمــارة، وأسندت إلى القاضي بعض الخطط الأخرى كالشرطة والأحباس والمواريث والصلاة.

وأظهــر القضـــاة تعففاً في تولي القضاء، وحرصوا على استقلال القضـــاء، فاشـــترط القاضي محمد بن بشير المعافري على الأمير الحكم الربضي أن يكون حكمه سارياً على الجميع من الأمير إلى الحارس، وإذا

ظهـــر العجـــز من ذلك أعفي. وعـــاون القاضي في أعماله خطط أخرى كثـــيرة مـــنها: خطة المشاورة والشرطة والحسبة والمظالم والرد والفتيا والأحباس.

*** العمران:**

شهد عصر الإمارة طفرة عمرانية ضخمة صاحبت كثرة عدد السكان وتغـــير الأمـــوال عما كان قبل العصر الإسلامي، فبنيت المساجد والقصور والـــدور والحمامات ودور الصناعة، والمنشآت الحربية كالقلاع والحصون والمنشـــآت المائية والجسور والقناطر والسواقي والنواعير. فأسس المسلمون بـــالأندلس مـــا يقـــرب مـــن خمسين مدينة مثل: ألمرية ومرسية والزاهرة والزهراء وبطليوس وغيرها.

ويعـــد مسجد قرطبة الجامع من أشهر المنشآت في عصر الإمارة فبناه الداخل سنة ١٧٠هـــ/ ٧٨٦م، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ثم وسع بعد ذلك في عهد الأمراء هشام وعبد الرحمن.

الحياة العلمية:

إن نجـــاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولة مستقرة في الأندلس قد أتـــاح الفرصة للهجرات الشرقية والأموية بما تحمل من ثقافة إلى الأندلس، وبذلك وجدت نواة الثقافة الإسلامية من منابعها الأصلية في المشرق، وليس مـــن شك في أن شعلة الثقافة الأندلسية قد ذكت عند قدوم كثير من الأمويين وأشياعهم الذي كانوا على قدر كبير من الثقافة، وليس من شك أيضاً في أن وفودهم على الأندلس وطأ للثقافة في سبيل الانتشار والذيوع ويقول آخر: "إن مـــن نتائج سياسة عبد الرحمن الداخل أن أخذت وفود المهاجرين تأتي على بـــلاد الأندلس لدعم الدولة الناشئة وتعزيزها وكون المراونيون ما يمكن أن نســـميه بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص، ومع تواصل الهجرات المشرقية إلـــى الأندلس اتسعت العمارة وكثر أعداد المسلمين فأُنشئت المساجد الجامعة

التـــي أصبحت مراكز للتعليم الإسلامي، فقد انتهت مساجد قرطبة –وحدها– على أيام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة وتسعين مسجداً ثم زادت بعد ذلك ولـــم يلبـــث الأندلســـيون أن قـــاموا بـــرحلات علمية إلى المشرق يطوفون بحواضره العلمية الكبرى مثل بغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ومصر والقـــيروان، وقد حمل هؤلاء المتعلمون لواء الدفاع عن حقوق الرعية، فقد اشـــتركوا فـــي الثورة على حكم الحكم بن هشام الربضي، مما يدل على أن رحلاتهم كانت في عهد الأمير الداخل نفسه.

وبذلـــك مهد الداخل الطريق أمام التقدم العلمي في الأندلس، وفي فترة حكـــم هشام بن عبد الرحمن الداخل سارت الأمور في الأندلس إلى مزيد من الاســـتقرار والهـــدوء، فقـــد اهتم بالعلماء والفقهاء، وكان له ديوان لتوزيع الأرزاق والعطايا "إن تقاه وورعه واتساع ثقافته قد جعله يميل باستمرار إلى الـــتعامل مـــع فقهـــاء قرطبة الذين أتيحت لهم بمناسبة الحج زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية"، وفي عهد هذا الأمير انتشر مذهب الإمام مالك بن أنس، فقـــد كان هشام وأخوه سليمان يحضران مجلس العلم في جامع قرطبة فأمر عبد الرحمن الداخل بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمي للقاضـــي فـــي المسجد الجامع حيث أظهر نباهة ونجابة في كل مناسبة من المناسبات".

وفـــي عهـــد الأمير الحكم الربضي حدث الصدام بين الحكم بن هشام ممثلاً للسلطة السياسية وبين الفقهاء ممثلين العلم، والناطقين باسم الرعية، وقد فطـــن الحكم الربضي إلى سلطة الفقهاء العلمية، فأصدر عفواً على الفقهاء، وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت الحضارة الإسلامية في الأندلس تتضح وتستقطب المبدعين خارجها من العلماء والموسيقيين من كافة البلدان، ونـــبغ فـــيها علماء من الأندلس كذلك، فظهر في القرن الثالث العالم الشهير عـــباس بن فرناس التاكرني موطنا والأموي ولاء، والذين ترجموا له ذكروا أنّه توفي ٢٧٤هـ/٨٨٧م، وعمره يقرب من الثمانين، فتكون ولادته حوالي

سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م، وقد اتصل بثلاثة من الأمراء، وكان عبد الرحمن مقرباً منهم وهم: الحكم الربضي وابنه عبد الرحمن الأوسط، ومحمد بن عبد الرحمن، وأصبح ابن فرناس حكيم الأندلس علماً في جملة من العلوم والمعارف مثل الكيمياء، والفلك، والتنجيم، والعروض واللغة، والموسيقى، وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط واعياً وحامياً لكافة الفنون والعلوم لتميز عهده بالسلام الطويل.

رابعا: عصر الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ):

امتد عصر الخلافة قرنا كاملا تقريبا، وانتظم ثلاث فترات:

١- خلافة الناصر وولده الحكم المستنصر (٣١٦- ٣٦٦هـ / ٩٢٨ - ٩٧٦م).

٢- فترة الحجابة العامرية (٣٦٦ - ٣٩٩هـ/ ٩٧٦ - ١٠٠٨م).

٣- فترة الفتنة البربرية (٣٩٩ - ٤٢٢هـ / ١٠٠٨ - ١٠٣١م).

١- الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م):

تولى عبد الرحمن الإمارة بعد موت جده ٢٩٩هـ/ ٩١٢م، ولم يلق معارضة من البيت الأموي، مع أن سنه لم تتجاوز الحادية والعشرين، لأنهم أدركوا خطورة الموقف وأحجموا عن تولي تبعاتها، فالفتن والثورات محدقة بالأندلس وخزانة الدولة تكاد تكون خاوية.

وقد باشر أمور دولته في حزم وعزم وكفاءة ونجح في إعادة وحدة الإمارة وهيبتها، وقام بتقوية الجيش وتزويده بقوات جديدة، وكانت سياسة الناصر هي تقديم العفو أولا ثم العمل على استنزال المناطق الثائرة الأقرب فالأقرب، فاستولى على إستجة، وأخضع نحو سبعين حصنا من حصون كور جيان ورية وإلبيرة، ثم استولى على الحصون القريبة من معقل بيشتر التابع لكبير الثوار ابن حفصون. وخضع له الكثيرون إما

صلحا أو حربا.

ولما رأى ابن حفصون عبث مقاومته طلب الصلح من الناصر، فأقره الناصر ولم يلبث أن توفى ابن حفصون سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، وترك أربعة أبناءهم: جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص، لكن لم يبلغ أحدهم مبلغ والده وقضى الناصر على ثوراتهم سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م، ثم أخضع المناطق الشرقية والغربية بالقوة أو بالسلم، فأطاعته طليطلة وبطليوس والثغر بالأعلى.

وهكذا تمكن عبد الرحمن الناصر من توحيد دولة الأندلس وإخضاعها لإدارة مركزية موحدة عاصمتها قرطبة، ولم يعد هناك أحد من الثائرين.

وكان أمر نصارى الشمال قد قوى في نهايات القرن الثالث الهجري، ولم يمنع ضعف الاقتصاد الأندلسي الخليفة الناصر من حماية حدوده مع نصارى الشمال ورد غاراتهم وخاصة بعد قيام أردون الثاني ملك اشتوريس وليون من الإغارة على يابرة وحصن الحنسن، فأخرج الناصر حملة تأديبية سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م، أدبت ملك ليون وخليفة ملك نبرة شانجة بن غرسية، وخرج الناصر بنفسه لروع أردون، فاستولى على قلعة أوسمة وخشمة وأحرقها، وهدم قلعة شنت اشتبين، وعندما تحالف ملك نبرة مع ملك ليون هزمها الناصر وقتل من رجالها الكثير، ومات ملك ليون كمداً سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م.

وتولى بعد اردنيو الملك رومير (٣١٩- ٣٣٩هـ/ ٩٣١- ٩٥٠م) وحاول التحالف مع طليطلة سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢هـ، فغزا الناصر مدينة ليون وهزم أعداؤه، ثم قام الناصر بحملة على ليون سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م.

غير أن رومير تحالف مع بني هاشم التجبين حكام سرقسطة وانضمت إليهما الملكة طوطة "تيودورا" ملكة نبرة، فهاجمهم جيش الناصر

سنة ٣٢٥هـ/ ٩٤٦م، وخرب حصون نبرة، ودفعت له الجزية، فأخضع بذلك الشمال الشرقي للأندلس، وحصن منطقة الثغور فبنى مدينة سالم وشحنها بالمعدات والرجال سنة ٣٣٥/ ٩٤٦م، لتكون مركزاً للدفاع عن المسلمين.

وفي أواخر سنوات حكم الناصر اشتغلت مملكة ليون بالصراع على العرش بين ولد رومير الثاني، فأغارت قوات المسلمين على جليقية وطلبيرة سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، وعلى قشتالة سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، فطلب ملك ليون الصلح خوفا وسلمت بعض الحصون للناصر مقابل الصلح السابق.

الناصر والمغرب: عندما تولى الناصر حكم الأندلس كانت الدولة الفاطمية قد استولت على المغرب منذ أربع سنوات ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، فأحدث ذلك صراعاً بين أموي الأندلس والفاطميين الشيعة في المغرب، **فقام الناصر بخطوات تجاه هذا الصراع تمثلت في تقوية الأسطول الأندلسي وشحن الموانى بالسفن والعتاد، وفرض الحراسة على جبل طارق وسائر القواعد الأندلسية، كما عمل الناصر على تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، وأهمها جزيرة طريف والجزيرة الخضراء التي تواجه مدينة سبتة، وذهب الناصر للمنطقة سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م وليطمئن عليها.**

ولم يكتف الناصر بتحصين ثغور الأندلس بل عمل على فرض السيطرة على الثغور المغربية المطلة على سواحل الأندلس مثل سبتة وطنجة ومليلة اصطناع أمراء ورؤساء قبائل المغرب مثل الأدارسة وبني صالح في نكور وقبيلة زناتة، كما عمل الناصر على تأييد ثورة ابي يزيد مخلد من كيداد ضد الفاطميين، وأمده بالمساعدات المالية والعسكرية، وتبادل مع أبي يزيد السفارات، فاعترف له أبو يزيد بالسيادة.

الحضارة في عهد الناصر:

كـــان الاســـتقرار السياسي سببا في نمو موارد الدولة الاقتصادية، فـــتوفرت القـــوة المالية حتى بلغت الأندلس أجمل أيامها في مجال الحياة الاقتصادية، وترتب على ذلك فرض نظام دوري للجباية، ومراقبة النظام الإداري، ممـــا أتــــاح للناصـــر الاهتمام بالعمران حتى يذكر أن سكان العاصـــمة قـــد بلغوا نصف مليون نسمة ، ومساجدها سبعمائة ودورها (١١٣,٠٠٠)، وســـبعين خـــزانة كتـــب، ومائـــة وثمانية وأربعين حصنا وواحـــد وعشريـــن ربضا، وبنى الناصر عـــددا مـــن القصور الفخمة، ومـــع ذلك ضاقت المدينة على طموحاته فتركها وبنى مدينة الزهراء في شـــمال غـــرب قرطـــبة، وزاد في مساحة المسجد الجامع زيادة ضاعفت مساحته.

وشهد عصره عدداً من نوابغ الأندلس في الأدب والشعر والفقه ففي هذا العصر ألف ابن عبد ربه كتابه " العقد الفريد" واستقدم الناصر العالم اللغـــوي أبـــا علـــى القالـــي، الذي أصبح رائد لمدرسة لغوية نحوية في الأندلس.

٢- خلافة الحكم المستنصر:

تعـــد خلافـــة الحاكم المستنصر امتداداً لعصر والده الناصر داخليا وخارجيا وتتويجا لعصر أبيه، فقد ترك له والده دولة قوية مستقرة غنية، وواصـــل الحكـــم المستنصـــر الاهتمام بتأمين حدود الدولة من نصارى الشمال، وبلاد المغرب في الجنوب.

فعندما توفى الناصر كان هناك اتفاق مع الملك شانجة على استرداد عرش مملكة ليون مقابل عشرة حصون على الثغور، وتراخى شانجة في الوفاء بوعده، فلما لجأ أردون الرابع إلى الحكم المستنصر لاسترداد عرش لـــيون ســـارع شانجة بتسليم الحصون، وحاول أمراء النصارى في ليون

ونبرة وقشتالة وبرشلونة التحالف ومهاجمة أرض المسلمين، فشن المستنصر الحرب عليهم، واستولى على كثير من الحصون، ولقن نصارى الشمال درساً قاسياً، ثم تدهورت أحوال ممالك النصارى بوفاة شانجة الأول ملك ليون (٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) ثم توفى فرناند أمير جليقية واشتوريش (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) ولحقه غرسيه الأول ملك نبرة في السنة نفسها وتوافد خلفاء أمراء نصارى الشمال معلنين الطاعة.

واختلفت سياسة الحكم في المغرب عن سياسة والده الذي اكتفى بالاستيلاء على سبتة ومليلة وطنجة. ولكن الحكم المستنصر تدخل فعليا في المغرب، وذلك لأسباب منها: ضعف الممالك النصرانية وعدم قدرتها على الإغارة على حدود المسلمين، وإعلان بعض القبائل الزناتية التمرد على الولاء للأمويين، هذا فضلا عن الهدف الاقتصادي وهو ذهب بلاد السودان.

ومع ذلك فإن هذه الأحداث لم تشغل الخليفة المستنصر بالله وقتا طويلا ولذلك فإنه اتجه بكل قواه للنهوض بالبلاد اقتصاديا وعلميا فزاد في المسجد الجامع وجمل محرابه بصورة رائعة، واهتم بالعلم والعلماء حتى بلغت الأندلس على عهده درجة سامية في هذا المجال، ويعد الخليفة الحكم أكثر حكام الأندلس علماء بل هو من أكثرهم رعاية للحياة الفكرية والحضارية.

إلا أن الحكم المستنصر ارتكب خطأين كبيرين سيكون لهما أوخم العواقب أولهما الاستكثار من الجنود المرتزقة المغربية ولا سيما قبائل صنهاجة الذين تحولوا إلى فئة عسكرية لها مكاسب اقتصادية، وكان لهم دور كبير في الفتنة (٣٩٩- ٤٢٢هـ/ ١٠٠٨- ١٠٣٠م) والتي سوف تطيح في النهاية بالخلافة الأموية نفسها والخطأ الثاني هو تولية العهد لولده هشام الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشر مع أن البيت الأموي كان يحفل بأمراء أكفاء لتولي الخلافة، وهذه الولاية للعهد فتحت الصراعات

للمنافسة.

كمـــا أنهـــا أتاحت الفرصة لمحمد بـــن عبد الله بـــن أبي عامر والـــذي عـــرف بالمنصور لكي ينفرد بالسلطة، ويستبد بالأمور من دون الخليفة الصغير حتى أطلق المؤرخون على عهد الخليفة هشام المؤيد بالله بـــن الخلـــيفة المستنصر اسم الدولة العامرية نسبة إلى الحاجب ابن أبي عامر.

٣- الحجابة العامرية: المنصور بن أبي عامر (٣٦٦- ٣٩٢هـ/ ٩٧٦- ١٠٠١م):

تحركت الأحزاب والأطماع لتوجيه السلطة السياسية بعد وفاة الحكم المستنصر وفق ما تراه في مصلحتها، فالتف الفتيان الصقالبة حول فائق وجؤزر، وأرادوا تولية المغيرة عم هشام المؤيد بالله، وأرسلا إلى الحاجب جعفر المصحفي كبير الوزراء – وعرضا عليه ما أجمع عليه من الرأي، فجمع أصحاب هشام المؤيد مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد ومحمـــد بن أبي عامر وأشباههم، واستدعى بني برزال بطانته من سائر جـــنده، واستحضر قواد الأجناد، واتفقوا على تولية هشام وقتل المغيرة، وبذلك انكسرت شوكة الصقالبة.

واستطاع المنصور تصفية الصقالبة أتباع الحكم ومؤيدي ولي العهد هشـــام المؤيد بالله، وتحالف مع آخرين لتحقيق أهدافه، وكان أولهم القائد الأعلـــى غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى وفارس الأندلـــس، وكانـــت بيـــنه وبيـــن الحاجب جعفر المصحفي عداوة قديمة ومنافسة.

وبعد أن تخلص من جعفر المصحفي استعان بالجند البربري لتصفية غالب بن عبد الرحمن والقيادات العسكرية بالثغور ثم قرب البربر لتصفية العرب " ثم تجرد لرؤساء الدولة... وحطهم عن مراتبهم، بما فيهم الكتاب

والعمال والفقهاء والحكام وأصحاب السيوف والأقلام ومزقهم وأقام بإزائهم من تخريجه رجالا سدوا مكانهم".

ومع ذلك يذكر التاريخ أن محمد بن أبي عامر كان بطلا نادرا من أبطال التاريخ، وأنه خلق لكي يسوس الأمة ويدبر أمورها، فقد استطاع في المجـال السياسي أن يوطد الأمن، وأن يفرض هيبته على جميع عناصر السـكان في الأندلس كما تمكن من فرض شخصية بلاده على ما جاورها مـن الممـالك الأسبانية في الشمال، وهو الوحيد من حكام المسلمين في الأندلـس الـذي دخلـت قواتـه مديـنة شنت يا قب " Santiago de compastila " وهي العاصمة المقدسة لأسبانيا، وعصب حياتها الروحية.

أما في مجال العمران فإن أعظم زيادة وأكبرها في المسجد الجامع هي التي قام بها المنصور بن أبي عامر، كما أنه بنى مدينة الزاهرة والتي لا تقل عظمة عن مدينة الزهراء التي بناها الناصر، حتى غدت الزهراء والزاهـرة كالقرطين الجميلين للحسناء قرطبة، وعلى عهده اكتمل جمال مديـنة قرطـبة حـتى غدت عروسا للغرب، بل وأجمل مدن الدنيا على عصرها. وفي مجال الاهتمام بالعلم والعلماء كان للمنصور مجلسا علميا أسـبوعيا، كمـا وفد عليه عدد من علماء المشرق من أبرزهم أبو العلاء صاعد البغدادي.

كما حفل عصر المنصور بكوكبة لامعة من العلماء في كافة مجالات الحـياة الأدبية، وازدهرت على أيامه علوم الدين واللغة وكان بحق علماً من أعلام العرب، وبطلا من أبطالهم.

وهـذه الصـراعات والتحالفات أخذت كثيراً من استقرار الأندلس، وجعلـت الأندلـس فـي وضع قابل للتفتت، فكان عهد المنصور المكون الأساسـي لعصر الطوائف، فهناك ثلاثة أمور أضرت بالأندلس في عهد المنصور وهي:

١- أقام المنصور نظامه على أكتاف الجند المرتزقة من البربر والصقالبة

وبحـزب عامـري مـن رجال الأندلس الذين سيحكمون في عصر الطوائـف مثل: بني عباد في إشبيلية وبني يعيش في طليطلة، وبني تجيب في الثغر الأعلى، وبني الأفطس في بطليوس.

٢- سياسـة المنصـور الشديدة مع كبار رجال الأندلس وبخاصة البيت الأموي الحاكم، والتي قامت على اضطهاد معظم رجال هذا البيت.

أما سياسة المنصور مع نصارى الشمال فكانت أظهر أعماله وسبب شـهرته، فكـثرت غـزواته حتى بلغت أكثر من خمسين غزوة لم تغير أوضاع شبه الجزيرة، وأقصى ما فعلته أنها أضعفت نصارى الشمال فترة طويلة.

أمـا سياسـة المنصور في المغرب فقد تورط فيها بقواته، وفرض عليها سيطرته بتحالفه مع زيري بن عطية المغراوي وابنه المعز.

٤- عبد الملك المظفر (٣٩٢- ٣٩٩هـ/ ١٠٠٢- ١٠٠٨م):

ويعتـبر عهد عبد الملك المظفر استمرار لعهد والده وكان ذا نزعة دينية فاقت نزعة والده، فحارب نصارى الشمال، واستمرت الحملات في عهـده، فـزادت ممـالك النصارى، تمزقا وضعفا. وفي المغرب احتفظ بالسيطرة على المواقع الساحلية، وقرَّب منه زناتة، ورفق بالرعية، فحط عـنها بقايـا المغارم، وأسقط سدس الجباية أول ولايته في جميع أقطار الأندلـس، وكـان يظهر العدل ويحمي الشرع، وينصر المظلوم، ويرفق بالرعية. حتى قيل أن أيامه كانت كلها أعياداً، كما أنه لم يغير من سياسة والده تجاه البيت الأموي.

٥- عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م:

خلف عبد الملك المظفر أخوه عبد الرحمن الملقب بالمأمون، وكان شـابا طائشـا، وتعود أصوله من أمه إلى جده سانشو غرسيه ملك نبرة، وكـره الـناس البيـت العامري وخاصة بعد أن قام عبد الرحمن بإجبار

الخليفة هشام على إصدار مرسوم بولايته للعهد من بعده مما كان يعني نقل الخلافة من القريشيين إلى أحد أبناء القبائل الجنوبية العربية، وكانت العلاقات بينه وبين كبار رجال الدولة سيئة، مما أعطى الفرصة للثورة عليه.

وقد استغل أحد أفراد البيت الأموي – وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي – خروج شنجول لغزو نصارى الشمال، فثار وقتل صاحب المدينة، فعاد عبد الرحمن شنجول بسرعة رافضا نصائح أعوانه بعدم العودة، لكنه أبى، وانتهى أمره بالقبض عليه ومقتله. وبذلك سقطت الدولة العامرية، ودخلت بلاد الأندلس في دوامة من الفتنة الكبرى استمرت عشرين عاما.

٦- فترة الفتنة البربرية (٣٩٩-٤٢٢هـ/ ١٠٠٨-١٠٣٠م):

اختلت الأوضاع السياسية والاجتماعية منذ وفاة الحكم المستنصر بتكاثر الصقالبة ثم البربر، وتهميش دور القبائل العربية، وكان أن انتهز الأمير الأموي محمد بن هشام خروج عبد الرحمن شنجول، فثار هو وأنصاره واستولوا على الزاهرة وأحرقوها، ثم استولوا على قصر الخلافة ونهبوه وخلعوا الخليفة هشام المؤيد، وبويع محمد بن هشام وتلقب بالمهدي وقام بقتل الحاجب عبد الرحمن شنجول، وإخفاء الخليفة المؤيد وأشاع موته.

وساءت سيرة المهدي، وانشغل باللهو والمجون، واستخدم في وظائف الدولة أراذل العامة، وأساء إلى قواد الجيش وشيوخ البربر وقام العامة بقتل من وجدوه من البربر، وكان قاضي الجماعة أكبر الناس نفاراً من البربر واستمال البربر الأمير هشام بن سليمان " الرشيد" ومال معهم بعض الصناع والفتيان، وسبعة آلاف جندي من كان المهدي أسقطهم من الديوان، وتقاتل محمد المهدي ومعه أهل قرطبة وهشام الرشيد، وتقابل

الفـريقان وقـتل هشام الرشيد ومعه عدد من البربر واستحكم العداء بين الأندلس والبربر، وأعلن المهدي عن مكأفاة من يأتي برأس بربري.

وبايع البربر الأمير الأموي سليمان بـن الحكم المستنصر، وتلقب "بالمسـتعين" وبدأت الحرب بين الحزب الأندلسي بقيادة المهدي، والحزب الـبربري بقـيادة المسـتعين، وتحـالف المهدي مع نصارى برشلونة، والمسـتعين مـع نصارى قشتالة، وأصبح الوضع في قرطبة وحولها في القـرى والـبوادي متأزما فغصت أرباض قرطبة ومقابرها بأهل البوادي والمحشودين من مدائن الأندلس وأقاليمها، وانهزم أهل قرطبة وقتل منهم عدد كبير في وقعة قنتيش سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م.

وتـرك المهدي قرطبة لسليمان المستعين، فاندفع البربر في قرطبة يقـتلون ويأسـرون، وقطعـت هذه التصرفات كل مودة بين أهل قرطبة والبربر، وتحالف المهدي مع الصقالبة، وتوجهوا ناحية قرطبة وأخرجوا البربر والمستعين من قرطبة، واتخذ المهدي واضحا الفتى حاجبا له، غير أن الصقالبة تخلصوا من المهدي فقتلوه أملا في التفاف البربر والمستعين حول هشام المؤيد بالله، إلا أن البربر والمستعين حاصروا قرطبة، واشتد بأهل قرطبة الجوع وعدمت المآكل، وباع هشام المؤيد ما في قصره من ذخائـر وكتب وأدوية للحصول على المال، وباع الحاجب واضح أجزاء كبـيرة من مكتبة الحكم المستنصر، وساءت الأحوال فأراد وضاح الفتى الهرب فقتله بعض الجنود، ونهب الوزير (ابن مناو) قصر الخليفة وهرب، وتقاتل أهل الأندلس مع البربر، وقتل عدد من أهل قرطبة، وطلب الصلح مـن الـبربر وأهل قرطبة، لكن أهل قرطبة رفضوا، وانضم الخلق من القـرى والأحـواز المحـيطة إلى قرطبة ضد البربر، وانضم إليهم أهل البوادي من كل ناحية.

ودخـل المسـتعين إلـى قرطبة، واستقل الصقالبة بشرق الأندلس، وسيطر البربر على معظم المناصب، وأقطع بعض كور الأندلس لقبائلهم

فأعطى صنهاجة مدينة إلبيرة، وأعطى مغراوة جوفي البلاد، وأعطى بني يفرن وبني برزال جيان وذواتها، وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة.

وبعـــد أن ثبَّـــت البربر أنفسهم، رأوا القضاء على الخلافة الأموية فانضـــموا إلـــى على بن حمود الذي دخل قرطبة وقتل الخليفة المستعين وأخاه ووالدهما سنة ٤٠٧هـــ/ ١٠١٦م، فانتقلت الخلافة من الأمويين إلى الحموديـــن، وأعاد على بن حمود الاستقرار والأمن، لكن على بن حمود تغير على أهل قرطبة حين علم برغبتهم في مبايعة عبد الرحمن بن محمد المرتضـــى، فألـــزمهم المغـــارم، وقـــتل على بن حمود صقالبته، وقتل المرتضى بيد الصقالبة، واستدعى البربر القاسم بن حمود الذي أسقط عن أهل قرطبة ما كان قد طلبهم به أخوه وأقر الحكام وأرباب الألقاب على ما تخلفهم عليه أخوه، ثم ضعف أمره وغلب عليه رؤساء البربر المستولون على الكور وأمراء الثغر والفتيان العامرية بالبلاد الشرقية.

وفـــرض الجند تعيين عبد الرحمن بن هشام " المستظهر بالله" لكنه زج ببعض أعيان قرطبة في السجن، واستخدم بعض الفتيان بدلا منهم في وظـــائف الدولة، واستقل بعد البربر، وكانت خزانة الدولة خاوية، إلا أن الجند قتلوا المستظهر بالله سنة ٤١٤هـــ / ١٠٢٣م، وولوا بدلا منه محمد بن عبد الرحمن " المستكفي بالله" وبقى في الخلافة سبعة عشرة شهراً في قرطبة لم تتجاوز فرسخا.

واختار أعيان قرطبة هشام بن محمد بن عبد الملك سنة ٤١٨هـــ/ ١٠٢٧م، وكـــان بالثغر عند عبد الله بن قاسم الفهري، ولقب المعتد بالله، وبقـــي في الثغر ثلاث سنوات، ويخطب له بقرطبة، ثم وصل قرطبة سنة ٤٢٠هـــ/ ١٠٢٩م، ولم يكن المعتد بالله موفقا في سياسته، فانشغل باللهو والمجـــون، وترك شئون الدولة للوزير حكم بن سعيد القزاز، الذي أصبح بـــيده تصـــريف أمـــور الدولة، وصادر أملاك كبار التجار وأعنتها على البربر، ثم تعدى على أموال الأحباس لملء خزانة الدولة، فأغضب الفقهاء

والعلمـــاء، وقطع أعطيات الجند، فاتفق الجميع على بغضه وقتله، إلا أنه أحس بذلك، فهرب وتحصن بقصر الخلافة، وقتل الثائرون الوزير حكم بن سعيد القزاز.

وســـار أعـــيان قرطـــبة ووزراؤها بزعامة أبي الحزم ابن جهور، وأوقفـــوا أعمـــال الســـلب والنهب، وأجمعوا على إبطال الخلافة، وإزالة الأمويين وطردهم مـــن قرطبة، فهرب أمية بـــن عبد الرحمن وقتل سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٢م، وسجن الخليفة هشام المعتد بالله بضعة أيام في المسجد الجـــامع يعيش على الصدقة، ثـــم سار إلى سليمان بن هود الجزامي في ســـرقطة ولا ردة وتـــوفى سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) وبموت هشام المعتد بالله انتهت الدولة الأموية بالأندلس، وقـــام عصر الطوائف.

العلاقة مع نصارى الشمال في الفتنة البربرية:

انقســـم الأندلـــس فـــي الفتنة البربرية إلى جزئيين كبيرين: البربر ويؤيـــدون ســـليمان المســـتعين، وأهل قرطبة والأندلسيون مع المهدي. وتحـــالف كلاهمـــا مـــع نصـــارى الشمال، ففتحوا باب أضر كل مسلمي الأندلـــس، نفَّذ النصارى سياستهم بضرب كل فريق بالآخر، واستولوا من المسلمين على الأموال والحصون التي بناها الناصر والحاجب المنصور، وملئوها بالسلاح والجند وجعلوها لتحصين دفاعات المسلمين.

فغـــدت وبالا عليهم، واتصل البربر بأمير قشتالة شانجة بن غرسيه أقوى أمراء النصارى في ذلك الوقت وطلبوا محالفته، وطلب واضح الفتي والمهدي محالفة شانجة أيضا على أن يعطوه ما يطلب من الحصون ومدن الـــثغور، لكن شانجة تحالف مع البربر والمستعين، وهزموا واضح الفتى عند شربنة سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م، وهجموا على قرطبة وانتصروا على قـــوات المهـــدي في وقعة قنتيش سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وقتلوا من أهل قرطبة ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ منهم عدد كبير من العلماء والفقهاء، فاتجه

المهدي إلى الفرنجة وبرشلونة وأميرها رامون على أن يسلم له مدينة سالم قـاعدة الثغر الأوسط، فأخليت من المسلمين، ودفع لهم مصاريف الجيش فخرجوا وتقاتلوا مع قوات المستعين والبربر عند عقبة البقر، وهزم فيها البربر، فرحلوا إلى قرى وأرياف الجزيرة الخضراء، فلما أراد الفرنجة تتبعهم انتصر البربر على الفرنجة، وقتلوا منهم الكثير وقتل الفتح واضح الفتى، أقام بدلا منه هشام المؤيد بالله الذي تحالف مع شانجة ملك قشتالة مقابل تسليمه ما يقرب من مائتي حصن هم معظم الثغور.

وبهـذا اتـبع شانجة سياسة ضرب المسلمين بعضهم ببعض، فمرة يـتحالف مـع البربر، وأخرى يتحالف مع الأندلسيين ليضعف الجبهة الإسلامية، ثم أخذ من المعاقل والحصون ما سوف يقلب أوضاع الصراع في صالح ممالك نصارى الشمال بعد ذلك.

الحياة العلمية في عصر الخلافة:

بلـغ الأمـر مبلغاً كبيرا بالنسبة للعملية التعليمية والثقافية في عهد الأمـير الناصـر، فقـد طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى خمسين سنة، وتركـت مهمـة رعاية العلم والعلماء لابنه الذي قام بمهام وزير التعليم والبحـث العلمي في عصرنا، حيث يقول المؤرخون أنه لما مضى صدر مـن المائـة الرابعة انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله ابن عبد الرحمن الناصـر لديـن الله فـي أيـام أبيه إلى العناية بالعلوم وإلى إيثار أهلها، واسـتجاب من بغداد ومن غيرها من ديار المشرق عيون التأليف الجليلة والمصـنفات القريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما يضاهي ما جمعته خلفاء بني العباس في الأزمان الطويلـة " وكـان الحكم المستنصر حسن الاستعداد العلمي وكانت أبرز ملامح الحركة العلمية في عصر الخلافة هي:

أولا: فـتح الباب على مصراعيه لاستجلاب العلماء المشارقة إلى الأندلس،

ومن أبرز من أتى إلى الأندلس الفقيه المصري أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي.

وأبو علي القالي الذي علم الحكم المستنصر، مما كان له أثر طيب عليه، وتتلمذ عليه كذلك طلاب العلم الأندلسيين، هذا فضلا عن مؤلفاته " تلقاه المستنصر بالجميل وقربه منه وبالغ في إكرامه ".

ثانيا : انتشر هؤلاء العلماء في أنحاء حواضر الأندلس، ولم يقتصروا على قرطبة وحدها فلقد أخذت مدن العواصم حظها أيضا من التعليم مثل الحاضرة المركزية قرطبة، وهذه السياسة في جلب العلماء الذين يعلمون مئات الطلاب أفضل من رحلة هؤلاء إلى المشرق وأقل كلفة وأكثرا أثراً.

ثالثا : استجلاب علماء الحواضر الأندلسية الأخرى للتدريس في قرطبة التي كانت مركزاً لكل طلاب العلم الأندلسيين، فقد استقدم الحكم زكريا بن خطاب من تطيله للتدريس في قرطبة.

رابعا : استقدام الكتب القيمة إلى الأندلس، فقد رأى الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع أن يرسل للناصر كتاب د. ستوريدس في الطب الإغريقي، وهو من الكتب القيمة في مجاله، وقد حوى معجما عن النباتات الطبية وخواصها وصورها، وكذلك استقدم الأمويون كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني قبل أن يعرفه المشرق.

خامسا: الحث على التأليف، فلقد كان الحكم المستنصر قبل توليه الخلافة في الأندلس وبعدها يشجع العالم المشرقي أبا علي القالي، ويعينه على التأليف بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام وألف عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأديب، والمؤرخ كتابا أسماه إصلاح الخلف، وجمع ابن عبد ربه ديوانه المتكون من اثنين وعشرين جزءاً للحكم المستنصر، وهكذا اشمل

التشجيع كل المجالات الفقه، والشعر، واللغة، وكان الحكم – وهو أمير – يرعى العلماء والعلم، فلما أصبح خليفة كان عالما مع كونه خليفة، وخليق أن نبرز في المقام الأول ذلك الاسم الخالد " الحكم الثاني" عالماً لا غبار عليه، راعياً مهيباً، عظيما للآداب والعلوم صديقاً للفنون" على ما وصفته به المصادر الأوروبية.

ويقول هو نثالث بالنيثا " إن تسامح الحكم مع العلماء لم يكن له حدود مما دفعهم للالتفاف حول بلاطه، ولقد قام بحمايتهم وتشجيعهم حتى الفلاسفة، وأعطى الحرية لهم لكي يقول الرياضيون والفلكيون بالتدريس علناً لتلاميذهم. فكان بذلك راعياً للفنون والعلوم والتربية فتحولت قرطبة في عهده إلى أكبر حواضر الإسلام قاطبة اهتماماً بالعلوم، وتحول مسجدها الجامع إلى جامعة عالمية، ووصل عدد الطلاب والزوار إلى الآلاف، وجعل الحكم المستنصر أخاه المنذر مشرفاً على جامعة قرطبة وأساتذتها، وكانت أهم مظاهر اهتمام الحكم بالنواحي الثقافية والعلمية هي:

١- استجلاب العلماء من كافة النواحي الأندلسية إلى قرطبة للتدريس في جامعها مثل: عثمان بن معاذ بن سمعان الرعيني ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م، وهو لغوي ونساب وعنده جميع كتب ابن حبيب روايته، وأقام بقرطبة بحومة مسجد مسلمة نحواً من سنة ثم عاد إلى بجانة، ومحمد بن فرج بن سبعون النهلي ٣٦٧هـ ومحمد بن مروان بن زريق من بطليوس استقدمه الحكم إلى قرطبة.

٢- رحيل العلماء المشارقة إلى قرطبة:

لأن تكريم الحكم للعلماء قد عرف في العالم الإسلامي، فهاجر العلماء إلى الأندلس وأكرمهم الحكم ووفر لهم جواً ملائماً للاستفادة من علمهم، مثل إسماعيل بن عبد الرحمن ابن علي القرشي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م.

٣- احترام الحكم للعلماء وهذا جعلهم يهتمون بدروسهم وبطلبتهم ورفع من قدرهم عند الناس، وكان يقوم بنفسه بزيارة الفقهاء في مجالسهم، وتفقد

أحوالهــم ورؤية مستواهم العلمي، فقد قام الحكم المستنصر بزيارة أبي الحســن علي بن محمد الأنطاكي وبعض الطلبة لقراءة القرآن يوم هذه الــزيارة فاخــتارهم مــن بين طلبته، وكانت منهم خلف بن حسين ابن مروان (سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)، وهو والد المؤرخ في ابن حيان سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م.

٤- إنشـــاء أماكن للتعلم فقد أقام مكاتب لتعليم أولاد الفقراء غير القادرين في قرطبة، وجعل لمعلميها أوقافاً من دخل حوانيت السراجين ليتقاضوا منها مرتباتهم ومن مستحسنات فعاله وطيبات أعماله اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أربـــاض قرطــبة وأجرى عليهم المرتبات. وقد بلغ عدد المكاتب التي أنشأها الحكم المستنصر سبعة وعشرين مكتبا.

٥- اهــتمام الحكم المستنصر بالتأليف وبلغ ذلك مبلغا كبيرا، فقد أرسل إلى أبـــي فرج الأصفهاني في ألف دينار على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغانـــي، قـــبل غرضها في المشرق، وأرسل له أبو الفرج الأصفهاني أيضـــا كـــتابا ألفه في أنساب بني أمية يشيد بمجدهم وآثارهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة، وفعل نفس الشيء مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكـــي فيشـــرحه لمختصر ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كـــتاب " مســـالك إفريقـــيا وممالكها، وفي داخل الأندلس كان يعفي من الغـــزو مقابل تأليف كتاب مثلما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث (ت سنة ٣٥٢هــ / ٩٦٣م) وكان يقدم للعلماء الجوائز ويسند إليهم الوظائف مثلما فعل مع أحمد بن عبد الملك الأشبيلي (ت ٤٠١هـ/ ١٠١٠م).

الـــذي كان أحفظ الناس لقول مالك وأصحابه، وجمع للحكم المستنصر كـــتابا في رأي مالك سماه: كتاب الاستيعاب، وكان جمعه مع أبي بكر محمد بـــن عـــبد الله القرشـــي، ورفع إلى الحكم فوصلهما بجائزة كبيرة وقدمهما للشـــورى وكـــذا ألف العالم الشاعر أحمد بن فرج الجياني للحكم المستنصر

كـتاب "الحدائــق" عــارض فــيه كــتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصــبهاني، إلا أن أبــا بكر ذكر مائة باب في باب مائة بيت، أما أحمد بن فرج فأورد مائتي باب، وفي كل باب مائتي بيت، ليس منها باب متكرر، ولم يورد فيها لغير أندلسي شيئا.

٦- الاهــتمام بالمكتــبات: اســتطاع أن يجمع في قصره مكتبة يصل عدد مجلداتهــا إلـــى ٤٠٠,٠٠٠ مجلد،وأن فهارسها شغلت أربعة وأربعين مجلــدا، وهــو رقم كبير بعض الشيء، ويمكن تصديق نصفه، فيكون ٢٠٠,٠٠٠ كتاب.

وفي هذا العصر نبغ وتعلم شخصيات أندلسية كبرى، ونشأ في الأندلس جيل كامل من عهد الناصر إلى عهد الحكم المستنصر (٣٠٠ إلى ٣٦٦) وقد أثرى هذا الجيل الأندلسي علميا، ووضع الأساس المتين للنهضة العلمية بها، وصــمد أمــام كل التحديات والعقبات، فيصد على جيل العباقرة في الأندلس أنهــم جماعة الفتنة الأهلية، منهم العذري والبكرى، وابن حزم، وابن حيان، وابن بسام وغيرهم كثير، يشتركون في الاتجاه الموسوعي، سواء في تحصيل العلم والمعارف، أو في الرغبة في إذاعة هذه المعارف بين الناس، وإذا كانت هــذه الكتابات الموسوعية تبتدي في كتابات ابن حيان وابن بسام، وفي شعر الفحول من شعراء ذلك العصر مثل ابن دريع القسطلي وأبي بكر بن عمار، والمعــتد بن عباد، وعبد المجيد بن عبدون في صورة إشارات وكتابات في ثنايا النثر والنظم، تدل على إحاطة تدعو إلى الإعجاب بتاريخ العرب وأدبهم، حــتى مــا خفى منهما في الشروح والتعليقات وتلك هي ثمار الشجرة التي غرست في عهد الناصر المستنصر، وآتت أكلها في الفترات التالية.

أما في فترة الدولة العامرية ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م إلى ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م، فقد شهدت الحياة العلمية والثقافية بعض التضييق، يقول صاعد البغدادي تولى هشام وهو غلام لا يحتلم، بعد أن تغلب على بالأندلس حاجبه أبو عامر محمد بــن عــبد الله، وأول تغلــبه علــيه أفرج خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب

المذكـــورة وغيرها، وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر من خواص أهـــل العلـــم بالديـــن، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلوم النجوم، وغير ذلك من علوم الأوائل، حاشا كتب الطب والحساب، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة، والنحو، والأشعار والأخبار، والطب، والفقه، والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة عـــند أهـــل الأندلـــس إلا ما أفلت منها، وذلك أقلها، أمر بإحراقها وإفسادها فأحـــرق بعضـــها وطـــرح بعضـــها فـــي آبار القصر، وهيل عليها التراب والحجارة، وفعل ذلك تقربا.

إلى عـــوام الأنـــدلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكـــم عندهـــم إذا كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكـــان كـــل مـــن قرأهـــا منها عندهم متهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الإلحـــاد فـــي الشريعة، فسكن أكثر مـــن كـــان تحرك للحكمة عند ذلك، وحملـــت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم، ولم يزل أولو النباهة مـــن ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها، ويظهرون ما تجوز لهم فـــيه مـــن الحساب والفرائض والطب، وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولـــــة بني أمية مـــن الأندلس، ومع ذلك فـــإن المصادر تشير إلى أن المنصور كـــان يتناول هـــذه العلوم ويتدارسها مع خاصته وفي مجالسه.

وبخـــلاف هـــذه الحادثة، فقد شجع المنصور بن أبي عامر الحركة الثقافية والعملية في غير هذه العلوم، وأهم أعمال المنصور في ذلك.

١- التشجيع على تأليف الكتب:

قـــــدم المنصور العطايا والجوائز الكبرى لمن يؤلفـــون الكتب فقد دفـــع لصاعد البغدادي خمسة آلاف دينـــار ثمنا لكتابة الفصوص، كمـــا أن أبـــــا مـــروان القرشـــي المعيطـــي جمع في أقاويل مالك بـــن أنس روايـــات أصحابه عنه كتابـــا اجتمع على جمعه مع الفقيه أبي عمر أحمد

بـــن عــبد الملــك المعروف بابــن المكوي بأمر من المنصور بن أبي عامر.

٢- تشجيع قدوم العلماء المشارقة إلى الأندلس:

وكـــان المشـــارقة يحملـــون في رحلتهم إلى الأندلس الكتب القيمة والمؤلفات المشهورة لإذاعتها بين أهل الأندلس، وقد حثهم المنصور على التألـــيف مـــثلما فعل مع صاعد بن الحسن الربعي اللغوي (ت ٤١٧هـــ/ ١٠٢٦م)، وألـــف للمنصور عدة كتب أوردها الحميدي، وكان المنصور محـــباً للعلوم مؤثراً لأهل الأدب، مفرطاً في إكرام من ينتسب لهما، ويفد عليه متوسلاً بهما بحسب حظه منهما وطلبه لهما، ومشاركته فيهما، وكان لـــه مجلـــس معروف في الأسبوع يجتمع فيه من أهل العلوم للكلام فيها بحضرته من كان مقيما في قرطبة.

٣- قام المنصور نفسه باختيار العلماء القادمين من المشرق أو الأندلسيين ويعقد لهم مجلسا للنقاش والمناظرة مثلما فعل مع بن دراج القسطلي، الـــذي وصـــل إلى المنصور إنه منتحل، لكن ابن دراج أثبت تفوقا، ومثلما حدث مع ابن دراج، حدث مع صاعد البغدادي.

٤- اهـــتم المنصور بالشعراء فأنشأ ديواناً خاصاً بالشعراء جعل له رئيساً مسئولاً عنه وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان يصرف للشعراء رواتب حسب مكانتهم الأدبية وملكتهم، وأظنها رواتب ثمن سكوتهم عن الدكتاتورية في الحكم الذي سار عليها المنصور.

خامساً: عصر الطوائف بالأندلس (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م):

هو أكثر عصور الأندلس تعقيداً واضطراباً وتداخلاً، حيث تمزقت بلاد الأندلـــس، تلك الدولة القوية التي كانت تسطع في سماء العالم قوة وحضارة، إلـــى عدد كبير من الدويلات والإمارات التي يصعب تتبع تاريخها وصغراً، لأن الحـــروب بيـــنها أدت إلى تغيرات مستمرة في الحدود، فالإمارة القوية

تستولي على أرض الإمارة الأضعف، ونصارى الشمال يستفيدون من الوضع تدخـلاً في شئون المسلمين وأخذ لأموالهم وأملاكهم وأراضيهم، والمسلمون أنفسهم لا يتورعون عن الاستعانة بهم لتحقيق مكاسب وقتية.

وعكس التمزق السياسي تمزقاً اجتماعياً كذلك، فقد تفكك الكيان الاجتماعي الأندلسي بعد أكثر من قرن من الوحدة، وإذا كان المجتمع الأندلسي قد تمزق في عصر الأمير عبد الله إلى عدد من العناصر الأساسية هي، العرب والبربر والمولدون فإنه في عصر ملوك الطوائف فقد برز إلى جانب هؤلاء عنصر جديد هو عنصر الصقالبة الذي أصبح له دور سياسي واضح، ومكاسب اقتصادية وإدارية تبعاً لذلك، ثم الجند المرتزقة من البربر الذين كان لهم دور حاسم في الفتنة فسميت "فتنة البربر" ، ثم بقايا بيوت الموالي.

وقُسِّم عصر الطوائف سياسياً إلى: الفئة الأولى كبار البيوت العربية وهم: بنو عباد الذين حكموا إشبيلية، وبنو تجيب الذين حكموا الثغر الأعلى، وحكم فرع في مدينة ألمرية وهم بنو صمادح وملك بنو هود الثغر الأعلى بعد بني تجيب، ومن العرب القيسية بنو طاهر أصحاب مرسيه.

والفئة الثانية هي طائفة البربر، وكان أولهم بربر الفتح، ومنهم بنو الأفطس حكام بطليوس وغرب الأندلس، وبنو ذي النون حكام طليطلة، وكنت لهم الرياسة في وبذة وأقليش وقونكة، ومنهم كذلك بنو رزين الذين سكنوا السهلة التي نسبت إليهم، ومثل الجند المرتزقة بنو زيري الصهاجيون الذي استولوا على غرناطة، وكان هناك تجمع بربري في جنوب شبه الجزيرة معظمهم من زناتة وأظهرهم بنو برزال في قرمونة، وبنو نوح في مورور، وبنو يفرن في رندة، وبنو خزرون في أركش، وضم المعتضد بن عباد هذه الأرض لإمارة إشبيليه ، ويمكن ضم بني حمود إلى البربر رغم انتسابهم إلا سلالة الأدارسة الحسنيين.

والفئة الثالثة هم الموالي والصقالبة، وينتمي إلى الموالي بنو جهور الذن حكموا قرطبة، أما الصقالبة فهم أتباع المنصور بن أبي عامر وأولاده،

فحكم عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بلنسية أربعين سنة ثم أورثها ابنه من بعده، وحكم الصقالبة معظم مدن شرق الأندلس خلال النصف الأول من عهد الطوائف فحكم خيران وزهير ألمرية قبل ابن صمادح، ومبارك ومظفر حكمـا بلنسـية قبل أن يحكمها عبد العزيز بن عبد الرحمن العامري، وحكم مقـاتل ولبيب طرطوشة قبل بني هود، وملك مجاهد العامري دانييه وجزر البليار. وهكذا حاولت كل جماعة من هذه الجماعات الاستئثار بإقليم أو مدينة تتسلط عليها مكان منها بعض الإمارات الهامة التي يمكن أن يشار إليها على النحو التالي:

١- إمارة قرطبة في عهد بني جهور:

يأتي جهور بن محمد بن جهور من بيت اعتاد الوظائف الكبرى، فجده جهور بن عبيد الله توليى الكور والوزارة في عهد الناصر، وتولى محمد بن جهـور — والدأبي الحزم — الوزارة للمنصور العامري، وتولى أبو الحزم الكـتابة لعـبد الرحمن شنجول ، ولما وقعت الفتة البربرية التزم أبو الحزم السكينة مع الاحتفاظ بمكانته الكبيرة حتى أصبح شيخ الجماعة بقرطبة.

وسلك أبو الحزم سياسة اقتصادية رشيدة، فساس قرطبة بعقلية التاجر رجل المال وسلوك القاضي النزيه فصير أهل الأسواق جنداً، وجعل أرزاقهم رؤوس أمـوال تكـون بأيديهم محصلة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الأمـوال باقـية محفوظة، وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت حتى إذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه.

وراقب الوزراء ورجال الدولة، وأعطاهم راتباً شهرياً، وأحصى على كل تاجر رأسماله ولم يسمح له بالتفريط في شيء منه بل يضطره أن يعيش بأرباحـه وجعلـه عرضـة للتفتيش في كل وقت، واشتهرت قرطبة بالأمن والاسـتقرار، فامتلأت الأسواق بالبضائع المختلفة ورخصت الأسعار، وأمها الناس من كل مكان، فلجأ إليها الأمراء المعزولون بأموالهم.

ثم اتبع أبو الوليد محمد بن جهور سياسة والده زمناً، فحافظ على حياد قرطبة من صراعات الأمراء، وأرسل وزراءه للوساطة بينهم، وأرجع الأملاك التي تركها أهل قرطبة زمن الفتنة البربرية وجُعلت في أملاك الدولة، فلما عاد أهلها أرجعت إليهم.

ولكن سياسة أبي الوليد تغيرت فاستولى على أملاك بعض أهلها الذين خافوه فلم يعرضوا الأمر على القضاء إلا بعد انتهاء دولتهم، ومهما أثر على قرطبة تقسيم أبي الوليد بن جهور السلطة بين ولديه: عبد الرحمن وعبد الملك، فجعل لعبد الرحمن النظر في أمر الجباية والإشراف على أهل الخدمة والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والعقد والإطراح والضم وجميع أبواب النفقات ألجأ كل ذلك إلى خطة وأمضاه تحت حكمه، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند والتدلي لغرضهم والإشراف على أعطياتهم والركوب فيهم غير أن عبد الملك غلب على أخيه وسجنه واستبد بالأمر واستباح أملاك الرعية، ودخل في الصراعات والتحالفات بين أمراء غرناطة وإشبيليه، فكلفه ذلك أموالاً طائلة لم تعد بالنفع على أهل قرطبة، وأدى ذلك إلى ركود الأسواق. واستطاع المعتمد بن عباد أخذ قرطبة وترك عليها ولده سراج الدولة بن عباد حاكماً، غير أنَّه قُتل على يد قوات المأمون بن ذي النون الذي دخل قرطبة سنة ٤٦٧هـ/١٠٤٧م، ثم استردها ابن عباد مرة أخرى.

٢- إمارة إشبيليه:

وكانت إمارة إشبيليه أعظم إمارات الطوائف، وقد خلصها محمد بن إسماعيل بن عباد من التوتر الذي سببه بنو حمود في جنوب الأندلس حتى سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣، وتجرد محمد بن عباد لتدبير شئون إشبيليه والنظر في صلاح أمرها وتصريفها على السداد، وتأمينها من خطر البربر والمتنافسين عليها.

وتصارع محمد بن عباد مع البربر واستولى منهم على قرمونة واستجه، فتحالف بربر غرناطة ومالقة مع إخوانهم وهجموا على قلعة جابر وقتلوا إسماعيل بن محمد بن عباد سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م فمات والده حزناً عليه سنة (٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) بعد أن استمر في حكم إشبيليه نحو عشرين عاماً، وخلف عباد بن محمد والده، وتلقب بفخر الدولة ثم بالمعتضد واستمر حكمه ثمانية وعشرين سنة (٤٣٣-٤٦١هـ/ ١٠٤١-١٠٦٨م)، وكان شديداً مع أرباب البيوتات والخطط وأهل القلم فقتل وزير أبيه حبيباً، وأخمل كل ذي وشارة وتابع ذوي الهيئات فقتل جماعة وصادر أملاك آخرين، ووسع إمارته بالاستيلاء على الإمارات الصغيرة مثل إمارة ولبة وجزيرة شلطيشي وإمارة شنتمريه الغرب في سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م واستولى على الجزيرة الخضراء سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، وعلى شلب سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، وعلى الإمارات البربرية الأربعة الصغيرة في شرقي وجنوب الأندلس وهي: إمارة بني يفرن في رندة، وإمارة بني دمر في مورور، وإمارة بني خزرون في شذونة وأركش، وإمارة بني برزال في قرمونة فيما بين سنة (٤٥٧-٤٥٩ هـ/ ١٠٦٤-١٠٦٦م) فضمت إشبيلية المثلث الجنوبي من الأندلس، فأصبحت أغنى إمارات الطوائف.

ثم تولى حكم إشبيلية محمد بن عباد "المعتمد" (٤٦١-٤٨٤هـ/ ١٠٦٨-١٠٩١م)، وكان متردداً للرعية، فكثيراً ما يتستر ويشاركهم في نواديهم وأماكن تجمعاتهم ، ولا يترفع عن الدخول إلى أسواقهم والاجتياز بأرباضهم وسككهم، ويخرج للقرى والبوادي يتراطن مع أهلها.

وبذلك الإمارة العبادية في عهده جهوداً كبيرة كلفتها كثيراً من أجل التوسع على من حولها، فضم مالقة ومرسية وقرطبة، وأراد أخذ غرناطة من عبد الله بن بلقين فلم يستطع، ووضح في أواخر عهده تردي أحوال الأندلس بعد سقوط طليطلة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م فأيد الاستغاثة بالمرابطين.

٣- غرناطة في عهد الطوائف:

وحكــم غرناطة بنوزيري بن مناد، وكان بنو مناد وقد دخلوا الأندلس أيـــام المنصـــور بن أبي عامر، فأعطاهم مكانة كبيرة في جيشه، ولما قامت الفتنة بقرطبة وقف البربر مع سليمان المستعين ضد أهل الأندلس والمهدي ثم تفــرق الــبربر علـــى كور ومدن الأندلس، فأقطع بني زيري بن مناد كورة إلبــيرة، وأقطـــع بني برزال وبني يفرن كورة جيان وبعض المدن الأخرى لغيرهم.

ومـــن ثم دخل بنو مناد — محالفين بني حمود — في حرب المرتضى عـــبد الرحمـــن بـــن محمـــد ومعه أهل الأندلس، وهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ومعه كثير من أهل الأندلس، ورأى زاوي بن زيري أن يترك بنو مـــناد الأندلـــس وبالفعل ترك زاوي قومه سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م، لكن أهل إلبــيرة لجأوا إلى بني مناد ودعوهم إلى مشاركتهم خيرات بلادهم — وكانت كـــورة واسعة الرقعة بالخصب والنماء — مقابل الدفاع عنهم، فبنى بنو مناد مديـــنة غـــرناطة فـــي البسيط الواقع على مقربة من إلبيرة في وادي شنيل المنحدر من جبل شلير وانتقل إليها أهل إلبيرة.

واخـــتار بـــنو زيري حبوس بن ماكسن أميراً عليهم، وكان في حصن أشر، فسار في الناس سيرة حسنة، وضبط الأمن، وقسم الإمارة بين بني عمه وأقاربـــه، ونظـــم الجيش، وأكمل بناء غرناطة، واتسعت إمارته حتى شملت قبره وتوفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٢٦م.

خلـــف باديس والده حبوس سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٢٦م، وفي عهده حاول المعتضد أخذ مالقة من بني باديس إلا أن جيشه هزم هزيمة ساحقة، فاتسعت بذلك إمارة غرناطة من بسطة شرقاً حتى رندة غرباً وجيان شمالاً إلى البحر جنوباً.

غـــير أن باديس ترك أمور دولته في يد وزيره اليهودي إسماعيل بن النغريلة الذي أساء السيرة وقلد اليهود شئون المسلمين في غرناطة حتى ضج

المسلمون وقاموا على اليهود تقتيلاً وأخذ للأموال، فتنبه باديس لشئون البلاد واسـترجع وادي أش مـن ابن صمادح وجيان من مسكن بن حبوس ومقر غرناطة وأنشأ قصبتها الشهيرة — قصبة الحمراء — وكان داهية حازماً جداً أمنت لحماية الرعايا، وكثر العمران، وتوفي سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م بعد أن استمر حكمه ما يقرب من ثمانية وثلاثين سنة.

ثـم آل حكم غرناطة إلى حفيد باديس (عبد الله بن بلقين)، وكان صبياً صـغيراً، فقـام الوزيـر سماجة الصنهاجي بتدبير شئون غرناطة، وعرف بالحـزم، فضـبط الدولة وأحسن السيرة، واستمر الصراع مع بين عباد في إشـبيليه بقيادة المعتمد بن عباد الذي استولى على جيان ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، فـتحالف عـبد الله بن بلقين مع ألفونسوا السادس واستولى علىحصن قبرة جنوب غربي جيان، وحاول ابن عباد حصار غرناطة، غير أنَّه رفعه بسبب هزيمة قواته في قرطبة.

اهتم عبد الله بن بلقين بأمور غرناطة، فأقال وزيره ابن سماجة، وسمح لـه أن يعـيش فـي ألمرة، وعزل الولاة الظلمة، فعزل والي وادي آشي أبا جوش واعتقله لتعديه على أملاك وأموال الرعية، وعزل عامل مدينته المنكب وعين بدلاً منع عاملاً حسن السلوك.

وتقـاتل عبد الله بن بلقين مع أخيه تميم حاكم مالقة، واستولى عبد الله علـى بعـض حصـون مالقة، إلى أن تدخلت والدتهما وأصلحت بينهما، ثم تصـالح مع المعتمد بن عباد سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، وبعد دخول المرابطين للأندلس أخذوا غرناطة من بني زيري.

العلاقة مع نصارى الشمال في عصر الطوائف:

لم تسلم المدن والقرى حول طليطلة من هجوم فرديناند الذي أغار على مدينة سالم وطلمنكة ووادي الحجارة وقلعة النهر، وخرب ما حولها من قرى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، غير أن المأمون بن ذي النون حالف فرديناند ودفع

لــه الأموال والهدايا، فساعده على أخذ بلنسيه من صهره عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر.

وعندما توفي فرديناند سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، وتصارع أولاده شانجة ملــك قشتالة وألفونسو ملك ليون وغرسيه ملك جليقه واستمر ذلك حتى سنة ٤٦٣هــــ/ ١٠٧٠م، وفيها انتصر شانجة وأخذ ملك أخويه، فهرب ألفونسو إلى طليطلة — وعرف عوراتها التي ستساعده على أخذها بعد ذلك — ورجع ألفونســو إلى ملكه بعد أن هلك أخوه شانجة، وبعد مدة توفي المأمون بن ذي الــنون وتولى بعده ولده الضعيف يحيى "القادر"، فأطمع ذلك ملوك الطوائف فاستولى المعتمد بن عباد على قرطبة وأعمالها ما بين طلبيرة وغافق، وأخذ المقــتدر بــن هــود شنتبرية وملينة، ومما أضعف طليطلة أكثر قتل القادر لوزيــره أبــي بكــر بن الحديدي سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، فقامت الثورة في طلــيطلة، واســتنجد القادر بألفونسو الذي قال له: "إن كنت تريد الدفاع عن الخائلــة وجه إلي مالاً وإلا سلمتك لأعدائك" فأجبر يحيى القادر أهل طليطلة — حضراً وأرياقاً — على دفع المال وإلا جعلهم رهينة لألفونسو، ولم يحتمل أهل طليطلة هذا الوضع فثاروا على يحيى القادر الذي فر إلى حصن وبذة ثم إلــى مديــنة قونقــة، واســتدعى أهل طليطلة المتوكل بن الأفطس صاحب بطلــيوس، فلجأ يحيى القادر إلى ألفونسو، واتفق معه على أن يعطيه أموال طلــيطلة بعد استعادتها، وحاصر ألفونسو طليطلة ففر المتوكل ابن الأفطس تاركــاً طليطلة التي دخلها ألفونسوا ويحيى القادر، جمع القادر أموالاً عظيمة وقدمهــا إلى ألفونسوا ومعها بعض الحصون مثل صورية وقورية وقنالس، وكرر يحيى القادر استنزافه لأهل طليطلة فجمع منهم سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م مــبلغ ١٥٠٠٠٠ ديــنار وقدمها لألفونسو مع خمسمائة مدمن الطعام، وهذه التصــرفات أفقــرت أهل طليطلة واضعفتهم فهاجر أهــل طليطلة منها مما سهل سقوطها سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

بدأت علاقة غرناطة بنصارى الشمال تقريباً سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، وفي عهد أخر أمرائها عبد الله بن بلقين، عندما تصارع مع المعتمد بن عباد، ونصحه وزيره سماجة بعقد تحالف مع ألفونسو السادس في مقابل ٢٠٠٠٠ دينار، واسترد ابن بلقين حصن قبره جنوب جيان، فتحالف المعتمد بن عباد مع ألفونسو لأخذ غرناطة مقابل ٥٠٠٠٠٠ دينار، وقامت قوات المعتمد بالإغارة على أرياف وبسائط ومروج غرناطة، فتفاهم ألفونسو مع ابن بلقية على دفع عشرة آلاف دينار مقابل التنازل عن بعض الحصون التي بيعت للمعتمد.

وامتنع عبد الله بن بلقين عن دفع الإتاوة لألفونسو بعد وقعة الزلاقة، إلا أن ألفونسو أجبره على دفع ٣٠٠٠٠ دينار، دفعها من ماله الخاص حتى لا تشكوه الرعية للمرابطين، إلا أن المرابطين قرروا خلع ابن بلقين، فأسرع بالتحالف مع ألفونسو ودفع له أموالاً كثيرة.

وبدأت علاقة إشبيليه مع نصارى الشمال في عهد المعتضد بن عباد (٤٣٣-٤٦٤هـ/ ١٠٤١-١٠٧١م)، فعندما استأسد فرديناند الأول ملك قشتالة على سرقسطة وبطليوس وطليطلة أراد إخضاع إشبيليه، فهاجمها سنة ٤٥٥ هـ وأحرق قراها، ورحل عن أريافها بعد أن استقر على دفع مقدار من الأموال، واستمر يدفعها المعتضد لشانجة وابنه فرديناند حتى وفاة المعتضد سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م.

وخلف المعتمد بن عباد والده المعتضد (٤٦٤-٤٨٤هـ/ ١٠٧١-١٠٩١م) وتصارع مع بني زيري أصحاب غرناطة، وأخذ منهم جيان سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م فتحالف ابن بلقين مع ألفونسوا السادس ضد المعتمد، ولم يتحالف ألفونسو مع المعتمد على أخذ غرناطة حتى لا تقوى دولة ابن عباد.

ثم اتجه المعتمد للاستيلاء على مرسيه من بني طاهر، وتمكن من ذلك سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م، والمعتمد في ذلك يدفع الأموال لألفونسو، وعندما

أرسل ألفونسو تابعه ابن شاليب لأخذ الأموال من المعتمد أساء السيرة مع المعتمد فقتله المعتمد وسجن من معه من القشتالين، فبعث ألفونسو جنوده يعيشون في أرياف وقرى باجة ويحرقون قرى إشبيليه وينتسفون الزرع، وتحولوا إلى شذونة مخربين كل ما يقع تحت أيديهم، وخطته في ذلك إضعاف المسلمين بأخذ أموالهم من المبالغ المفروضة عليهم وبتخريب أراضيهم وانتساف زروعهم وأخذ محاصيلهم ومواشيهم وانتطاع أملاكهم وحصونهم وقراهم.

ومن ذلك نلاحظ مستوى الانحدار السياسي الذي عاشه أمراء الأندلس في القرن الخامس الهجري، حيث تفرقوا شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً، ويتوسع بعضها على حساب البعض ، ولم تتردد بعض الإمارات في الاستعانة بالقوات الأسبانية لمساعدتها في قتال بعض الإمارات الأخرى، ووجدت الدويلات الأسبانية الشمالية الفرصة الكاملة للقضاء على هذه الدويلات المتشرزمة، وساعدت بعضها في حروبها ضد البعض، وتدخلت لحماية الدويلات الصغيرة، وفي أحيان أخرى فرضت عليها كميات ضخمة من الأموال بغرض حمايتها، وتسابق ملوك وأمراء الطوائف في دفع الجزية لملوك النصارى من الأسبان بصورة لم يسبق لها مثيل، ولم ينج من ملوك الطوائف أحد من السقوط في هذه المهانة.

كان بطل أسبانيا المسيحية في ذلك الوقت الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي وجد أن الزمان لن يتيح له فرصة أخرى مناسبة للقضاء على دولة الإسلام في الأندلس، فسعى للتفرقة بينهم، وإشعال العداوة والبغضاء، وضرب بعضهم ببعض، والاستلاء على مدنهم وقلاعهم وحصونهم الواحدة تلو الأخرى إلى أن وجه لهم ضربة قاتلة وذلك باستيلائه على طليطلة عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وطرد منها بني ذي النون وساعدهم على الاستيلاء على إمارة بلنسية في شرق الأندلس وكان سقوط طليطلة في أيدي مملكة قشتالة وهي في وسط بلاد المسلمين تماماً نذيراً قويا، كان مفترضاً أن يوقظ الغافلين

مــن ملوك الطوائف لكن الأسى والحزن والمساعدة لم يتجاوزوا حدود عدد مــن القصائد الشعرية تندد بالملك ألفونسو وتنعي مملكة طليطلة التي لم تعد إسلامية.

كمــا أنَّه ليس من عجب في ظل ذلك الواقع المؤلم لأوضاع المسلمين فــي الأندلــس أن يتمكن أحد المرتزقة الأسبان أن يجند حوله جماعات من قطاع الطرق وأن يغزو بهم مملكة بلنسية في شرق الأندلس، ويستولي عليها ويعمــل على تصفية أهلها إلى درجة قيامه بإحراق قاضي المدينة حياً بحجة أنَّــه أخفــى بعض الذخائر التي كان يجب مصادرتها والاستيلاء عليها ومما يؤســف له أنَّــه مع توالي تلك المصائب على مسلمي الأندلس، فإن ملوكهم وأمرائهم لم يتوقفوا عن الحروب فيما بينهم، وعن محاولات استيلاء كل منهم علــى مــا في يد الآخر، والأدهى وأمر أن كل واحد منهم اتخذ لقباً ملوكياً فخمــاً، بلم لم يتورعوا من اتخاذ ألقاب الخلافة نفسها مع خلوهم جميعاً من أي شرط من شروط هؤلاء الملوك والخلفاء حتى قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقــاب معتمــد فيهــا ومعتضــد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاضاً صورة الأسد

الحياة الثقافية في عصر ملوك الطوائف:

عاشت بلاد الأندلس في القرن الخامس الهجري ظاهرة غريبة جداً إلا أنها وهي في ظل تدهور سياسي كبير فإنها عاشت فترة ثقافية وفكرته متميزة والســبب فــي ذلك كما يقول المؤرخون أن هؤلاء الملوك العاطلون من أية ميزة قد وجدوا أن ما يمكنهم التباهي به هو حماية العلماء والأدباء والشعراء، ولذلك سعى كل منهم إلى تجميل بلاطه ومملكته بما يمكنه الإغداق عليهم من هؤلاء، وكان على رأسهم المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه والذي كان بطبعه شــاعراً جميل اللفظ رقيق العبارة فكانت قصوره ميداناً فسيحاً للنظم والنثر وظهرت أسماء كابن عمار وابن زيدون وعبد المجيد بن عبدون، ولم يقتصر

الأمر على الأدب فقط بل كانت للعلوم الدينية أيضاً فرسانها ويكتفي أن نشير إلـــى أبـــي الولـــيد الباجي أو إلى الإمام ابن حزم أو إلى المفسر ابن عطية القرطبي أو إلى عمدة المؤرخين الأندلسيين ابن حيان أو ابن بسام الشنتريني.

مـــن جانب آخر كانت العمارة إحدى مواضع شغف هؤلاء الملوك فهم يتباهو بها، وفأسرفوا في البناء والزخرفة، وأكثروا من القصور والمنتزهات وأماكن اللهو حتى أنهم وكأنهم يسعون لإبعاد شبح النهاية الذي كان يتهددهم أمام زحف القوات الأسبانية التي لم تكن تكل ولا تمل من رغبتها في القضاء المبرم على ذلك الشعب الذي أوكل أموره إلى من لا يستطيع القيام بأمرها.

وسعى العلماء إلى إنقاذ الأمة، فبذلوا جهداً خارقاً لإقناع هؤلاء بنسيان الفـــرقة والاتحـــاد، طلب المساعدة من حكام بلاد المغرب المرابطين إلى أن استجاب لذلك أمير أشبيليه المعتمد بن عباد، والذي وجد نفسه تحت ضربات ألفونســـوا الســـادس مما لم يترك له إلا طريق الاستعانة بالمرابطين في بلاد المغرب فوافق على مراسلتهم والتحالف معهم مما سنبينه فيما يلي.

سادسا: عصر المرابطين في الأندلس:

قامـــت في المغرب الأقصى حركة دينية في النصف الأول من القرن الخـــامس الهجـــري، وهـــي حركة المرابطين، والتي خرجت من المناطق الجنوبـــية للمغـــرب الأقصى فيما بين نهر درعة جنوباً والصحراء التي تليه جـــنوباً –وهـــي صـــحراء تـــنس– حتى نهر السنغال، وعاشت هناك قبيلة صنهاجة الصحراء، وأهمها:

جدالة ولمتونة وسونة ولمطة وجزولة (وتقابل اليوم موريتانيا ومالي).

وفي سنة ٤٦٣هـــ/ ١٠٧١م سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لعلمه بثورة جدالة وفتكهم لمتونة، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين،ثم لم يلبث ان استشـــهد أبو بكر بن عمر، وآلت السلطة ليوسف بن تاشفين، الذي دخل فاس وتلمسان، وتسمى بأمير المسلمين.

وفــي هذه الأثناء ساءت أحوال الأندلس، وتمكن ألفونسو السادس من الاســتيلاء علــى أسبانيا الوسطى والغربية، فاستولى على قورية ٤٧٢هت/ ١٠٧٩م وطلــيطلة ســنة ٤٧٨هــــ/١٠٨٥م، وفرض الإتاوات على ملوك الطوائف، فتزعم صلحاء العلماء والفقهاء الدعوة لتوحيد الأندلس، إلا الدعوة فشــلت، فاتجهوا إلى المرابطين ومنهم ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أمير إشبيليه، وجاءت هذه الدعوة بعد سقوط طليطلة بثلاثة أشهر.

وأجاب المرابطون دعوة الجهاد إلى الأندلس سنة ٤٧٩هــ/ ١٠٨٦م، فنزلت بمنطقة الجزيرة الخضراء، فترك ألفونسو السادس حصار سرقسطة، وســـار بقواتـــه إلـــى بطليوس بعد أن توافدت عليه جيوش جليقية بسكونية وأشــتوريس وقشتالة وليون وأراجون، وانضمت إليهم إمدادات دول أروبا، وبلـــغ عدد جيش نصارى الشمال نحو ٨٠٠٠٠. أما القوى الإسلامية بلغت نحو خمسين ألف.

في نفس الوقت تجمعت جيوش المرابطين وانضمت إليهم قوات ملوك الطوائــف واتحد المسلمون لأول مرة منذ زمن طويل وزحفوا معا في اتجاه قـــوات الأسبان بالقرب من مدينة بطليوس عند سهل عرف في التاريخ باسم ســـهل الـــزلاقة وهناك وقت المعركة التي عرفت باسم الزلاقة — على بعد ثلاثة فراسخ من بطليوس — يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩هــ/ ١٠٨٦م، وانهزمت جيوش الأسبان والأوربيين وفر ألفونسو السادس في خمسمائة من فرسانة. وكان من نتائج هذا الانتصار أن استرد المسلمون المدن التي احتلها ألفونســو مــثل: الأشــبونة وشــنترين، كما انقطع أمراء الطوائف عن دفع الإتــاوات لملوك نصارى الشمال. ولكنهم لعودتهم إلى الخلاف لم يستثمروا نصرهم باسترداد طليطلة التي تصل إليها ألفونسو مقر حكمه وجعلها عاصمة لمملكــته. وذلك في الوقت الذي عاد فيه يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب وقيل تبريراً لذلك أنَّه بسبب انشغاله بأحوال المرابطين في المغرب، وبخاصة

بعد موت ولده وولي عهده أبي بكر، ولما كان يسود ملوك الطوائف من تخاذل وأنانية وضعف، إلا أن يوسف بن تاشفين ترك حاميات مرابطين تساعد الأندلسيين في التصدي لغارات نصارى الشمال.

وكان النصارى يتخذون حصن لبيط المنيع والقريب من لورقة للإغارة على أراضي مرسيه وألمرية، ويعتصم بالحصن نحو ١٣٠٠٠ من المحاربين فاستعان أمراء الطوائف بالمرابطين مرة أخرى وخاصة بعد أن عاد ألفونسو لقتالهم، فعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس العبور الثاني سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م، وحاصرت القوات المسلمة حصن لبيط لمدة أربع أشهر إلا أن الحصن لم يستسلم لدخول الشتاء ومناعة الحصن. وتبين ليوسف بن تاشفين مدى الخلافات العميقة بين أمراء الطوائف، وتعاون بعضهم السري مع نصارى الشمال فاضمر يوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف، وغرر موقفه بفتاوى فقهاء المشرق أمثال: الغزالي والطرطوشي، ودعوة فقهاء الأندلس وعامتهم لتخليصهم من أمراء الطوائف، وكان على رأس الفقهاء أبو جعفر بن القليعي ومن هنا بدأ المرابطون سياسة مغايرة تهدف إلى القضاء على ملوك الطوائف، وبالفعل سيطرة قوات المرابطين على ممالك أمراء الطوائف تباعاً فسيطرت على غرناطة عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م، وعلى إشبيليه سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، وعلى ألمرية ٤٨٤هـ/١٠٩١م، وعلى مرسيه سنة ١٠٩١/٤٨٤م، وعلى بطليوس سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وعلى ألبونت سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م، وعلى شنتمرية الشرق سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م وعلى سرقسطة سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠م وتمت السيطرة بعد جهود كبيرة قامت بها القوات المرابطية.

وتدخلت قوات المرابطين في بعض الإمارات لإنقاذها من الخطر الأسباني وإعادتها إلى المسلمين مثل إمارة بلنسية والجزائر الشرقية، وإدخالهما في حوزة المرابطين. أما جهود المرابطين أمام الممالك الأسابنية فكان جهاداً مجيداً وهذا عرض مبسط له:

١- الجهاد ضد مملكة قشتالة وليون:

ويمكن تقسم الجهاد إلى مرحلتين:

الأولى: من عام ٤٨٣هـ — ٥٢٣هـ. وكان التفوق للجيوش المرابطية، فهاجمت طليطلة وأحوازها، واسترجعت بعض المدن والحصون. كما انتصر المرابطون في معركة إقليس شرقي طليطلة سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م، وهي تلي الزلاقة في الأهمية، وقتل في هذه المعركة شانجة ابن ألفونسو الوحيد وولي عهده، كما قتل عدد كبير من قواد الجيش القشتالي، واستولى المسلمون على إقليس، ومات الملك القشتالي كمدا سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م، وتكررت محاولات علي بن يوسف بن تاشفين للاستيلاء على طليطلة مرة أخرى كما حدث سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٤م. دون نجاح يذكر في هذا المجال.

الثانية: من عام (٥٢٣-٥٤٢هـ/١١٢٨-١١٤٧م) وفيها خسرت القوات المرابطية الكثير من المعارك، وتكرر هجوم الأسبان على المدن الإسلامية مثل مهاجمة قرطبة وحصونها ومدنها عدة مرات في عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م، وفي عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م، وفي عام ٥٣٦هـ/١١٤٢م، وفي عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م، وعلى إشبيلية ومدنها عام ٥٢٦هـ/١١٣٢م، وفي عام ٥٣٦م/١١٤٢م، وفي عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م. وعلى بطليوس وغرب الأندلس في أعوام: ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م، و٥٣٢هـ/ ١١٣٧م، و٥٣٦هـ/ ١١٤٢م.

٢- الجهاد ضد مملكة البرتغال (٤٨٣-٥٤٢هـ/ ١٠٩٠—١١٤٧م):

ومر جهاد المرابطين بمرحلتين: الأولى من عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م إلى ٥٣٣هـ/١١٣٨م، وفيها اتخذ المرابطون بطليوس قاعدة لهم، واسترجعوا بعض المدن التي أخذها الأسبان مثل : يابرة وأشبونة وشنترين سنة ٥٠٥هـ/١١١٣م وقلمرية سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م.

والثانية من عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م إلى سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وفيها اشتدت هجمات البرتغاليين على المدن الأندلسية، ووقعت بعض الهزائم للمرابطين مثل هزيمتهم في موقعة أوريك على ضفة نهر التاجة كما استغلت مملكة البرتغال ثورات الأندلسيين على المرابطين وسيطروا على مدن شنترين وباجة وماردة وأشبونة.

٣- الجهاد ضد مملكة برشلونة:

واصلت مملكة برشلونة توسعها على حساب أراضي الثغر الأعلى حيث سيطرت على مدينة طركونة، وحاول المرابطون استرجاع طركونة وبرشلونة فأرسلت قواتها ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، وفي عام ٥٠٨هـ/ ١١١٥م، كما أرسلت حملة بحرية سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م إلى منطقة برشلونة وأسرت الكثير من أهلها.

وبعد سقوط ألمرية سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م تشجع النصارى على معاونة الاستيلاء على طرطوشة لاستخدام المرابطين لها في هجماتهم على مملكة برشلونة وأرغون وشوطئ فرنسا، وسيطروا بالفعل عليها سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

٤- الجهاد ضد مملكة أرغون:

أعلن ملك أرغون الراهب راميرو (٥٢٩-٥٣٢هـ) تبعيته لملك قشتالة ألفونسو السابع، وسار على هذا النهج ملكي برشلونة والنافار، فكان لألفونسو السابع (السليطين) السيطرة على سائر ملوك الأسبان.

وازدادت هجمات النصارى على الثغر الأعلى للسيطرة على سرقسطة وما حولها من مدن، واحتلوا تطيلة سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، وحوصرت سرقسطة لمدة سبعة أشهر حتى احتلها ألفونسو السابع سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م وجعلها عاصمة لمملكة أرغون، ثم تتابع سقوط المدن مثل مدينة روطة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وطرسونة وقلعة أيوب سنة ٥١٣هـ/ ١١٢٠م، وانتصر

على القوات المرابطية في وقعة قتندة سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م، واستشهد فيها آلاف من المسلمين بيهم العديد من الفقها والعلماء.

وفي سنني ٥١٩ و ٥٢٠ هـ/ ١١٢٥-١١٢٦م قام ألفونسو بحملة مدمرة اخترق فيها الأندلس من سرقسطة إلى بلنسية ومرسية منحدراً إلى الجنوب ماراً بالقرب من أقاليم قرطبة وغرناطة إلى أن وصل إلى ساحل البحر المتوسط ونزل بيليس، وساعده في ذلك النصارى المعاهدون، وأظهرت هذه الحملة الضعف الذي حل بالمرابطين، فأفقد أهل الأندلس الثقة فيهم، وبدأ التذمر والثورات التي قام بها أهل الأندلس على المرابطين.

وبعد ذلك بسنوات وقعت هزيمة أخرى للمرابطين في شرق الأندلس عند قرية جلبيرة قرب بلنسية سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م، وذهب فيها نحو ١٢٠٠٠ شهيد وأسير.

وفي عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م انتصر المسلمون على ألفونسو السابع في معركة إفراغة، وكان لذلك صدى عميق، إذ أعادت هذه المعركة سمعة المرابطين العسكرية.

ضعف دولة المرابطين ونهايتها في الأندلس:

تميز عهد يوسف بن تاشفين (٤٥٤ — ٥٠٠هـ) تثبيت أركان دولة المرابطين في المغرب الأقصى وعبورها للأندلس لنجدتها ثم تحويلها إلى ولاية تابعة للمرابطين، ومن ثم تحمل المرابطين للجهاد ضد الممالك الأسبانية، واستشهد في هذه المعارك خيرة قواد المرابطين مثل الأمير مزدلي عامل قرطبة والقائد محمد بن فرولي.

في حين تميز عهد الأمير علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧هـ/ ١١٠٦-١١٤٢م) والأمراء الثلاثة بعده (٥٣٧-٥٤٢هـ/ ١١٤٢-١١٤٨م) بالاضطراب ، يقول المراكش: "واختلف حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلافاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر

المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرخ بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه.. وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من خراج، وعكف على العبادة والتبتل.. وأهمل الرعية غاية الإهمال".

وقامت في السنوات الأخيرة من حكم علي بن يوسف كثيرة في نواحي الأندلس ، والغريب أن يقوم بها القضاة والفقهاء والأدباء ففي الجنوب الغربي الأندلس قامت ثورة أحمد بن الحسين بن قيسي المتصوف وأطلق عليها ثورة المريدين، وتحالف مع الموحدين، ولما أراد الاستعانة بملك البرتغال علن الموحدين قتله أهل شلب سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م.

وثار في وسط وجنوب الأندلس أهل قرطبة وعينوا الفقيه حمد بن محمد الملقب بابن حمدين، كما تمرد في مالقة قاضيها أبو الحكم بن حسون، وفي مدينة وادي آسن تمرد أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، وثار في جيان قاضيها يوسف بن عبد الرحمن بن جزي، وتزعم تمرد رندة الأديب أخيل بن إدريس الرندي، وفي شريس تمرد أبو الغمر بن السائب بن عزون ، وفي قاوس تمرد علي بن عيسى بن ميمون.

وثار في شرق الأندلس ثوار كثيرون، وآلت مرسية وبلنسية إلى حكم القاضي عبد الله بن عياد، فترك لصهره عبد الله بن مردونيس حكم بلنسية وسكن ابن عياض مرسية.

وهكذا امتلأت الأندلس خلال الأعوام ٥٣٩ — ٥٤١ بحركات التمرد، وهي سنة دخول الموحدين للأندلس وإنهاء حكم المرابطين.

ولقد شهد عصر المرابطين اهتماماً نوعياً بالحياة الثقافية حيث ازدهرت علوم واضمحلت علوم فقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالمذهب المالكي واضطهدوا علماء الكلام مما طبع عصرهم بطابع معين من الدراسات

يصورها لنا المراكشي بقوله متحدثاً عن الأمير يوسف بن تاشفين.

واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشـــاروة، فكان إذا ولى أحد من قضاته، كان فيهما يعهد إليه إلا بقطع أمـــراً ولا يبـــث في صغيرة من الأمور أو كبيرة إلا بمحضر من أربعة من الفقهـــاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس.

واهتم المرابطون اهتماماً كبيراً بعلم الفروع، ابتعدوا عن علوم الكلام لدرجة أنهم أحرقوا كتب الإمام أبي حامد الغزالي ومنع الناس من قراءتها أو الاطـــلاع علـــيها. ويتفق المؤرخون على أن الطابع العسكري للمرابطين قد حجب كثيراً من أخبارها الثقافية.

سابعا : الموحدون في الأندلس :

تديـــن دولـــة الموحدين بقيامها لمحمد بن تومرت الملقب بالمهدي، والـــذي جعـــل من قبائل المصامدة — الذين يعيشون في جبال الأطلسي جـــنوب المغـــرب — قـــوة سياســـية كبيرة. وابن تومرت شخصية يلفها الغمـــوض وبعـــض المتناقضات، وقد ولد في تاريخ يتراوح بين ٤٧١-٤٧٤هـ / ١٠٧٨ — ١٠٨١م فـــي قبـــيلة هرنمة البربرية والمنتمية إلى المصـــامدة، وطلـــب العلم في الأندلس، ثم رحل إلى الشرق سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م، وقضـــى هـــناك عشر سنوات، وتؤكد بعض الروايات لقاءه مع الإمـــام الغزالـــي وأثناء العودة التقى بعبد المؤمن بن علي، وكـــان شابا طموحاً يطلب العلم، فأصبح من أقرب تلاميذ ابـــن تومرت إليه، وخليفته في دعوته.

وجاهر ابن تومرت بتغيير ما رآه منكراً في مراكش، وهاجم الفقهاء ورجـــال السلطان ، وتعرض للعامة والخاصة بالتكبر، وتعرض لغضب

الفقهاء، وناظر علماء المرابطين وتغلب عليهم، فحرضوا عليه الأمير علي بـــن يوسف فأخرجه من مراكش، وتوجه ابن تومرت إلى قبيلته هرنمة، فتجمع حوله الأنصار والتلاميذ، وواصل حملته الدعائية ضد المرابطين.

وبعد أن تأكد محمد بن تومرت من تكوين جماعة مخلصة انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلس قرب منابع وادي نفيس هو مدينة تينملل وقسم أتباعه إلى طائفتين: كأنهم المهاجرين والأنصار، فأصحاب محمد بن تومرت الأوائل هم طبقة العشرة، وهم أول من بايعه بأنه المهدي المنتظر والأنصار هم طبقة الخمسين، وهم الطبقة الثانية من أتباعه، ومن ثم طبقة الســـبعين. وبعدهـــا طـــبقة الطلبة، وطبقة الحفاظ وطبقة أهل الدار. أما الطبقات الأخرى من السابعة إلى الثالثة عشرة فهي طبقات القبائل. وهدف ابن تومرت من ذلك إلى تنظيم زعماء القبائل في هذه الطبقات لكي يضمن ولاءهم وولاء قبائلهم. كما هدف إلى نقل ولائهم القبلي إلى الولاء للطبقة.

وسمى ابن تومرت دعوته بالموحدين، باعتبارهم هم المحافظين على التوحـــيد الإلهـــي الصحيح — في نظرهم — على حين سموا المرابطين بالمجسمة، فوجه علي بن يوسف عدة حملات إلى تينملل وإلى القبائل التي تبعت ابن تومرت، ولكنها فشلت في القضاء على الثورة، بل تزايدت قوة ابن تومرت، وحاصر مراكش، وقاد الجيش عبد المؤمن بن علي، ودارت معركة البُحيرة على أبواب مراكش سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، لكن الموحدين هزموا وتوفى ابن تومرت نفسه بعد أن ترك تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي.

استمرت مرحلة عبد المؤمن بن علي سنة ٥٢٤ — ٥٤٢هـ/ ١١٣٠-١١٤٨م، وواصل حربه مع المرابطين، حتى كانت المواجهة الأخيرة مع

تاشفين بن علي في وهران، فقتل تاشفين سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، وبعد سنة واحدة استولى عبد المؤمن بن علي على مراكش حاضرة المرابطين.

عبور الموحدين للأندلس:

عبر أول جيش موحدي للأندلس سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م للإحاطة بسلطان المرابطين بها، والقضاء على الزعامات المحلية التي ظهرت بالأندلس في نهاية دولة المرابطين. مع حماية كيان الموحدين في المغرب من أي هجوم مرابطي من الأندلس.

ومما شجع الموحدين على العبور للأندلس الدعوات الرسمية والشخصية التي وصلتهم من العلماء والحكام المحليين الذين رحبوا بقدوم الموحدين وفي مقدمتهم علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول في قادش وزعيم حركة قرطبة ابن حمدين القاضي، وزعيم حركة مدينة شريش ابن عزون وغيرهم.

فجهز عبد المؤمن بن علي ثلاثة جيوش عبرت للأندلس سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، وسيطرت على مدن الجنوب مثل طريف والجزيرة الخضراء وشريش. وسارت قواته إلى غربي الأندلس ودخلت مدن، لبة وبطليوس وباجة وشلب ويابرة، واستعصت عليهم إشبيلية، ثم استسلمت سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م ثم دخلت القوات الموحدية قرطبة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، ثم فتحت مدن وحصون وسط الأندلس مثل أبدة وبياسة وحصون شلير وأركش وبرشانة ومالقة، وقاومت مدينة غرناطة بقيادة حاكمها المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني ثم استسلم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م، بعد أن حصل على الأمان من عبد المؤمن بن علي.

وصـــممت القوات الموحدية على استرداد مدينة المرية التي استولى علـــيها الأســـبان ســـنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وبعد حصار سبعة أشهر فتح الموحدون المدينة سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م.

وورث الموحدون دولة المرابطين في جهادهم للممالك النصرانية في الشمال وهي: مملكة قشتالة ومملكة البرتغال، ومملكة أراجون وبرشلونة وكـــان ملـــك البرتغال ابن الرنك (٥٢٢- ٥٥٣هـ/ ١١٢٨- ١١٥٨م) قد اســـتغل الأوضاع الأخيرة للمرابطين، فتعاون مع قوات أوربية، واستولوا علـــى مديـــنة لشبونة سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وعلى قصر أبي دانس سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، كما قام مغامر برتغالي يدعى جراندة الجليقي بالسيطرة على بعض مدن غربي الأندلس، فما كان من عبد المؤمن بن على إلا أن قـــام ببناء مدينة الفتح على سفح جبل طارق، وكمل بناؤها عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، لتنطلق منها الجيوش لمجاهدة الأسبان.

وتوفى عبد المؤمن بن علي في هذه الأثناء سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م بعد أن أســـس دولـــة كـــبرى امتدت من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر، وأضاف لها ما بقى في أيدي المسلمين من أرض الأندلس.

وخلـــف يوســـف بـــن عبد المؤمن والده ٥٥٨ — ٥٨٠هـ/ ١١٦٣- ١١٨٤م، وكـــان عـــاملا على إشبيلية، فوجه اهتمامه إلى الأندلس، وكان علـــيه أن يقضي على محمد بن سعد بن مردنيس الذي استولى على مدن شـــرق الأندلـــس، وفي عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م تحرك جيش الموحدين من إشبيلية بقيادة السيد بن عمر وعثمان أخوة الخليفة إلى مرسية حيث التقيا بابـــن مردنـــيش في فحص الجلاب، وهو سهل على بعد عشرة أميال من مرســـية، فأوقعا به هزيمة شديدة، وسيطر الموحدون على حصون كثيرة لابن مردنيش، وضعف أمر ابن مردنيش لسوء علاقاته مع صهره يوسف

وحلـيفه إبراهـيم بن هَمشك، وتذمر الرعية منه لثقل الضرائب عليه، ثم توفى ابن مردنيش سنة ٥٦٧هـ.

وعـبر أبـو يعقوب يوسف للأندلس سنة ٥٦٦هـ، وبقى فيها خمسة أعـوام إلى سنة ٥٧٢هـ، وجهز حملة توغلت في أرض قشتالة، ووصلت إلى ضفاف نهر تاجة والذي تقع عليه طليطلة، وعادت بغنائم كثيرة، وأنشأ العديد من المنشآت في إشبيلية ومنها عدد من القصور الفخمة وتحصينات وأبراج ومتنزة البحيرة وقنطرة طريانة، وأنشأ المسجد الكبير.

وفيما بين سنتي ٥٦٩- ٥٧٣هـ/ ١١٧٤- ١١٧٨م، تبودلت الحملات بيـن الموحديـن وفـرناندو الثاني، واسترد الموحدون باجة التي أخذها البرتغاليون سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م، ووجه الأمير الموحدي اسطولا وانتصر على أسطول نصارى الشمال في ميناء الأشبونة سنة ٥٥٧هـ/ ١١٨٢م. وأراد الأمـير يوسـف الاسـتيلاء على مدينة شفترين، فتوجه إليها الملك فرناندو الثاني، فرفع الحصار عن شفترين، ومرض الأمير الموحدي، وتوفى ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م.

وولى أمر الموحدين بعد يوسف ابنه يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠- ٥٩٥هـ) فـنظم أمور الدولة، ثم عبر إلى الأندلس، فشغل بالقضاء على ثورة بني غانية، وكان محمد بن غانية الموفى الصحراوي عاملا للمرابطين على جزر البليار حين انهارت دولة المرابطين، ورفض طاعة الموحدين، وخلف محمـد ابنه إسحاق ثم ابنه علي بن إسحاق الذي لم يكتف برفض الاعتراف بالموحدين، بل أرسل قواته للاستيلاء على ثغر بجاية، ودخل الموحدون مع بنـي غانية في صراع حتى دخلت الجزائر الشرقية في طاعة الموحدين سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٢م.

ورد المنصــور الموحــدي اعتــداءات ملك البرتغال الجديــد شانجة الأول(٥٨١- ٦٠٨هـ/ ١١٨٥- ١٢١١م) الــذي ســيطر على مدينة شلب بمعانـــة قــوات صليبية في عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م واسترجع أمير الموحدين مديـــنة شلب وقصر أبي دانس سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، وعاد بعدها للمغرب. غير أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة هاجم منطقة إشبيلية، فعزم المنصور على تجهــيز حملـــة تأديبـــية كبيرة، فسار من إشبيلية إلى قرطبة، ثم سار شمالا لـــيواجه الحملـــة النصرانية المشتركة والمؤلفة من جيوش قشتالة وأراجون والـــبرتغال بقـــيادة ألفونسو الثامن، وفي عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م دارت معركة عنيفة عرفت بالأرك، انتهت بهزيمة ساحقة لقوات نصارى الشمال، ولا يقل هذا الانتصار أهمية عن انتصار الزلاقة في العصر المرابطي.

إذا اســتعاد الموحدون كثيرا من الحصون، وثبت خطوط المسلمين في حــوض وادي آنه. ثم قاد المنصور حملة سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٧م توغلت في أرض قشتالة شمالا، فحاصرت طلبيرة ومكادة وطليطلة ومجريط، ووصلت شـــمالا إلى وادي الحجارة ثم وبزة وأقليس وقونكة، وهي آخر حملة إسلامية تصل إلى هذه المواقع، وعقدت هدنة بين الطرفين ابتداءاً من ٥٩٤هـ/ ١١٩٨ لمدة عشر سنوات أو أكثر.

خلف المنصور ابنه محمد الناصر (٥٩٥- ٦١٠هـ/ ١١٩٩- ١٢١٣م) وفـــي عهده سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، وقبل انتهاء الهدنة هاجم ألفونسو الثامن أراضـــي المســـلمين بمعاونة بطرة الثاني ملك أراجون، فاستنجد الأندلسيون بالناصر الموحدي الذي أعد حملة على قشتالة سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١١م، واسترد المســـلمون حصن شلبطرة، واستنفر ألفونسو ملوك إسبانيا النصرانية، فقدم علـــيه شانجة ملك نبرة، وملك أراجون بطره الثاني، وانتصر المسلمون في الـــبداية، ثم تغيرت المعركة إلى هزيمة منكرة، وعرفت بمعركة العقاب سنة

٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، ومات بعدها الناصر حزنا، وعُدت هذه المعركة من أخطر ما منى به المسلمون من هزائم.

وكـــان لهـــا تأثيرها الحاسم في ضياع معظم مدن الإسلام في الأندلس والحـــق أن معـــركة العقاب كانت مأساة بالنسبة للإسلام والمسلمين في هذه البلاد وولى بعد الناصر ابنه المستنصر (٦١٠- ٦٢٠هـ/ ١٢١٣- ١٢٢٢م)، وفـــي عهده بدأ انهيار الدولة الموحدية وتدهورها، فتساقطت قواعد الأندلس، وتوحدت قشتالة مع ليون في ظل الملك فرناندو الثالث (١٢١٧- ١٢٥٢م)، واســـتولى هذا الملك على بعض مدن الأندلس مثل: ماردة وبطليوس وإلبش، وبـــدأ يـــنظر إلـــى بقية مدن الأندلس في وسط الجنوب، فقد هبطت خطوط المســـلمين الدفاعية من نهر وادي آنة إلى الوادي الكبير، وفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م استولى النصارى على: اندوجر وآبدة ومدلين وحصن الحنش وشنت أقروج وأم غزالة، وهي مواضع في غرب الأندلس.

ونتـــيجة لوفاة المستنصر فجأة ٦٢٠هـ حدث تبدل سريع في الأوضاع وصـــراعات، فقامت في الأندلس زعامات محلية استولت على ما تحت يدها مـــثل: ابـــن هود الجذامي ومحمد بن يوسف بن نصر، وزيان بن مدافع من سلالة ابن مردنيش وعزيز بن خطاب وغيرهم.

وفـــي هـــذه الأثـــناء سقطت عدة مدن أندلسية بيد القشتاليين مثل مدينة قرطبة سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، وتعرضت بلنسية لهجمات ملك أراجون خايمي الأول، واضطرت إلى الاستسلام ولم ينفعها مقاومة حاكمها أبي جميل زيان، والذي طلب العون من المغرب دون فائدة، وتلا ذلك سقوط جزيرة شقر عام ٦٣٩هـ ومدينة دانية سنة ٦٤١، وجيان سنة ٦٤٣، وشاطبة ٦٤٤م، وإشبيلية ٦٤٦ ومرسية ٦٦٤هـ.

وبذلــك أتمــت قشــتالة وأراجون فتح مناطق المسلمين في الغرب والوسط والشرق، ولم تبق إلا مملكة غرناطة التي أعلن محمد بن يوسف بن الأحمر نفسه ملكا عليها، في حين بدأت دولة الموحدين في الاحتضار تحت ضربات دولة فتية. قامت على أنقاضها في بلاد المغرب عرفت في التاريخ الإسلامي باسم دولة بني مرين، والتي ستكون معاصرة لدولة بني نصر في غرناطة.

ثامنا: عصر بني نصر في غرناطة:

كانــت واقعــة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) مؤشراً لانهيار الجبهات الإســلامية الــثلاث فــي الأندلس: في المغرب والوسط والشرق، فأطبق البرتغاليون في الغرب وملك قشتالة فرولند في الوسط، وخايمي الأول في الشــرق، أما ما بقى في أيدي المسلمين فلم يكن يجاوز عشر مساحة شبه الجزيرة.

وتركــت هــذه الأحداث فرصة لذوي المغامرة والطموح، ففي تلك الأثناء ظهر رجل استطاع هو وذريته ومن بعده أن يحتفظوا بالبقية الباقية طلــية قرنيــن ونصف من الزمان. وهذا الرجل هو محمد بن يوسف بن نصر الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي — رضــى الله عنه، واستقرت أسرته قديما في منطقة جيان، وانعقدت عليه الآمال والتف حوله الأنصار، وبويع يوم ٢٦ رمضان سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ م، ودخــل أهــل غرناطة في طاعته سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، فدخل قصر باديس واتخذ غرناطة عاصمة دولته، واختار لمقره برجا قائما على ضفة نهر حدره اليسرى فوق تل تربته حمراء كلون صدأ الحديد الأحمر، أو أن لــون شــعر جــده كان أحمراً، أو لون تربة أرضه، فصار يدعون بنو

الأحمر، واتخذوا اللون الأحمر شعاراً لهم. وعرفت هذه المملكة الصغيرة بمملكة بني الأحمر في غرناطة.

واستولى بنو الأحمر على مينائي ألمرية ومالقة، فدعم ذلك دولتهم لهذين الميناءين من أهمية تجارية وبحرية. لكن ابن الأحمر هذا الأمير الجديد واجه العديد من المشكلات الداخلية والخارجية، فمن الداخل واجه مشكلة أصهارة بن أشقيلولة الذين عاونوه في إقامة الدولة ثم انقلبوا عليه، ومشكلة نقص الأموال ليدفع رواتب الموظفين وتكوين جيش قوي يحمي حدود الإمارة.

وعاصر محمد الأول سلطان غرناطة من ملوك أسبانيا النصرانية ملكي قشتالة فرناندو الثالث (٦١٤- ٦٥٠هـ/ ١٢١٧- ١٢٥٢م) ثم ابنه ألفونسو العاشر (٦٥٠- ٦٧٢هـ/ ١٢٥٢- ١٢٧٣م)، وقد هادن محمد الأول قشتالة واعترف بتبعيته لها، وسوف ينتهج أمراء غرناطة سياسة مرنة تتراوح بين المهادنة عند قوة خصومهم، واستعمال القوة إذا أتوا ضعفا من جيرانهم، وعملوا على التفريق بين جيرانهم النصارى وكانوا يتدخلون في شئونهم الداخلية متبعين السياسة نفسها التي يقوم بها خصومهم، فإذا رأوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومتهم استعانوا بإخوانهم المسلمين في شمال إفريقيا. وهكذا كان سلوكهم السياسي فربما من اللجوء للقوة وللعمل الدبلوماسي، فسمح لهم بإقامة توزانات دقيقة بين القوى المحيطة بهم، وربما كان هذا من أكثر العوامل التي حافظت على تاريخ المسلمين في الأندلس.

ولم يكن محمد بن الأحمر في هذه الأوقات أكثر من أمير تابع لملك قشتالة فرناندو، بل كان يدفع له إتاوة سنوية في مقابل حمايته وكان عليه أن يقدم مساعدة في حروب هذا الملك القشتالي حتى ولو كانت ضد

المسلمين في مدن الأندلس الأخرى ، ومن هنا لم يكن عجبا أن تجد بعض قـوات بن الأحمر ضمن حملات قشتالة التي قامت بحصار بعض المدن الإسـلامية حـتى استسلمت ومن ذلك اشتراك قوات ابن الأحمر الحصار الـذي ضربه القشتاليون على إشبيلية عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٨م، والذي انتهى باستسلام هذه المدينة العظيمة وسقوطها في أيدي القشتاليين وضياع عدد كبير من القرى.

وتوفـي محمد الأول بعد أن أخذ البيعة لابنه محمد الثاني الذي حكم مـن (٦٧١- ٧٠١هـ/ ١٢٧٢- ١٣٠٢م) وعرف بالفقيه لانشغاله بالفقه زمـن الصبى وهو الذي رتب رسوم الدولة، ووضع ألقاب خدمتها ونظم الدواوين والخراج، واهتم بالجيش والأدب والعلم، وكان معاصرا لألفونسو العاشـر، والملقب بالحكيم، وقد اهتم بالحياة العلمية في غرناطة اهتماما خاصا.

وفـي عهـده ظهـرت دولـة بني مرين، واستخدمها بنو نصر في التوازنات السياسية فكثيرا ما تحالف بنو نصر مع بني مرين عندما يشتد الضـغط النصـراني كمـا كانوا يتململون، ولا يفضلون هذا التحالف إذا لمحـوا تدخلا في شئون بلادهم الداخلية، فلما اشترط السلطان أبو يوسف يعقـوب أن يـنزل ابـن الأحمر له عن طريف ورندة والجزيرة كشرط لإنجـادهم والتدخل لحمايتهم، نرى عوامل الشك وعدم الثقة تنتاب حكام بني نصر ومع ذلك كانت الظروف السياسية تتطلب أبعاد هذا الشك وكان مـن الطبيعي برسم الجهاد، ويوقعون بالجيش القشتالي هزائم متوالية، أو يتفقون مع سلطان غرناطة على استقرار فرقة عسكرية مغربية، وقائدها قائد مريني يلقب بشيخ الغزاة وعرفت هذه الفرقة المجاهدة بمشيخة الغزاة في الأندلس.

ويـــرث عـــرش غرناطة محمد الثالث المعروف بالمخلوع (٧٠١- ٧٠٨هـ/ ١٣٠٢- ١٣٠٩م) وساءت العلاقة مع بني مرين باستيلاء محمد الثالـــث على سبتة عام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م، وأغار على منطقة بلنسية، فعقد خايمـــي الثانـــي ملك أراجون اتفاقا مع فرناندو الرابع ملك قشتالة يقضي بغـــزو غـــرناطة، فاســـتولى فرناندو على جبل طارق وحاصر الجزيرة الخضـــراء ولم يستول عليها، وأراد محمد الثالث التخلي لهم عن الجزيرة الخضراء ورندة، فثار عليه الغرناطيون وأطاحوا به.

وتولـــى من بعده إسماعيل الأول بن فرج (٧١٣- ٧٢٥هـ/ ١٣١٤- ١٣٢٥م) وكان على عرش قشتالة الملك ألفونسو الحادي عشر الطفل، فقام بالوصاية عليه الأميران خوان وبطره، فأرادا مهاجمة غرناطة، ووصلوا إلـــى مرجها الفسيح، إلا أن الغرناطيين هزموا القشتاليين وقتل الوصيان ســـنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، واســـتولى السلطان النصري على حصن أشكر ومدينة أرنش. واستردت غرناطة كثيرا من أنفاسها.

ويلـــي محمـــد الرابع العرش بعد مقتل والده إسماعيل غيلة (٧٢٥- ٧٣٣هـ/ ١٣٢٥- ١٣٣٣م)، ويهاجم قشتالة، ويستولي على مدينتي: قبره وباغـــة، ولكن فتنة وقعت بين شيخ الغزاة والملك النصري، فيستغل ملك قشتالة ذلك ويستولي على حصن إطابة، ويعود التحالف مع السلطان على بـــن عـــثمان المريني (٧٣١- ٧٥٢هـ/ ١٣٣١- ١٣٥١م) ويستردا جبل طارق من القشتاليين سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م.

ويخلـــف يوســـف الأول أخـــاه بعد مقتله (٧٣٣- ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣- ١٣٥٤م) ويشترك مع السلطان المريني أبي الحسن لاسترداد ثغر طريف، فيشتبكا مع قوات ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر وحموه ملك البرتغال ألفونســـو الـــرابع، ويـــنهزم المسلمون في وقعة طريف في سنة ٧٤١هـ/

١٣٤٠م، واشتركت قوات أوروبية في هذه المعركة، وسقطت بعد المعركة قلعة بني سعيد ومدينة باغة سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م.

ثم حاصروا الجزيرة الخضراء وأخذوها سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٤م وهذه الهـزائم لم تمنع يوسف الأول أن ينشئ المصانع وتحصين البلاد وإقامة الحصـون مثل حصن البيول وجدد حصن جبل فارة بمالقة، وأدار سوراً حـول ربـض البيازين، وأضاف كثيراً من التشييدات إلى قصر الحمراء مـثل: باب الشريعة وبرج قمارش والحمامات السلطانية وقصر متشوكة وبرج الشريعة ومصنع البرطل.

وحدث في عهد السلطان يوسف الأول الوباء العظيم أو الوباء الأسود الذي اجتاح المشرق والمغرب (٧٤٩- ٧٥٠هـ/ ١٣٤٧- ١٣٤٨م) وراح ضـحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الدين والسياسة والأدب، فمـنهم: أبو الحسن من الجياب أستاذ بن الخطيب، ووصف ابن الخطيب ظهور هذا المرض في رسالة أسماها: "مقنعة السائل عن المرض الهائل".

وأنقـذ هـذا الوباء حصار جبل طارق سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، لكن الطـاعون قضـى علـى ملك قشتالة سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م منقذا مملكة غرناطة من كارثة كبيرة.

وخلـف يوسف الأول ولده محمد الغني بالله (٧٥٥- ٧٦٠هـ، ٧٦٣- ٧٩٣هـ/ ١٣٤٥- ١٣٥٩، ١٣٦٢- ١٣٩١م)، وتوطدت العلاقة في عهده بين غرناطة وفاس وأراد السلطان المريني غزو الأندلس والسيطرة على مضيق جبل طارق، وأراد أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أراجون لذلك، لكن السلطان المريني توفى فجأة عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م، فتوقف التحالف، فتحالف السلطان المريني أبو سالم مع قشتالة وغرناطة.

ووثـق محمد الغني بالله التحالف مع ملك قشتالة بطره الأول الملقب بالقاسي، ضد ملك أراجون، واستغل سلطان غرناطة ذلك في سلامة بلاده وتدخـل فـي شئون أسبانيا النصرانية، وهي سياسة طبقها وزيره الكاتب الموسوعي لسان الدين بن الخطيب وحاجبه أبو النعيم رضوان.

وعندما اندلعت الحرب بين قشتالة وأراجون ساعد محمد الغني بالله حلـيفه ملـك قشتالة، وزوده بسفن حربية عبارة عن عشر شواني بجميع بحارتها وأسلحتها.

وقـام انقـلاب على محمد الغني بالله، وتولى أخوه إسماعيل الثاني ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، وفر محمد الغني بالله إلى بني مرين. ثم قتل السلطان إسماعيل الثاني سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م، وتولى بعده قاتله وزوج أخته وابن عمـه أبـو سعيد محمد البرينحو وتحالف مع أراجون ضد قشتالة حليفه محمـد الغنـي بـالله. فتصالح ملك قشتالة مع ملك أراغون ليتفرغ لقتال غـرناطة بمسـاعدة السـلطان المخلوع محمد الغني بالله، وانتهى الأمر باسترداد محمد الغني بالله سلطانه.

ثم نشبت حرب ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م بين بطره الأول وأخيه أنريكي دي تراسـتمارا الـذي يطلب عرش قشتالة، فأرسل محمد الغني بالله حليفه، وأغـارت هـذه القـوات علـى أطريـرة وهاجمت جيان وأبدة وبياسة، وحاصرت قرطبة وكادت أن تسقطها، واستغل محمد الغني بالله الصراع بيـن الأخريـن لمصـلحة بلاده مستوليا على ثغور عديدة بين غرناطة وقرطبة وجيان، واستولى على الجزيرة الخضراء سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م، ودمر حصونها وأسوارها خوفا من سقوطها في يد الأعداء.

وانتهت الحرب بين أنريكي وبطره بمقتل بطره سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م، فعقد السلطان محمد الصلح مع الملك الجديد سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠ م، ولمدة ثمانية أعوام بين غرناطة وفاس وقشتالة وأراجون.

وعمت الفوضى خلال هذه السنوات الدولة المرينية في فاس، فتمكن محمد الغني بالله من التدخل في شئون المغرب وأخذ جبل طارق، وألغى وظيفة شيخ الغزاة، وتمتعت غرناطة بفترة سلم سمحت للسلطان النصري بتشييد القسم الأكبر من قصر الحمراء، واهتم بالأمور الثقافية، وقامت العلاقات بين غرناطة وغيرها من البلدان الإسلامية.

وبعد عصر محمد الغني بالله آخر عصور قوة مملكة غرناطة، وكان الأمراء بعده ضعافا، لم يعرفوا تطبيق سياسته التي رواجت بين العمل الدبلوماسي واستعمال القوة عن الضرورة.

وإن كانت الأمور لم تتغير خلال الفترة من (٧٩٣- ٨٢٠هـ/ ١٣٩١ - ١٤١٧م) وحكم فيها ثلاثة سلاطين هم: يوسف الثاني، ومحمد السابع ويوسف الثالث، ولأن معاصريهم من ملوك قشتالة كانوا ضعافا، واشتغلوا بحروبهم الداخلية. ولم يحدث في هذه الفترة إلا استيلاء القشتاليين على مدينة أنتقيرة سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م، وكان من أحصن معاقل غرناطة.

وتوجهت حملة قشتالية بقيادة الوزير ألبارودي لونا إلى ضواحي غرناطة، ووقعت معركة الشجرة، وانتصر فيها القشتاليون.

وقد بلغ اضطراب الأوضاع الداخلية في غرناطة أن تعاقب على عرشها خلال القرن التاسع الهجري (١٥م) اثنا عشر سلطانا، ونتيجة للثورات المتكررة والانقلابات السياسية شهدت غرناطة اعتلاء هؤلاء السلاطين عشرين مرة بسبب عودة بعضهم إلى العرش أكثر من مرة مثل محمد التاسع الذي عاد للحكم أربع مرات.

وأصـــاب غـــرناطة من جراء ذلك أن استولى القشتاليون على جبل طـــارق في عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م، فقطع خط الوصل بين الأندلس وسائر الشمال الأفريقي، وتزامن ذلك مع ضعف بني مرين وبني عبد الواحد في تلمسان والحفصيين في تونس، وبعث الغرناطيون رسالة إلى المماليك في مصـــر. ولكـــن مصر لم تكن أحسن حالا من غيرها. أما قوة العثمانيين فكانت مشغولة بفتوحاتهم لبلاد المسلمين في الشرق.

وفـــي هـــذا الوقت مرت أسبانيا النصرانية بنهضة سياسية وحربية بزواج الملك فرناندو الثالث ملك أراجون بيسابيل ملكة قشتالة عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، وهذا يعني اتحاد المملكتين، مما يؤثر سلبا على غرناطة التي اعـــتادت استغلال الخلاف بين المملكتين، وبدأ هذان الملكان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس.

وفي هذه الأثناء يشتد الصراع بين أبي الحسن وأخيه محمد الزغل، فيطلـــب أبـــو الحســـن مـــن ملكي قشتالة وأراجون عقد الهدنة، ولكنهما يشـــترطان اعترافه بتبعيته لقشتالة، ودفع إتاوة كبيرة، فرفض ذلك، فتقع الحـــروب بيـــن الدولتين، ففي ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م يستولي القشتاليون على الحامة ثم على لوشة فيثور الغرناطيون على أبي الحسن، وولوا مكانه ابنه محمـــداً، واستطاع أبو الحسن وأخوه محمد صد هجوم قشتالي على مالقة وأحرزا انتصارا في معركة الشرقية سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.

وأراد الســـلطان محمد القيام بحملة على منطقة قرطبة، ولكنه هزم عـــند اليســـانة وأســـره الملك فرناندو ملك قشتالة، وأطلق الملك سراحه ونصـــبه أميرا على وادي آش. وفي عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م احتل أبو عبد الله أطرية، ثم توفى أبو الحسن علي ونودي بأخيه الزغل. وانتهز الأسبان فرصة الفتنة بين الزغل وابن أخيه، واستولوا على بعض المدن مثل رندة

ولوشة ومالقة ووجد الزعماء المسلمون أنه من الأفضل اقتسام ما بقى من غــرناطة بين العم وابن أخيه، وبعث الأسبان إلى الزغل يعرضون عليه وعلى قادته مالا كثيراً مقابل تسليم ما تحت يده من أراض، فوافقهم ورحل إلـــى فاس، فقام السلطان محمد الشيخ بوضعه في السجن وصادر أملاكه وسمل عينيه فأصبح أبو عبد الله محمد وحيداً في الميدان.

وفـــي سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م استولى ملك قشتالة على لوشة ومقلين ومنـــتفريد وقلمـــيرة، وأســـر أبا عبد الله من جديد، وفي ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م حاصـــر مالقة التي قاومت ببسالة منقطعة النظير، وفي ٨٩٥هـ استسلمت بسطة، وخلال سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م شدد الملكان الأسبانيان الحصار على غرناطة، فبنوا مدينة شنتفي لتكون قاعدة للعمليات العسكرية وتفاوض أبو عبد الله على تسليم غرناطة.

وكانت الشروط المتفق عليها للتسليم متساهلة مع أهل غرناطة وفي لـــيلة ٢٩ صـــفر ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م احتلـــت القـــوات الأسبانية غرناطة، واشـــتملت معـــاهدة التسليم على ضمانات كثيرة بتأمين أهل غرناطة في أنفسهم وأموالهم وحقوقهم المادية واحترام شعائرهم لكنها لم ينفذ منها شئ ونقــض ملــوك أســبانيا شروط هذه المعاهدة مع مرور الأيام، وتحول المسلمون في غرناطة إلى مجتمع محاصر ولم يكن أمامه من خيار سوى الهجــرة بديــنه أن أمكـــنه أو اعتـــناق ديانة الفاتحين وليس دون هاتين الوجهتين سوى الموت، وعرف هؤلاء في التاريخ باسم الموريسكيين.

~~الموريسكيين~~ الموريسكيون

اشتملت معاهدة تسليم غرناطة على ضمانات كثيرة لتأمين المسلمين في حـــياتهم وأموالهم وعقائدهم، إلا أن قدوم الكاردينال فرانسيسكو خيمنيث دي ثيسيزوس إلى غرناطة ١٤٩٩م نقض هذه الضمانات، فكان قساً متعصبا يرى

إرغام المسلمين على اعتناق النصرانية، فاندلعت الثورات في حي البيازرين وفي منطقة التشرات.

وأطلق على المسلمين في الفترة الأولى اسم المدجنين أي الخاضعين، وكـانوا أكثر أهل الصناعات والحرف. ثم أطلق عليهم اسم الموريسكيين وهو تصغير للتحقير لفظا (Moso) أي المسلم. وكان هناك ديوان عرف بديوان التفتيش أنشئ منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ويتبع الكنسية الكاثوليكية، ومهمته تعقب المارقين – في نظر الكنيسة – وتوقيع العقوبات علـيهم ومـنها الإعدام والسجن والمصادر، وإحراق الكتب مثل التلمود وفلسفة أرسطو. وأنشئت أول محكمة تفتيش في إشبيلية ١٤٨٠م، ثم قامت دواويـن التفتـيش لمحاولات التنصير القهري لليهود والمسلمين، وحول جمـيع المسـاجد إلى كنائس وجمع الكاردينال خيمنيث دي ثيمسنيروس الكتب العربية وأحرقها في ميدان باب الرملة وقيل إنها بلغت ١٠٠,٠٠٠ مجلـد.

واسـتمرت الضـغوط لتنصيل المسلمين، فمنع المسلمون من حمل السـلاح واستعماله وإقامة الحفلات وتدمير الحمامات العربية. فلم يحتمل المسـلمون ذلـك، فأعدوا للثورة وتزعمها أحد أفراد البيت الأموي سنة ١٥٦٨م وشملت الثورة مناطق تجمع المسلمين، إلا أن الثورة أخمدت بقوة واستشهد قائدها عبد الله محمد الأموي سنة ١٥٧١م، ثم صدر قرار بنفي الموريسـكيين وتفـريقهم ومصادرة أملاكهم، وتعرض المسلمون لإبادة جماعية في كثير من الأماكن.

وفي سنة ١٦١٩م بحثت مشكلة الموريسكيين فصدر قرار بنفيهم من أسبانيا، فظلت السفن شهوراً وأعواماً تحمل المسلمين إلى الشمال الإفريقي ومصر ومختلف بلدان العالم الإسلامي، وقيل إن عدد هؤلاء الموريسكيين كان ينيف على الستمائة ألف من بقايا المسلمين.

ولـــم يكن طرد بقايا المسلمين من أسبانيا إلى نذير بمشكلات ضخمة اقتصـــادية، فـــرغم أن أســـبانيا اكتشفت القارة الأمريكية وما تضمه من ثـــروات طائلـــة، وبسطت سلطانها على نصف أوروبا، وبعض السواحل الإفريقية والفلبيين، رغم ذلك فإن المسلمين كانوا عماد الاقتصاد الأسباني لأنهـــم أهـــل الحرف والصناعات والتجارة والفنون، فخسر الأسبان بذلك اجتماعـــياً واقتصـــادياً، كانـــت من أهم أسباب عدم استفادة الأسبان من توسعهم وكونهم قوى عالمية في وقتها.

وهكذا خلت أسبانيا تماماً من المسلمين ولم يتبق بها من بقايا هؤلاء إلا آثـــارهم التـــي تدل عليهم، والتي بقيت شاهدة على حضارة إسلامية عظيمة قامت في هذه البلاد وستظل بها إلى أمد الدهر.

المجتمع الأندلسى قبل الفتح الاسلامى :

تكون المجتمع فى اسبانيا عشية الفتح الاسلامى من مجموعة من العناصر العرقية والدينية وهى بأختصار على النحو التالى :

الأحرار : وتكونت هذه الطبقة من الحكام القوط ، وكبار ملاك الأراضى ، وكانت لهم المناصب الرئيسة فى الدولة والمراكز الرفيعة فى البلاط الملكى وإلى جانب هؤلاء كانت بقايا الأرستقراطية الأسبانية القديمة من أعضاء مجالس الشيوخ ومجالس المدن ، وأصحاب الأموال ، أما صغار الملاك ، والأحرار العاديون فلقد شكلوا طبقة أقل داخل إطار الأحرار ، وكان عليهم الكثير من الالتزامات دون التمتع بباقى المزايا التى كانت لكبار النبلاء والإقطاعيين.

واشتملت هذه الطبقة أيضا على رجال الدين ، الذين كان لهم مكانة عالية فى المجتمع الأسبانى ، مكنتهم أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والإجتماعية وفقا لمثل الكنيسة وغاياتها ، ثم استغلوا هذا النفوذ فى احراز الضياع ، وتكديس الثروات ، واقتناء المزارع والأرقاء ، وتمتع هؤلاء أيضا بنفوذ سياسى كبير نتيجة اشتراكهم فى انتخاب الملك ، كذلك كانت ممتلكاتهم العقارية معفاة من الضرائب مثلهم فى ذلك مثل النبلاء تماما .

كما اشتملت طبقة الأحرار ، على طبقة متوسطة من الناس ضمت التجار ومتوسطى ملاك الأراضى ، ورجال الكهنوت من المسنونين عن المدن الصغرى . وهى مجموعة تعرضت لضغوط كثيرة من قبل النبلاء وأصحاب الاقطاع ، كما انحدرت أوضاعها المعيشية كثيراً وتردت إلى ظروف غير مناسبة .

طبقة الموالى والعبيد :

كان الموالى أساسا من طبقة الأحرار ، ولكنهم لسوء الأوضاع الاقتصادية وتدهور الأوضاع الأمنية ، اضطروا إلى بيع أملاكهم ، والانتماء إلى بعض كبار النبلاء طلبا لحمايتهم وعونهم ، كما انتسب إلى الموالى أبناء الطبقات التى لا تتمتع بحريتها كاملة وجاء بعدهم العبيد الذين شكلوا على مر العصور القطيع الانسانى للسادة النبلاء وكبار الإقطاعيين ، وطبقة الأحرار عامة ، وعمل هؤلاء بالخدمة فى المزارع والمنازل ، وفى ظل النظام الإسبانى حرم هؤلاء من الحركة خارج

مزارعهم ، وطوردوا فى كل مكان ، حتى سنت القوانين بعقاب كل أهل قرية لا يتمكنون من القبض على عبد هارب ، وارتبطت حياتهم بظروف سادتهم الاقتصادية ، وكانت أعدادهم كثيرة جدا ، وشكلوا قاعدة انسانية عريضة لكنها مهضومة الجانب تباع وتشترى مع الأرض ، ويملك السادة عليها كل الحقوق بما فيها حق قتلهم أو إيذائهم فى أبدانهم .

طبقة اليهود : شكل اليهود طبقة كبيرة العدد جداً فى المجتمع الاسبانى فى عصر القوط لكنها كانت طبقة مكروهة من الحكام والنبلاء ، وعامة الشعب أيضا ، وذلك للطباع السيئة التى حيل عليها اليهود وقامهم بإستغلال كل الظروف لصالحهم وحيث أنهم بطبيعتهم يحيلون إلى العمل بالمتاجرة بالأموال ، واكل الربا ، فقد كثرت فى يدهم الثروات ، وصاروا مطمحا للسادة النبلاء ، يصيبون عليهم جام غضبهم ، ويستولون على ما لديهم من ثروات .

وحينما اشتد نفوذ الكنيسة فى اسبانيا ، وجهت جهودها لتنصير اليهود فى هذا البلد ، واستخدمت فى ذلك كل وسائل القهر والشدة ، ومن ثم صار اضطهاد اليهود سياسة ثابته لكل طبقات الشعب الاسبانى ، حكامه ومحكوميه .

وفى عصر الملك سيزيوت فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة ، فأضطر كثير من اليهود الى التنصر كرها ورياء سنه ٦١٦م ، ثم توالت عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر ، وتدمير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود الغرب على المؤازرة والتعاون لكن المؤامرة اكتشفت قبل اكمالها فى سنة ٦٩٤م ، مما دفع الحكومة والكنيسة إلى المغالاة فى القوة والعنف مع اليهود حتى أن مجمع طليطلة الذى عقد فى عام ٦٩٤م قد خصص جلساته لفرض العقوبات على اليهود ، وقد أصدر المراسيم القاسية التى تنص على نزع املاك اليهود ومصادرتها ، وعلى فصل أبناءهم عنهم وتعميدهم قسرا مما زاد من الهوة التى تباعد بين اليهود والدولة القوطية فى اسبانيا ، وإذا كان الدكتور حسين مؤنس – رحمه الله – ينفى وجود دليل الصلات على بين يهود اسبانيا ويهود المغرب ، إلا أنه يؤكد أنهم لا قوا عسفا بالغا متصلا ، وأن الفتح العربى لو لم يكن قد ادركهم ، وأبقى على من أبقى عليه من ظلم القوط منهم ، لما بقى لهم فى شبه الجزيرة أثر ولعل هذا يفسر لنا الترحيب الكبير ، والتعاون الفعال الذى قدمه اليهود إلى المسلمين عند قيامهم بفتح الاندلس .

فى رمضان من عام ٩٢هـ الموافقة لعام ٧١١م كان انتصار المسلمين الحاسم فى معركة وادى لكة بقيادة طارق بن زياد ثم تقدم المسلمين لفتح قرطبة ، والاستيلاء على العاصمة طليطلة ثم وادى الحجارة .

وفى عام ٩٣هـ عبر موسى بن نصير إلى الاندلس ، واتجه إلى مدائن الغرب ففتح أشبيلية ثم ماردة ومنها إلى طليطلة حيث قابل طارق بن زياد هناك ، واتجه الاثنان معا لفتح الشمال الشرقى من شبة جزيرة ايبريا ، ومن هناك توجها معا لافتتاح أقاليم الشمال والشمال الغربى ، وهناك أدركهما رسول من الخليفة الوليد بن عبد الملك وأمرهما بالعودة إلى دمشق لمقابلة الخليفة والمثول أمامه.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الاسلام ينشر ظلاله على بلاد الأندلس ، وبدأ أهل هذه البلاد فى الدخول فى الاسلام بطبقاتهم المختلفة سواء من النبلاء أو العامة ، وخاصة من العامة والعبيد الذين وجدوا فى الاسلام طريقا لتخلصهم مما كانوا فيه .

ورغم امتداد عمر الاسلام لبلاد الأندلس إلى ما ينيف على ثمانية قرون كاملة ونتيجة لسياسة الاسلام السمحة ، والتى لا تفرض الدين بالقوة والإجبار ، فقد بقيت جموع كبيرة من سكان البلاد الأصليين على دينهم القديم سواء من النصارى أو من اليهود ، وقد أطلق المسلمون عل النصارى منهم عددا من الاسماء منها : العجم ، أهل الذمة ، والذميون ، ونصارى الذمة ، والمعاهدون ، والروم ، والنصارى ، واليهود والمعاهدة من النصارى ، والنصارى المعاهدون ، والمستعربون ، والمستعرب وغير ذلك من الاسماء . أما اليهود فلم نعرف انه أطلق عليهم أسماء اخرى غير اسمهم الذى عرفوا به فى التاريخ ، وبين أمم الأرض كافة اليهود حتى الأماكن التى يقيمون فيها فقد عرف فى اللغة الاسبانية باسم Judelia ، وما زالت تعرف به إلى اليوم .

بدأ عصر الولاة فى الاندلس بداية طيبة بالنسبة للنصارى واليهود ، ولا شك أن اليهود كانوا يتمتعوا بمكانة أفضل ومعاملة خاصة ، تمثلت فى اعتماد المسلمين عليهم ، والاستعانة بهم ضمن قواتهم التى بقيت فى المدن المفتوحة ، بل سمحوا لهم بالاقامة معهم داخل قصبات هذه المدن . فهذا موسى بن نصير – رحمه الله – عندما فتح أشبيلية ، ضم يهودها إلى القصبة ، وخلف بها رجالا كما منحوهم حرية التنقل فى انحاء البلاد والتجارة بها ، وألحقوهم بالوظائف العامة وأعادوا لهم أراضيهم وأملاكهم التى صادرتها حكومات القوط ، وأعادوا لهم بناءهم الذين سبق للكنيسة حرمانهم

منهم ، والتى عمدت إلى انتزاعهم من آبائهم وتربيتهم تربية مسيحية بناء على قرارات المجامع الدينية التى عقدت فى طليطلة وخاصة مجامع الثالث والرابع والسابع عشر . كما سمح المسلمون لليهود باعادة بناء معابدهم واقامة شعائرهم الدينية ومنحوهم إلى جانب حق التقاضى فيما بينهم وخاصة فى قضاياهم المرتبطة بالحياة الاجتماعية ، وفى بعض الحالات الخاصة كان يفصل بينهم قاض مسلم إذا كان الخلاف بين يهودى من جهة ومسلم من جهة أخرى .

ونتيجة لهذه السياسة زاد عدد اليهود فى الأندلس زيادات كبيرة ، وهاجر إليهم كثير من يهود أوربا ، وتركز وجودهم فى المدن الرئيسية بالأندلس بل وصل الحال إلى وجودهم فى تجمعات خاصة بهم فى منطقة البيرة واليسانة Lucena من مدن جنوب الاندلس والتى يقول الإدريسى عنها أن سكانها كانوا من اليهود فقط ولا يداخلهم فيها مسلم .

أما بالنسبة للنصارى فقد منحهم المسلمون عهدهم وذمتهم ، وعاملوهم معاملة حسنة فتزوجوا منهم ، وصاهروهم ، وبدأ ذلك بأمير الأندلس الأول ، عبد العزيز بن موسى بن نصير حيث تزوج من أرملة الملك القوطى والمعروفه باسم أم عاصم ، وقلدة فى ذلك كثير من الأمراء والجند ، وبدأت حركة الأمتزاج بين العنصرين منذ زمن باكر جدا ، حتى يرى المؤرخون ان الدم العربى سرعان ما بدأ يتلاشى فى هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الإمارة الأموية عربيا صريحا إلا فى النادر .

احتفظ النصارى بعد الفتح بكنائسهم ومعابدهم ، ولم تهدم أو تغتصب ، وفى قصة كنيسة القديس بجنت ، وهى الكنيسة الجامعة لمدينة قرطبة أحسن المثل على حسن معاملة المسلمين للنصارى ، ففى بداية الفتح الاسلامى للمدينة لم يمس المسلمون هذه الكنيسة ، وبنى المسلمون لهم مساجد صغيرة ، فلما نقلوا مركز الدولة إلى قرطبة وكثر المسلمون بها وبأرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة ، واحتاجوا إلى مسجد جامع ، فقاسموا النصارى كنيستهم الكبرى كما فعلوا قبل ذلك فى دمشق والرها يقول بن عذارى " فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة فى كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون فى ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقى الشطر الثانى بأيدى الروم ، وهدمت عليهم سائر الكنائس " . ويبدو أن ابن عذارى قد وهم فى عبارته الأخيرة حيث أنه من غير المعقول أن يشاطر المسلمون العجم فى كنيستهم ثم يهدمون غيرها م الكنائس ولأنه كان من الأولى الاستيلاء على الكنيسة بكاملها ، وتعترف الرواية النصرانية نفسها بأن الراهبين الأخوين

فوتو Voto وفيلكس Felix أنشآ فى عصر الوالى الأندلسى عقبة بن الحجاج السلولى دير سان خوان دى لابينيا San Juan de La Pen ، ويورد د.مؤنس نقلا عن سيمونيت ، بأن أهل طليطلة بعد فتحها احتفظوا بمعظم كنائسهم ، وبرجال دينهم ، وأن البلد ظل عامراً بالكنائس الكبيرة ، وأعظمها كنيسة " جميع القديسين " Omnium sanctorm وأن الاديرة التى فى أرباض البلد قد ظلت قائمة لم يمسسها المسلمون بأذى كبير ويذكر سيمونيت نفسه - رغم تعصبه وتحامله على المسلمين - اسماء أكثر من ثلاثين كاتدرائية ، وقاعدة كنسية فى انحاء اسبانيا تحت الحكم الاسلامى كما يذكر قيام النصارى ببناء كاتدرائيات جديدة منها كنيسة بطليوس الكبرى ، رغم أن مدينة بطليوس مدينة اسلامية جديدة أسسها المسلمون ، وسمحوا للنصارى من أهل الذمة ببناء كنيستهم داخلها ، ويضيف سيمونيت أنه من الأهمية بمكان الاشارة إلى التعديلات التى أدخلت على القواعد الكنسية بعد استيلاء المسلمين ، فقد أسس النصارى كثيرا من القواعد الكنسية الكبرى لم يكن لها وجود فى العصر القوطى منها على سبيل المثال أمايا Amaya وزامورا Zamora وغيرهما .

نعم ، لقد تمتع هؤلاء على عهد عبد الرحمن الداخل وأبنائه من بعده بحرية العقيدة والتسامح التام ، وأبقيت لهم كنائسهم وأديرتهم ، بل منحهم هؤلاء حق بناء كنائس جديدة .

أما من ناحية الارض والعقار فقد بدأ المسلمون مع أهل الذمة بدايات طيبة حيث تركوا لهم أملاكهم وديارهم ، وفى أسوأ الأحوال تركوا لهم الأرض يزرعونها ويدفعون عنها خراجها والمثال الرائع لمعاملة المسلمين لأهل الذمة يتمثل فى موقف المسلمين من أبناء الملك غيطشة الذين عاهدهم طارق بن زياد على أن يترك لهم أملاك أبيهم ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة ، سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، وكتب لهم بذلك إلى موسى بن نصير ، فأقرهم مع عهد طارق وأوفدهم إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى وافق على ما شرطه طارق ، وعقد لكل واحد منهم سجلا وعاد هؤلاء من لقاء الخليفة إلى الاندلس ، وحازوا ضياع والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقه منهم ، فصار منها لكبيرهم ألموند ألف ضيعة ، وهو تلوه فى السن ، وضياعه فى موسطة الأندلس ، فسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة فى شرق الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها طيطلة ، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية إلى أن ملك " ألمند " كبيرهم ، وخلف أبنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده عمهم أرطباش على ضياعهم وضمها إلى ضياعه ، وذلك فى خلافة هشام بن عبد الملك ، فذهبت سارة بأخويها إلى الشام ، وتمكنت من مقابلة الخليفة ، والشكوى إليه من ظلم عمها ، احتجت بالعهد المنعقد لها لأبيها وأخوته من الخليفة الوليد

بن عبد الملك ، فأنصفها هشام بن عبد الملك ، وكتب إلى عاملة بأفريقية حنظلة بن صفوان يأمره بأنصافها ، وكتب هذا إلى أن عمه أبي الخطار بأن يأخذ لها حقها وأخويها من عمهم أرطباس ، وإمضائهم على سنة الميراث فيما كان في يد والدها مما قاسم فيه اخوته ، وتزوجت سارة من عيسى بن مزاحم ، وعاشت في الأندلس متمتعة ، حيث كان لها ولأبيها المند ، وعمها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس صغابا ملوكية .

وتتجلى لنا مواقف أخرى في عصر الولاية في الأندلس ، يتضح منها أنه رغم رنة الفرح بالانتصار والسيطرة للمسلمين إلا أننا نجد من أهل الذمة شخصيات قوية تعيش وسط المجتمع الاسلامي ، وتتمتع بالسيطرة والنفوذ ، فحين حاول أبو الخطار ، وإلى الأندلس ، انزال بعض الجند الشاميين في نواحي تدمير ، وهي التي كانت تتمتع بصلح خاص عقده صاحبها تدمير مع عبد العزيز بن موسى بن نصير ، حتى اعترض أمير المنطقة النصراني ، وهو أتاناخيلدو والي تدمير [redacted] ، وطالب أبا الخطار بالالتزام بنصوص المعاهدة المذكورة وغضب الأمير الأندلسي ، وأراد عقاب " أتاناخيلدو " وفرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسبه وأهانه ، فمضى أتاناخيلدو تتحبب إلى جند مصر من الشاميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبهم باحسانه ، فتوسطوا له عند أبي الخطار ، ومازالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره ، واحترام حقوقه ، ويبين لنا ذلك صورة من علائق الود والصداقة بدأت تتأصل بين العرب النازلين في الأرياف وأهلها من نصارى الإسبان .

نتوقف أمام شخصية أخرى من أهل الذمة لم تتمتع بالثروة والجاه فحسب ، بل تلعب دورا سياسيا بارزا يساعد على التخفيف من الحروب القبلية العصبية التي سادت الأندلس في تلك الفترة الباكرة ، ونقصد بذلك شخصية أرطباش بن غيطشه [redacted] ، مما يبين لنا أن الحكم الاسلامي لم يعمل على اجتثاث الاقطاع القوطي من جذوره ، ولا على تجميد فعل مؤسساته الدينية والإدارية تمشيا مع توصيات الفقه الاسلامي فيما يخص وضعية أهل الذمة في المجتمعات الاسلامية .

تقدم لنا المصادر الاسلامية أرطباش باعتباره شخصية كيسة مهذبة ، يعرف للرجال أقدارهم ، ويحترم لهم مكانتهم سواء الدينية منها أو الاجتماعية ، فحينما احتدمت الحرب بين العرب الشامية والعرب البلدية حتى وصلت إلى حد مهين لم ينقذ الناس منها إلا وصول أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي الذي ورد من قبل بن عمه حنظلة من صفوان الكلبي ، وقد بدأ أبو الخطار بداية

طيبة . واستشار أرطباش شيخ أهل الذمة في الأندلس ، فيما يصنعه ، فأشار عليه الرجل بتفريق العرب الشاميين في النواحي ، لان بقاءهم في قرطبة ، وتجمعهم مع بعضهم البعض يشكل خطرا على الجميع ، واستمع أبو الخطار إلى نصيحة النصراني أرطباش ، وو زع عرب الشام على الكور التي لا يسكنها كثير من العرب البلدية ، وأنزلهم في النواحي مع أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث خراج مناطقهم وللدولة الباقي دون أن يضر بأهل البلاد الأصليين من النصارى .

كما تروى لنا نفس المصادر الاسلامية موقفا آخر لأرطباش يتعالى فيه على الزعماء العرب ، وعلى رأسهم شيخ القيسية في الأندلس الصميل بن حاتم بن ذى الجوشن والأكثر من ذلك أنه ينبهم إلى بعض الأصول والقواعد التي يصح بها دين الاسلام المسلمين ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك الا من رجل يحترمه الناس ، ويخشونه حتى يقبل زعماء العرب منه التوبيخ والتبكيت فقد أورد بن القوطية ، ونقل عنه المقرى عن الشيخ بن لبابة رحمة الله ، عمن أدركه من الشيوخ أن أرطباش ، وكان من عقلاء الرجال في أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة من الشاميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد ، وأبو عبدة ويوسف بن بخت ، والصميل بن حاتم ، فسلموا ، وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه .

فلما اخذوا مقاعدهم ، وحيا بعضهم بعضا ، دخل ميمون العابد ، جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشاميين ، فلما رآه أرطباش داخلا قام إليه والتزمه ، وجعل يقوده إلى كرسيه الذى قام منه وكان مصمدا بالذهب والفضة ، وأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لي هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك إلى مثلى ؟ فقال ميمون : قدمنا إلى هذا البلد وظننا أن مثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما نتوهم به أنا لا نعود إلى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعه من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأؤدى إليك الحق منها وآخذ الحق ، فقال له أرطباش : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعه مناصفة ! ودعا بوكيل له فقال له : ادفع إليه المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد ، وأدفع إليه القلعة بجيان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها (ميمون) فشكر وقام ، وعاد أرطباش إلى مقعده ، فقال له الصميل : يا أرطباش ! ما يعجزك من سلطان أبيك إلا نفاذ الطيبة ! أأدخل عليك وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوال ، فتصير من ا كرامه إلى حيث صرت !؟ فقال له أرطباش : يا أبا الجوشن ! أهل ديانتك

يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذكّ لم تنكر عليّ بر من بررت ! ، وكان الصميل أميا لا يقرأ ولا يكتب : انكم أكرمكم الله ، وانتم أنما تكرمونه عز وجل إذا أكرمتم الصالحين . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم الله من عباده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكأنما ألقمه حجرا . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يرضيكم إلا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صار منها لكل منهم عشر ضياع .

وتعطينا هذه الرواية صورة واضحة على ما تمتع به كثير من نصارى الأندلس على عهد ولاة المسلمين الأوائل ، وأنهم ظلوا يتمتعون بهذه المكانة طوال عهدهم بالأندلس .

أما من ناحية ما فرض على أهل الذمة من ضرائب وأموال فقد كانت السياسة الاسلامية فى الأندلس مثلا أعلى للتسامح ، فلم يظلم أحد أو يؤذى بسبب دينه أو معتقداته ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على أهل الذمة من النصارى واليهود لقاء الاحتفاظ بدينهم ، وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل منهم الاسلام سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات ، وقد دفع اليهود الجزية ، وكان مقدارها ضئيلا يتدرج حسب منزلة المطالبين بها ، وتبدأ من أثنى عشر درهما إلى ثمانية وأربعين ، وقد قسمت أثنى عشر قسطا يجبى قسط منها كل شهر .

أما ضريبة الأراضى فقد كانت تتفاوت حسب جودة الأرض ، وقد فرضت على اليهود كما فرضت على النصارى ، وكان على المسلمين الزكاة ، وعلى اساس قاعدة من المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، ولم تمتد يد المسلمين إلى أملاك اليهود أو غيرهم ، والتى كانت لهم قبل الفتح الاسلامى .

تلك كانت الوضعية التى تمتع بها أهل الذمة خلال الفترة الأولى من حكم المسلمين للأندلس ، وبدايات وجودهم فى تلك البلاد ، ولقد تطورت حياة أهل الذمة مع فترات التاريخ الاسلامى التالية تطوراً رائعاً ، حتى كان منهم السفراء والأطباء والوزراء ، والادباء والكتاب والعلماء ، ولننتقل باختصار إلى دراسة وضعية أهل الذمة فى العصور التاريخية المتتالية للوجود الاسلامى على أرض الأندلس .

أهل الذمة على عهد بنى أمية فى الأندلس

كان بنو أمية على علاقة طيبة بأهل الذمة منذ نشأة دولتهم ببلاد الشام ومنذ المؤسس الأول للدولة خليفة المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما فقد استعان بالأكفاء من أهل الذمة فى تنظيم الدواوين وترتيبها ، وعهد إليهم بكثير من مهام الدولة ، فكان سرجون بن منصور الرومى كاتبه وصاحب أمره ، كما كان له طبيب يهودى يعرف بابن آثال .

لم يغير عبد الرحمن الداخل شيئا من أوضاع أهل الذمة فى الأندلس ، فقد واصل أرطباش تمتعه بهيئة الأمراء ، فكان يجلس على كرسى مصمد بالذهب والفضة ويضرب لنفسه قبة عظيمة إذا خرج مع الأمير ، وكان يحمل معه من الهدايا الكثير بحيث كان يهدى منها إلى الأمير فى كل محله من ضياعه ، حتى نفس عليه عبد الرحمن كثرة غناه لكننا لم نسمع عن مصادرة للأملاك أو الضياع وغيرها بل أن الأمير صالح أرطباش وولاة القماسة ، فكان أول قومسى للنصارى فى قرطبة ومن أبرز الأمثلة على العلاقة الطيبة بين عبد الرحمن الداخل ونصارى قرطبة موقف هذا الأمير عند شروعه فى بناء المسجد الجامع للمدينة والذى أصبح ضرورة ملحة فى ذلك الوقت .

فتح المسلمون مدينة قرطبة عام ٩٢هـ ، وشاطروا أهلها فى كنيستهم الكبرى واستعملوا نصف الكنيسة مسجدا ، وبقى النصف الآخر فى أيدى النصارى أكثر من ٧٦ عاما كاملة لم يضايقهم المسلمون خلالها ، بل ظلوا يصلون فى نصف الكنيسة والنصارى يقيمون شعائرهم فى النصف الآخر ، فلما ضاقت قرطبة بالمسلمين وكان لابد لها من مسجد جامع كبير لم يقم عبد الرحمن الداخل بمصادرة النصف الآخر من الكنيسة ، أو هدمه بالقوة ، بل اشتراه منهم بالمال عن رضى واتفاق ، ينقل المقرى عن الرازى أنه لما فتح المسلمون الأندلس ، امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم بالشام من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها شنت بجنت San Vincent von ، وابتنوا بهذا الشطر مسجدا جامعا ، وبقى الشطر الثانى فى أيدى النصارى ، وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما فى أيديهم إلى أن كثروا ، وتزايدت عمارة قرطبه ، ونزلها أمراء العرب ، وضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة يعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس يتأنون فى الوصول إلى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها ، وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض ، ولم يزل المسجد على

هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المراونى إلى الاندلس ، واستولى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، فتحدث به ، فنظر فى امر الجامع ، وذهب إلى توسعته واتقان بنيانه ، فأحضر أعاظم النصارى ، وسامهم بيع ما بقى بأيدهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه ، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباح لهم بناء كنائسهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا المسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير الزيادة فيه ، وانما الحاجة فى وصفه بكمالة وفى بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوى من قصيدة :

وانفـــق فى دين الاله ووجهـــه	ثمانين ألفا من لجين وعسجد
توزيعها فى مسجد أســـه التقوى	ومنهجـــه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه	بلوح كبرق العارض المتـوقد

وعمل أمراء الأندلس على حماية رعاياهم من النصارى مما قد يقع عليهم من ظلم حتى من قوامسهم ، فقد كان قومسى النصارى على عهد الحكم الأول يدعى ربيع بن تدلف ~~Teodulfo~~ ، وكان أثيرا لديه ، وممن وقف إلى جانبه فى هيج الربض ، لكنه كان ظالما لأبناء ملقه ، فسلب أموالهم وكثرت الشكاوى ضده حتى قام الأمير بقتله فى آخر سنوات حكمه ، وأتت وفود كثيرة من النصارى إلى قرطبة مطالبة عبد الرحمن الأوسط برد الأموال التى سلبها ربيع القومس .

وفى بداية عهد الأمير عبد الله كان قومس قرطبة يدعى حجاج أو حسان ولقد هرب ولده شربند Servando إلى عمر بن حفصون ، وشن الغارات على العاصمة حتى ظفرت به خيل المسلمين ، واحتزت رأسه ، وأمر الأمير عبد الله بصلب أبيه القومس ، وتلاه فى القماسة حزمير Hazemiro الذى علا نجمه عند الأمير حتى أنه صرفه عن تولية قاض بعينه ، وولى آخر بدلا منه ، على أنه تورط بدوره فى فتنه إبن حفصون ، وحبس ، وظل فى حبسه إلى أن توفى ٢٩٣هـ / ٩٠٦م.

ومن الطبيعى أن تشوب العلاقات بين الجماعتين الاسلامية والمسيحية الشوائب ، أو أن يمر الجانبان بفترات توتر واضطراب ، لكن المؤكد أن ذلك لم يكن سياسة رسمية للعالم الاسلامى عامة والأندلسى خاصة على الرغم من تصرفات بعض الحكام أو العمال أو الجماعات .

ومن تلك الفترات المضطربة التى مرت بها الجماعات النصرانية فى قرطبة ما حدث على عهد الامير عبد الرحمن الأوسط وهى الفتنة التى يمكن أن نطلق عليها أسم حركة المتمردين متعصبى النصارى فى قرطبة ، ويسميها بعض غلاه النصرانية حركة الاستشهاد بين المستعربين فى قرطبة .

لقد كان واضحا تغلغل حركة الاسعراب بين النصارى واهتمامهم بدراسة اللغة العربية وآدابها حتى اشتكى من ذلك القس الفارو القرطبى فى كتابه Indiculus Luminosus قائلا : إن إخوانه النصارى مولعون بشعر العرب وقصصهم ويعكفون على اعمال الفقهاء والفلاسفة المسلمين ليس لرفض ما ورد فيها ، ولكنه ليكتسبوا اسلوبا عربيا صحيحا وانيقاً وانك لن تجد اليوم أحداً من غير رجال الدين يستطيع أن يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة .

ان الشباب النصرانى ليست لديه فكرة عن أدب ولغة حاشا العربية ، فهم يطالعون الكتب العربية ويتدارسونها بينهم وينفقون أموالا جمة فى جمعها ، ويتغنون بالتراث العربى ، وإذا حدثتهم عن الكتب المسيحية نجدهم لا يعيرونها انتباها .

إن النصارى نسوا لغتهم ، وقلة منهم تستطيع أن تكتب رسالة باللاتينية وإن كثيرين منهم يجيدون التعبير عن أنفسهم بالعربية ، بل وينظمون شعرا يفوق فى جزالته شعر العرب أنفسهم .

ولم يكن الأمر مقتصرا على محبة اللغة وتذوقها ، بل كان يتعداه كثيرا إلى اعتناق الإسلام بصورة جعلت مورخا محدثا متعصبا مثل سيمونيت يصب على هؤلاء اللعنات ، ويستخدم ضدهم أسوأ الألفاظ واعتبرهم مرتدين مارقين ، خارجين عن رحمة المسيح فإذا كانت هذه مشاعر أحد قساوسة القرن التاسع عشر ، فما بالنا بمشاعر القساوسة فى القرن التاسع الميلادى ، لقد حدث عندهم رد فعل قوى ضد الإسلام والمسلمين ، وبدءوا يحرضون النصارى عامة ، والمتعصبين خاصة على اتخاذ مواقف علنية يثبتون فيها كراهيتهم للإسلام والمسلمين ، ووصل ببعضهم التعصب إلى درجة سب الإسلام ورسول الإسلام علنا فى الميادين العامة وأمام المساجد ، وأمام التجمعات الإسلامية وتم إغراء إحدى الفتيات المسلمات بالارتداد عن الإسلام واعتناق النصرانية وقام قضاة المسلمين فى ذلك الحين باتخاذ الإجراءات التى تنص عليها الشريعة من حبس لهؤلاء وإعدامهم احيانا ، فكان كلما أعدم أحدهم تبعه آخرون وتزايدت هذه الحركة بصورة مقلقة ، وأصبح الأمر خطيرا فى العاصمة قرطبة وكان الكثير من النصارى المعتدلين ضد هذه التصرفات الانتحارية .

ودعا الأمير عبد الرحمن الأوسط زعماء النصارى لمعالجة هذا الموضوع ، وعقد لذلك مجمعا دينيا فى سنة ٢٣٨هـ ٨٥٢م ، قرر المجتمعون فيه رفض هذه الاعمال وينصحوا رعاياهم بعدم الرضى عنها والاقلاع عن القيام بها وقرروا أن ذلك ليس من الاستشهاد النصرانى فى شئ بل هو نوع من الانتحار الذى حرمه المسيح - عليه السلام - وأن ذلك لا يخدم قضية النصرانية فى شئ .

كانت الاحداث دامية ، واجهها المسلمون بالشدة تارة وبالعقل تارة أخرى ، وظلت هذه الحركة مستمرة طوال عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم خفت فى عهد إبنه الأمير محمد بعد مقتل المحرض الاكبر عليها وهو القسيس بولوجيو وذلك فى حدود عام ٢٤٥هـ ٨٥٩م .

ومن ذلك ايضا انضمام بعض نصارى أهل الذمة إلى الثائرين المتمردين على الإمارة الأموية ، ومنهم عمرو بن حفصون الذى دخل حصن بلاى pelayo سنة ٢٧٦هـ ٨٨٩م ، ويقع على بعد ٥٠ كيلو متر جنوب غربى قرطبة ، فأقام فيه شر بند من حجاج القومس ، وعهد إليه إبن حفصون بالاغارة على أحواز قرطبة ، حتى تفاقم شره ، وازداد خطره مما اضطر الأمير عبد الله - كما سبقت الاشارة - التشمير عن ساعده لمقاومته ، واخرج إليه الخيل تلو الخيل الى أوقعت به ، وسقط شر بند فى كمين ، ولقى مصرعه ، ولحق شره بوالده القومس والذى أغدق عليه الأمير عبد الله فضله ، لكنه لم يتوانى عن قتله لسوء مسلك إبنه ، وكان جعفر بن مقسم ، وعبد الله بن اصبغ ، ودنا بن عطاف نصارى من أكابر رجال عمرو بن حفصون .

وتورد المصادر التاريخية أنه عند موت عمرو بن حفصون ، أظهر إبنه جعفر لجميع النصارى بيشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره وجمع إلى نفسه ثقات منهم مع القسيسية والرهبان ، دون سائر الناس فتولوا تجهيز والده معه .

وعندما أغتيل جعفر بن عمر بن حفصون فى قلعة ببشتر فى مؤامرة يقال أنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من ناحيه أخرى ، أنه رأى أن يعود إلى الاسلام اكتساب لمودة السكان والجند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى ، كذلك ورد اسم تسريل العجمى ضمن قواد عمرو بن حفصون الذين قتلوا فى المعارك مع القائد أحمد بن ابى عبده عام ٢٩٧هـ .

ولكن فترات التوتر هذه لم تكن الا عارضا أو استثناء للقاعدة العامة التى تؤكد تمتع أهل الذمة فى الأندلس بكل الحقوق والواجبات التى كان يتمتع بها المسلمون ويرى الدكتور عبادة كحالة بأن نصارى أشبيلية فى القرن الثالث الهجرى فتمتعوا بدرجة عالية من الثراء من عملهم فى الزراعة والتجارة ، وكان العرب يحسدونهم لثروتهم ، وكذا كانت حال نصارى طيلطلة فى الفترة نفسها ، وينقل عن الروض المعطار أن قرية فنيانه Finana قرب وادى آش Guadix فى الجنوب وأهلها عجم ذو يسار ، وأن اسحق القرطبى قد حقق ثروة كبيرة ،قبل أن يترك وظيفته فى قصر الأمير ، ويلتحق بدير تابانوس ، ثم تصيبه حمى الموت فى عصر الأمير محمد ويشير إلى أنه كان للنصارى الحق فى اقتناء العبيد أسوة بالمسلمين ، على شرط أن يكون هؤلاء العبيد نصارى مثلهم ، كما كان يباح لهم ما تبيحه لهم شريعتهم من شراب أو أكل لحم الخنزير ، وقد أفتى القاضى أحمد بن محمد بن زياد اللخمى المتوفى ٣١٢هـ بانه لا حد على الذمى إلا أن يسكر ، فإن سكر فعليه الحد ، كما تمتع النصارى بعاداتهم الخاصة مثل تقديس بيوتهم بالملح ، بل والاحتفال بأعيادهم النصرانية الخاصة والتى حددها النويرى والمقريزى بأنها سبعة أعياد كبار ، غير أعياد القديسين والشهداء ، وأهم هذه الأعياد خاصة ثلاثة هى عيد الميلاد ويحدد فى تقويم قرطبة فى ٢٥ ديسمبر من كل عام ، وعيد رأس السنة ، أول يناير ، ويوافق ختان المسيح عليه السلام ، وعيد العضرة ويوافق يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان فى ٢٤ يونيه ، وقد اهتم بهذه الأعياد المستشرق الأسبانى فرناندودى لاجرانجا بهذه الاعياد ، وتحدث عنها فى مقالة بمجلة الأندلس فى العدد ٣٤ لعام ١٩٧٠ ثم ظهرت بعد ذلك فى كتاب مستقل نشره المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد .

عمل أهل الذمة من النصارى واليهود فى شتى المهن فى الأندلس من زراعة الأراضى إلى الصناعات اليدوية ، بل كانوا هم الاساس فى هذه الأعمال وخاصة فى عصرى الولاة والامارة قبل أن تضطر الظروف القبائل العربية إلى مزاحمتهم فى هذه الاعمال .

أما فى التجارة والوساطة بين الأندلس وغيرها من بلاد العالم الاسلامية والنصرانية فقد كان لهم الدور الأكبر وكان أحد اليهود هو الوسيط الذى ساهم فى انتقال أبو الحسن على إبن نافع الملقب بزرياب من بغداد إلى الأندلس ولقد برز أهل الذمة خاصة فى مهنة الطب ، ونبغ كثير منهم فى هذا الفن سواء أكانوا من أهل الأندلس أم من الوافدين عليها ، ويكفى أن نشير إلى الحرانى الطبيب المشرقى الذى ورد على الاندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، والذى أراد الفتى نصر استغلال براعته فى عمل السموم فى المؤامرة التى كان يدبرها لقتل الأمير الأوسط بالاشتراك مع

زوجته الأميرة طروب ، وظلت هذه المهنة شبة مقتصرة عليهم حتى كان ذلك مدعاة لسخط بن عبدون فى القرن الخامس الهجرى ، وكان منهم أطباء الأمراء والخلفاء مثل الطبيب يحيى بن اسحق الذى عالج الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ومنهم الاطباء جواد الطبيب فى عهد الأمير محمد ، وينسب إليه النجاح فى عمل بعض اللعوق واليسونات ، وخالد بن يزيد بن رومان ، وكان يسكن بيعه شنت أجلج ، وكسب أموالا طائلة من مهنته ، وكانت بينه وبين الطبيب المصرى قسطاس بن جريح مراسلات بشأن المهنة ، وان ملوكه فى آخر أيام الأمير عبد الله والذى كان يضع على باب داره ثلاثين كرسيا لجلوس المرضى عليها فى انتظار الطبيب وكذلك يشير ابن جلجل إلى اسحق الطبيب بأنه كان صانعا بيده مجربا ، تحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة ، وتحنك فاق به جميع أهل دهره ، وورث عنه صناعته ولده يحيى الذى أسلم فيما بعد ، وصار من قواد عبد الحمن الناصر و وزرائه .

كما شارك بعض أهل الذمة من العجم واليهود فى الثورات والفتن التى سادت عصر الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠هـ ، حيث تشير المصادر إلى أن القائد العربى سعيد بن سليمان بن جودى الذى ظل رئيسا للعصبية العربية فى منطقة البيرة زهاء سبع سنوات ، حيث تمكن منه أعداؤه ، فقتل غيلة فى ذى القعدة من عام ٢٨٤هـ / ديسمبر ٨٩٧م ، وقيل إنه قتل غيلة فى دار عشيقة له يهودية .

كما شارك جعفر بن مقسم أسقف ببشتر فى الصلح بن عمرو بن حفصون وعبد الرحمن الناصر وكان ذلك فى عام ٣٠٣هـ .

وفى سنة ٣١٣هـ صلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب بن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بابى نصر ، وكان من أحذق الرماة فى عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحذق فى الرماية ، واصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين والجند وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، واحضاره إلى الحضرة ، فجئ به إلى باب السدة ، وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام ، فرفع فوق جذع شجرة فى مشهد حافل من الناس ، وتعاورته السهام حتى مزقت جسده .

كما كان اليهودى حسداى بن شبروط طبيبا للخليفة عبد الرحمن الناصر ، اكتسب ثقته وأصبح من خاصته ووزرائه ، وكلفه بتنظيم مالية دولته ، وسفيرا له ومستشارا يراجعه الخليفة فى شئون

بلاده الخارجية والداخلية ، وبرع إبن شبروط فى المسائل التجارية ، وأصبح مرجعا فى أمورها حتى غدا وزيرا غير متوج لتجارة المسلمين فى الأندلس .

تمتع حسداى بن شبروط بمكانة عالية فقام بالسفارة بين الأندلس وبيزنطة ، وكان لمكانته من الناصر فضل كبير فى تمتع يهود الأندلس بالكثير من المزايا والأوضاع الاجتماعية المتميزة ، كما قام حسداى بن شبروط بالسفارة إلى مملكة نافارة حيث طلبت الملكة طوطة من الخليفة عبد الرحمن الناصر المساعدة الطبية لعلاج حفيدها شانجة من سمنته المفرطة ، كما طلبت المساعدة العسكرية لإعادته إلى عرشه ، ولما أفضى السفراء إلى الخليفة بما جاءوا إليه فيه أجابهم بأنه سعيد إذ يرسل إلى شانجة طبيباً ماهرا ، وأنه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيحملها أحد وزرائه إلى بنبلونه ، وعاد المبعوثون النفاريون ، وأرسل عبد الرحمن فى طلب اليهودى حسداى وزوده بتعاليمه ، ثم أذن له فى الشخوص إلى بلاط نافارة ، وكان الخليفة موفقا كل التوفيق فى اختياره حسداى لما كان يجمعه فى شخصه من كل الصفات التى تؤهله لمثل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصارى اجادة تامة ، كما كان فى الوقت ذاته طبيبا عظيما وسياسيا محنكاً ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدرته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من ألمانيا ، فذكر أنه لم يرقط رجلا بلغ من الحنكة والدهاء ما بلغه حسداى بن شبروط ونجح حسداى فى مهمته نجاحا باهرا تمثل فى قدرته على علاج شانجة ، واقناع الملكة طوطة بالقدوم إلى قرطبة فى سفارة أثلجت قلوب المسلمين واليهود على حد سواء وسعد اليهود أكثر لأن الطبيب كان يهوديا فتبارى شعراؤهم فى تمجيد عودته وقال أحدهم :

طاطئ الهام أيها الجبال فهذا شيخ يهوذا حيالك
ولتمتلئ جميع الأفواه بالضحك والفرحة
ولتغن الأرض الجدباء ، ولتبتسم الصحراء ، ولتزدهر الورد
فقد جاء شيخ الجميع

كما وصف المؤرخون المسلمون هذه السفارة ، واستقبال الخليفة لهم وصفا رائعا وفى عبارات تنم على ما كانت عليه الخلافة الإسلامية فى الأندلس من عظمه واقتدار .

ومن أشهر أهل الذمة الذين سفروا لعبد الرحمن الناصر الأسقف ربيع بن زيد المعروف عند النصارى باسم Recemundo واستخدمه الناصر للسفارة لدى ملوك أوربا نبعثه الناصر مع رسول

الصقالبة إلى ملكهم هوتو ، وقضى ربيع فى هذه السفارة سنتين كاملين ، وكان ربيع عالما ، أديبا ، فطنا ، كيسا ، أشاد به الفتح بن خاقان ، وترجم له ترجمه رائعه أوردتها بعد ذلك المصادر التاريخية والأدبية .

ومن أبرز أعماله الكتاب المعروف بتقويم قرطبة ، يقول عنه بن سعيد فى تذيله لرسالة إبن حزم فى تفضيل الأندلس وأما كتب التنجيم فلا بن زيد الأسقف القرطبى فيه تصانيف ، وكان مختصا بالمستنصر المروانى ، وله ألف كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان وفيه من ذكر منازل القمر ، وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه ، ويعد تقويم قرطبه من أشهر التقاويم العربية ، ويذكر اوقات السنة وفصولها ، وعدد الشهور وأيامها ، ومجارى الشمس ، وفيه أخبار عن الزراعة والفراسة والفلاحة والحصاد ، وسطالع النجوم والامطار ، والسنة الشمسية والأبراج ، كما أن به أخبارا عن أعياد العجم جميعا والأنواء ومواعيد البذر ، وعادات الحيوان ... إلخ .

ومن تلك الشخصيات النصرانية السياسية تشير إلى عباس بن المنذر الجاثليف أسقف أشبيلية Sevilla ، ويعقوب بن مهران أسقف بجافة Pichina ، وعبد الملك بن حسان أسقف البيرة Albira حيث أوفدهم الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى ملك ليون فى فداء محمد بن هاشم التجيبى الذى وقع أسيرا فى معركة الخندق ونجح هؤلاء فى سفارتهم ، وعندما أتت سفارة من ملك الروم سنة ٣٦٦هـ ٩٤٨م أرسل الناصر هشام من كليب الجاثليق إلى قسطنطين ليجدد الهدنة ، ويؤكد المودة ، ورجع من سفارته هذه بعد عامين وقد أدى سفارته خير أداء .

كما كان عبيد الله بن قاسم مطران طليطلة Toledo من وجوه أهل الذمة الذين شاركوا فى استقبال وفود الممالك النصرانية ، وقام بالترجمة لهم فى مجلس الخليفة الحكم المستنصر بالله .

ونكتفى بالاشارة هنا إلى شخصية هامة من شخصيات أهل الذمة والتى أدت دورا ثقافيا وكنسيا فى الأندلس ، وهى شخصية حفص بن البر والذى ينسب إلى عائلة الملك القوطى غيطشه ، وهو معاصر للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقد أطنبت المصادر العربية فى الاشادة به فيقول القرطبى : أعلم يا هذا أن هذا القس الذى هو حفص هو من أكيسهم وأفصحهم على أنه ليس فى القوم رجل رشيد ولا ذو عقل حميد ، وانما كان كذلك لأنه قد ضربت عليه الجزية ، ولزمه الصغار والذلة ، إذ كان قد نشأ فى ذمة المسلمين ، وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى .

ولقد عرف لحفص عدد من الكتب منها " المسائل " و " الحروف " كما إشتهر بأنه نظم مزامير داود باللغة العربية ، ووصلت مخطوطة هذه الأرجوزة إلينا وهى موجودة بمكتبة أمبروسيو فى مدينة ميلانو .

وليس من المؤكد اختصاص النصارى من أهل الذمة بأحياء لهم فى المدن الإسلامية ، وأن كثر تواجدهم فى بعض المناطق ، وكذلك كانت مدافن موتاهم مجاورة للمقابر الاسلامية وكانت كنائسهم مقامة فى معظم المدن الاسلامية ويسمح لهم بدق النواقيس ، ويدل على ذلك ما نقل عن بن حزم فى كتابة طوق الحمامة :

أ تيتك الحين وهلال الجو مطلع . قبيل قرع النصارى للنواقيس

لعبت الكنائس دورا اجتماعيا من حيث كونها ملتقى للمثقفين ، والأدباء المسلمين ومن أهل الذمة ومن ذلك ما ينقل عن أبى عامر بن شهيد " نهايات القرن الربع " انه بات ليله باحدى كنائس قرطبة ، وقد فرشت بأضعاث أس ، وعرشت بسرور واتناس وقرع النواقيس يهيج سمعه وبرق الحميا يسرع لمعة ، والقس قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنانير ابرع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح

لا يعمدون إلى ماء بآنية . الا اغترافا من الغدران بالراح

واقام بينهم يعملها حميا ، كأنما يرشف من كأسها شفة لميا ، وهى تنفح له بأطيب عرف . ثم ارتجل بعد ما رحل .

ولرب حان قد شممت بديــرة . خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم . متصارعين تخشعا لكبيـــــــرة
والقس مما شاء طول مقامنـــا . يدعو بعود حولنا بزبـــــــورة

وكان أهل الذمة يحترمون بعضهم ، وخاصة الشخصيات الأدبية والعلمية ويتبادلون بينهم الأشعار ويطلقون على أنفسهم أحسن الصفات ، مما يدل على تمتعهم بالمكانة الاجتماعية العالية ، واحساسهم بذاتهم ، وليس أدل على ذلك من تلك القصيدة التى أرفقها بنثينثيو Vincencio إلى أحد القساوسة ويدعى عبد المالك ويقول فيها :

كتاب لعبد المالك الأسقف الندب | جواد نبيل الرفد فى زمن الجدب
همام ذكى الحدس واحد عصره | عليم كريم ذو حلـــوم وذى لب
يجدد فضل الله فينــا بفضــله | وعـم بـه كل الانام هـدى الرب
فلا زال فى عز من الله شامل مدى | انهل مزن من قرى الأرض بالسكب

ولقد خلف أهل الذمة من النصارى تراثا ثقافيا متعددا يدل على ثراء ثقافة المستعمريين النصارى ثراء طيبا ، ولقد اتسعت مجالات التراث الثقافى النصرانى من المؤلفات الدينية إلى المؤلفات الأدبية والتاريخية والجغرافية إلى الجوانب العلمية والعقلية .

ولم يكن اليهود أقل نشاطا من النصارى فى المجالات المشار إليها ، فلقد عاش اليهود فى الأندلس بحق عصرهم الذهبى ، وساهموا مع المسلمين والنصارى فى تلك النهضة الحضارية التى عمت البلاد فكان منهم الشعراء والأطباء والمترجمين والجغرافين الذين وصلوا إلى درجة طيبة من الشهرة أمثال الشاعر إبن عزرا التطيلى ، ويهودا ليفى الطليطلى ، واسماعيل بن نغزله ، وإبراهيم بن سهل الاسرائيلى ، وغيرهم من كتب باللغة العربية ، كما كان منهم الجغرافى الشهير إبراهيم بن يعقوب الطرطوشى الذى برز بين علماء الجغرافيا ، وزار شرق أوربا وتحدث عن كيفية دخول أهل البلاد من الخزر ، جنوب بحر قزوين ، فى اليهودية والموسيقى اسحق بن شمعون القرطبى الذى برع فى الموسيقى ، وظل ملازما لابن باجه الفيلسوف لفترة طويلة .

وكان لحسداى بن شبروط ، الأثير لدى عبد الرحمن الناصر ، المكانة العليا بين يهود عصره ، فلقد جمع ثروة طائله جعلها لخدمه ابناء حلدوة ، كما أنشأ مكتبة ضخمة تحوى أمهات الكتب العبرية ، وفى ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وازدهرت على أيديهم الدراسات التلمودية ، ووفد العديد من طلاب العلم والعلماء اليهود إلى قرطبة ، كما أنشأ حسداى ما يشبه مدرسة للدراسات اليهودية فى قرطبة ما لبثت أن ذاع صيتها فى العالم الاسلامى ورحل إليها كثير من طلاب العلم اليهود حتى استغنى بها عن مدارس اليهود الشهيرة فى بغداد ، وبهم غدت قرطبة المركز الأول للثقافة اليهودية بدلا من بغداد .

ويشير د. محمد بحر عبد المجيد إلى هذه المدرسة إلى أن أول رئيس لهذه المدرسة يهودى يسمى " ناتان " الذى ما لبث أن تنازل عن الرئاسة لموسى بن حنوخ العالم التلمودى

الكبير ، كما يورد اسماء عدد كبير من شعراء وعلماء اليهود الذين قصدوا حسداى لمدحه أو للعيش بالقرب منه ، ومنهم مناحم بن سروق الشاعر بطرطوشة والذى كان من أحسن شعراء اليهود على عصره وكذلك اليهودى دوناش بن لبرط المغربى ، والذى دعا يهود الأندلس ، عند مجيئة إلى قرطبة ، بأن يزنوا أبيات أشعارهم العبرية وعلى أوزان بيوت الشعر العربية ، وتعدى ذلك إلى قرض الشعر فى فنون كثيرة لم يسبق لليهود طرقها من قبل مثل الاخرانيات ، والخمريات والهجاء والوصف ، كما كان منهم العالم اللغوى الكبير والشاعر الأديب اسحق بن قفرون الذى دافع عن استاذه مناحم بن سروق ضد هجوم دوناش عليه .

ومن أطرف ما يدل على حسن العلاقة بين الأمويين فى الأندلس واليهود ما أورده المقرى من رسالة كتبها أيوب بن سليمان المروانى - من ذريه عبد العزيز بن مروان - إلى بسام بن شمعون اليهودى الوشقى يصف بها رائعه ويناشده الحضور لمسامرته وهى رسالة رائعة الأسلوب جميلة النثر ويختتمها بقوله :

ولا يعين المرء يـوما على ... راحتـه الا كريـم الطبـاع
وها أنا والسمع منى إلى الـ ... باب وذو الشوق حليف استماع
فإن أتى داع نبيل المنى ... ودع أشجـانى ونعم الوداع

أما من ناحية الحياة الاجتماعية فقد خالط اليهود العرب ، وتأثروا بتفكيرهم ، وتحلوا بآدابهم ، وجرفهم تيار العربية حتى صارت لغتهم التى يتخاطبون بها ، وأخذوا الكثير من عادات العرب وتقاليدهم ، واسمائهم ، وأظهروا أعجابهم بالثقافة العربية وفنونها ، ومن هنا كان المجال مفتوحا أمامهم لتقلد مناصب هامة فى الدولة ، ولا تنتعش الحركة الثقافية بينهم على نحو ما سبق أن بيناه ، ويؤكد كثير من المؤرخين أنه نظرا للعلاقات بين المسلمين واليهود والتى كانت مطلقة من كل قيد ، فإن أحياءهم لم تحاط بأسوار عاليه كما كان عليه الحال فى بعض البلاد النصرانية إلا أنه من المؤكد تفضيل اليهود للحياة فى أحياء خاصة بهم أو فى حارات لها أبواب تغلق عليهم إ، ذلك ديدنهم فى كل العصور وفى كل بلاد الدنيا ، وفى قرطبة كانت لهم حارتهم أيضا التى مازالت بعض آثارها قائمة فى المدينة إلى يومنا هذا ، ويؤكد ذلك أبو عامر بن شهيد الأندلسى القرطبى فى قصيدة له يقول فيها :

لقد أطلعوا عند باب اليهود ... بدرا أبى الحسـن أن يكسفا
تراه اليهـود على بابهـا ... أميرا فتحسبه يوسـفا

واستقبح الناس قولهم " باب اليهود " فقالوا " باب الهدى " كما كان لليهود الكثير من الحقوق الاجتماعية منها حقهم فى إقامة بيعهم ومعابدهم ، كما كان لهم حق تطبيق العقوبات التى تقرها محاكم خاصة بهم ، كما كان لكل جماعة من اليهود نفر من المقدمين ينتخبون من بينهم للأشراف على أمورهم وكانوا مسئولين أمام الحكومة الاسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة اليهودية من ضرائب والتزامات ، هذا ولقد تميزت حياتهم الاجتماعية فى الأندلس باليسر والرخاء ، وجمع بعضهم أموالا ضخمة ، حتى شيدوا القصور المنيفة ذات الأبواب المذهبة ، والتى تتدفق فيها النوافير بالمياه النفيسة .

أهل الذمة على عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين :

مع مطلع القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى أصيبت بلاد الأندلس بكارثة كبيرة تمثلت فى وقوع الفتنة الكبرى التى دامت عشرين عاما ، أودت خلالها بالخلافة الأموية ، وأحلت محلها عددا من الدويلات الصغيرة المتصارعة فيما بينها ، والمتحاربة دوما فيما بينها والمتجاهلة لأعدائها ، مما شجع ملوك أسبانيا النصرانية ، وخاصة مملكة قشتالة على انتهاز الفرصة ، والعمل بجدية للقضاء على دولة الاسلام فى الأندلس ، وكان أبرز المتطلعين إلى ذلك ملك قشتاله المسمى الفونسو السادس Alfonso VI الذى استطاع الاستيلاء على مملكة طليطلة عام ٤٧٨هـ ، وهدد تهديدا قويا مملكة أشبيلية ، وعاث كثيرا فى أراضى المسلمين هنا وهناك ، ولولا أن من الله عليهم بمساعدات المرابطين ، ونجدة الأمير يوسف بن تاشفين لهم ، والانتصار الكبير فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ .

تطورت الأمور بعد ذلك تطورا دفع المرابطين إلى التدخل للقضاء على ممالك الطوائف فى الأندلس ، والتصدى للزحف النصرانى لممالك الشمال الاسبانى وبذل المرابطون فى هذا المجال جهودا رائعة يسجلها لهم المؤرخون والكتاب .

ولم تلبث دولة المرابطين أن سقطت على أيدى الموحدين ، الذين قامت دولتهم أيضا فى بلاد المغرب ثم انتقلت إلى الأندلس ، وحمل الموحدون عبء الجهاد فى الأندلس لمدة تزيد على قرن كامل من الزمان إلى أن بدأت دولتهم فى التحلل وخاصة بعد معركة العقاب عام ٦٠٩هـ ١٢١٢م ، والتى ترتب عليها تقدم مملكة قشتالة تقدما سريعا فى استيلائها على بلاد المسلمين وتساقطت فى أيديهم المدن الإسلامية الهامة وخاصة عاصمة المسلمين الخالدة مدينة قرطبة وذلك

فى سنة ٦٣٣هـ /١٢٣٦م ، كما سقطت أشبيلية ٦٤٥هـ /١٢٤٨م وبين هذين التاريخين سقطت مدن أندلسية كثيرة .

كان لهذه الظروف السياسية تأثيرا خطيرا على العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة فهى من ناحية أحدثت تغييرا جذريا فى تفكير أهل الذمة ، وبدأ يتجهون بأنظارهم إلى القوى الجديدة وخاصة إلى مملكة قشتالة ، وبدأ نصارى الأندلس يمدون لهم يد المساعدة فى غزوهم لأرض الأسلام ، كما بدأوا يتطلعون إلى زوال الدولة الإسلامية ، كما بدا بعض اليهود ينتقلون بخدماتهم إلى ذلك الجانب النصرانى ، فعملوا فى بلاط ملوكهم سفراء ومترجمين ، كما بدءوا يتفكرون لحلفائهم القدامى من المسلمين .

كما كان لتلك التطورات تأثيرها أيضا على الأمراء المسلمين من ناحية ،وعلى العلماء والفقهاء وعامة المجتمع الاسلامى من ناحية أخرى فبدأ التوجس من أهل الذمة ، فبدأوا يضيقون عليهم ، ويتشددون معهم ، صدرت فى ذلك الوقت الكثير من الفتاوى حول تحديد مكانة اليهود والنصارى وما يتعلق بوضعهم بين المسلمين وزاد التحرش بهم ، مما زاد فى ارتباطهم بالمملكة القشتالية النصرانية وبالتالى فى تردى العلاقة نسبيا بينهم وبين المسلمين .

ومن الأمثلة الدالة على انتقال بعض أهل الذمة إلى العمل مع مملكة قشتالة أن السفارة التى أرسلها الملك القشتالى إلى المعتمد بن عباد عام ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م والتى هدفت إلى تحصيل الأموال ورفع مطالب ألفونسو إلى المعتمد وهى مطالب مخزية - كان يرأسها بن شاليب اليهودى وزير ألفونسو ومعه عدد كبير من فرسان قشتالة ، والذى قتله المعتمد بن عباد نتيجة لإشتطاطة فى مطالبة .

وبعد هذه السفارة الفاشلة قام الفونسو السادس بحملة تخريبية كبيرة اخترق فيها معظم ربوع الأندلس حتى وصل إلى طريف أقصى الجنوب ولم يجد من يصده ، ووجد مساعدات كثيرة من النصارى من أهل الذمة ، وعاد ألفونسو مارا بغرب الأندلس وحط رحاله على أشبيلية ، وكتب إلى المعتمد بن عباد يسخر منه ، ولعل كما تجلى ذلك عند غزوة أذفنشى المحارب El Batallador ملك أرغونة سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، فقد اخترق بلاد الأندلس من أقصاها إلى أدناها حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط جنوبا فيما يلى مدينة غرناطة ، وقد أيده المعاهدون النصارى بعدة آلاف

من خيرة مقاتليهم ، وأخفق المرابطون فى التصدى له ، وهرب عشرة آلاف منهم فى صحبة ملك النصارى عند عودته شمالا ، وأفتى أبن رشد الجد بتغريب من بقى منهم إلى بلاد المغرب ، وارتحل عدد كبير منهم إلى هناك حيث عمل بعضهم فى حرس الأمير يوسف بن تاشفين الذى أحسن معاملتهم كما أسلم بعض أخر منهم .

ذلك كان من الاسباب التى دعت ملوك الطوائف إلى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، كما كان من أسباب تنمية الشكوك حول موقف أهل الذمة حتى اضطر الخليفة الموحدى أبو يعقوب المنصور إلى أخبار اليهود على ارتداء ملابس زرقاء حتى يتميزوا بذلك عن المسلمين .

ومع ذلك فإن غالبية أهل الذمة من النصارى ، واليهود ، ساروا فى حياتهم العادية على مثل كان علية الوضع أيام بنى أمية ، بل يمكننا أن نرصد ازديادا فى نفوذهم وخاصة على عصر ملوك الطوائف ، وإن نراهم يتبوءون الكثير من الوظائف العليا ، ومنها منصب الوزارة ، كما نرى منهم شخصيات أدبية رفيعة المستوى ، وكان اليهود فى هذا أفضل شأنا من النصارى حيث وصل إلينا الكثير من أخبارهم فى هذا المجال .

ومن أبرز شخصيات الوزير المعروف ابن النغرله ، والذى كان ظاهرة وحدة بين يهود مصره ، وأثار جدلا أدبيا واسعا فى الأندلس ، كما قامت ضده ثورة شعبية قضت على الكثيرين من بنى جلدته .

اسمه صمويل هافى ، و ينادى ابن النغرله ، ويعرف فى المصادر العربية باسماعيل ويكنى بابراهيم ، ولد فى قرطبة ، ودرس الدراسات التلمودية فى مدرستها ، وتتلمذ على أن حنوك موسى الرئيس الروحى لليهود فى الأندلس على عصر الخلافة ، وأجاد العربية واللاتينية ، وهاجر بعد الفتنه إلى مالقه حيث عمل عطارا فى تلك الناحية ، ومن ثم بدأت شهرته فى الأدب والشعر الجاهلى فتجلى فى كتابته الرسائل للمظلومين والشاكين ، حتى بلغت تلك الشهرة ابن العريف ، وزير ابن حبوس ، فاستخدمه كاتبا ، ثم صحبه معه إلى غرناطة ومن هناك بدأ نجم هذا اليهودى فى الظهور ، ويصفة الظاهر أحمد ذكى بأنه كان : رجل دولة ممتاز ، ذكيا وداهية ، معارفه واسعة ، وتجاربه متعددة عاقلا وهادئ ، فيتحدث قليلا ، ويفكر كثيرا ، نهاز للفرص ، يتسرب إلى هدفه كالميكروب

يندس إلى أعماق الرجال خيفه ويتحكم فيهم من خلالها ، يملك قدرة فائقة على أن يكون ودودا آسرا ، ملهم فى اللحظات الحرجة ، مقنع فى أفكاره دائما .

كما كان المنفتل ، ابو أحمد عبد العزيز من خيرة من وقف شعره على مدح صمونيل ، وابنه من بعده ، وغالى فى مديحه ، فأرتفع بهما إلى مرتبة الأنبياء ، وفضل بهما موسى نفسه ، وجعلهما أكرم الناس شرقا وغربا ، وكان يتودد إليهما مدعيا اعتناقه اليهودية سرا ، ومما قاله فيهما :

ومن يك موسى منهم ثم صنـــوه	فقل فيهم ما شئت لم تبلغ العشـــرا
فكم لهم فى الارض من آية تــرى	وكم لهم فى الناس من نعمة تتـــرى
أجامع شمل المجد وهو مشـــتت	ومطلق شخص الجود وهو من الاسـرة
فضلت كرام الناس شـرقا ومغـــربا	كم فضل العقياد بالخطـــر القطـــرا
وقد فزت بالدنيا ونلـــت بك المنى	واطمع أن ألقى بك الفوز فى الأخرى
أدين بدين السبت جهرا لديكـــم	وان كنت فى قومى أدين به ســـــرا
وقد كان موسى خائفا متــــرقبا	فقيرا وأمنت المخافة ، والفقـــــــــر

تمكن أبن النغريلة من غرناطة وأميرها ، وفتح أبواب المدينة لليهود ، حتى غدت بحق " غرناطة اليهود " كما تسميها المصادر الأندلسية ، وبسط الرجل حمايته عليهم ، ولكن منهم من تولى الوظائف الكبرى فعين الشاعر موسى بن عذرا على خطة الشرطة وهى أهم الخطط وأخطرها فى الأندلس ، وغدا اسماعيل إبن النغريلة رئيسا ليهود غرناطة ، ومدحه كثير من شعراء عصره حتى العرب منهم ، إذ قال فيه الأخفش بن ميمون القذافى المعروف بابن الفراء :

أهوى الذى تيمنى حبه	ومادرى اننى أهواه
أكاد افنى من غرامى به	لاسيمـــا ساعة ألقاه
والله ما تذكرنى ســاعة	ولا وحـــق الله أنساه

وقال فيه أيضا

إذا مدحت فلا تمدح ســـواه ففى	يمنـــاه بحـــر محيـــط للعفاه زخـــر
يصغى من المدح من جود ومن أدب	كمشتكى الجدب قد أصغى لصوت مطر

ولعل ذلك زاد من غلواء ابن النغريلة . وأنساه فضل الاسلام والمسلمين عليه وعلى اليهود عامة ، فتطاول على الاسلام وشرائعه ، واستهزا بالمسلمين وجاهر بانه قادر على أن ينظم القرآن فى أشعار وموشحات ليتغنى به فى المجالس والاسواق ، ومن شعره بالعربية عن القرآن :

نقشت فى الخـــد سطـــــــرا من كتـــــاب الله مـــــــوزون
لن تنالـــــوا البـــــر حتى تنفقـــــوا مما تحبـــــون

ولقد ترك صموئيل من بعده أبناء ، أبرزهم يوسف اعتنى به والده عناية خاصة ، ورباه تربية علمية رائعة ، فحملة على مطالعه الكتب ، وجمع إليه المعلمين والأدباء ، ونضج الفتى حاد الذهن ، جميل الوجه ، لم يعرف ذل اليهودية ولا قدر الذمة ، فكف أبهة الأمير ، وأخمل أمجاد صنهاجة ، فإذا مضى إلى جانب باديس لم يفرق الناس والمرءوس ولم يعرفوا الآمير من الوزير .

وهكذا خلف يوسف والده فى الوزارة الغرناطية ، ونجح فى السيطرة الكاملة على الأمير الغرناطى ، ودس عليه عيونه فى قصره ، من نساء وفتيان ، غمرهم بإحسانه ، فهم يحصون على الأمير حركاته ، وخفقات قلبه ، ينقلونها إليه ، كما نجح فى وضع اليهود فى كل المراكز الاقتصادية الكبرى والهامة ، من الإشراف على جباية الضرائب ، والبيع والشراء ، وتنمية ثروات الأمير ، وفى البلاط وغيره حتى أنه تمكن من تدبير مؤامرة قتل فيها بلفين بن باديس بل وطمح فى القضاء على الأسرة الباديسية واتصل من أجل بابن صمادح ، امير ألمرية . وطمحت نفس يوسف إلى ما هو أعلى من ذلك ، فبدأ فى الطعن فى الإسلام ، والتعالى على المسلمين ، حتى ألف فى ذلك كتابا يطعن فيه على الاسلام ، وكتاب الله الكريم ، مما أثار المسلمين فى غرناطة وغيرها ، ورد عليه الفقية الإمام محمد بن حزم فى كتاب أسماه " الرد على ابن النغرلة اليهودى " ، ومن ثم كانت نفوس المسلمين تمتلئ غيظا على هذا التسلط اليهودى ، فإنطلق الشاعر العربى أبو أسحق ، إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى ، ولقبه الإلبيرى يعبر عن مشاعر الناس فى قصيدة بسيطة لكنها تضطرم نارا تلفح وجوه كل من سمعها وتثير غيرته على الاسلام ، والاعراض وترك القلوب الساكنة للإنتقام لكرامتها ومكانتها ، واتجه فى أبياتها إلى الأمير ، وإلى العامة من الناس ، وإلى كل من يعنيهم الأمر حتى حركت هذه القصيدة غرناطة بكاملها لتقضى على ذلك النفوذ اليهودى فيها

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلـــــه تقر بها أعين الشامتيـــــن
تخير كاتبه كافـــــــرا ولو شاء كان من المسلمين

فعز اليهود به وأنتجـــوا وتاهوا وكانوا من الأرزلين
ونالوا مناهم وجازو المنى فحان الهلاك وما يشعـــرون
فكم من مسلم فاضل قانت لأرذل قرد من المشركيـــن

وهى قصيدة طويلة ، أتسمت بالبساطة والواقعية ، لكنها موحية قوية التعبير عما ترغب قوله ، ولذلك صادفت هوى عند كل طبقات الناس فى غرناطة .

وجاءت الطاقة فى تسرب أخبار اتفاق يوسف اليهودى مع حاكم المرية ، وتسامع الناس بالخبر فأجمع عامتهم وخاصتهم ، وأتوا القصر عازمين على قتل اليهودى الذى هرب إلى داخل القصر ، فاختفى فى بيت فحم ، وسود وجهة حتى لا يعرف ، لكنه ظفر به وقتل ، وصلب على باب مدينة غرناطة ، ثم تدفقت الجماهير الغرناطية إلى شوارع المدينة تقتل كل من تصادفة من اليهود ، فأحالوا السيف على كل يهودى ، ونهبوا متاجرهم ، وحصلوا فى عظائم أموالهم ، واقتحموا بيوتهم ، وأخذوا ما بداخلها ، وأشعلوا النار فى هذه وتلك ، وقتل فى هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودى ، وأفلت من المذبحة زوجة يوسف وابنه ، هربا إلى مدينة لوشة ، وكان على الذين بقوا على قيد الحياة أن يبيعوا أملاكهم ، وأن يرحلوا عن غرناطة ، ولم تقم لليهود بعدها فى هذه المدينة قائمة وكانت تلك الثورة الكبيرة عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م .

ومن الشخصيات الهامة أيضا يهودى وصل إلى مكانة مرموقة فى " مملكة سرقطة " الثغر لأعلى الأندلسى فى عهد المنذر يدعى أبو عامر يقوئيل يوسف بن حسن ، وكان يدعى أحيانا " المتوكل بن قبرون " ، وكان شاعرا محبا للأدب والأدباء جمع حوله حاشية من العلماء والفلاسفة ، قرض قصيدة رائعة فى مدح بن النغريلة أسميت باليتيمة لتضمنها بيتا يقول فيه :

أنبت عريسها لكنها مازالت عذراء وهى يتيمة ولو أن أباها مازال حيا

وتبدأ القصيدة بغزل عذرى على نمط العربية ، يوردها الدكتور محمد بحر على النحو التالى :

أ للغزالة الحنـــون قـــوة وقـــدرة
لتحجب أستار ظلام الليل كالثوب
ولترعى كواكب السمـــاء وللتيـــة
فى الصحراء موطن الخوف والرعب

ويرى فى هذه الأبيات استعارة واستنباطا من أشعار لابن الفرج الجيانى :

بدت فى الليل سافرة فباتت　　　　دياجى الليل سافرة القناع

ومن أشهر علماء العصر اليهود أبو أيوب سليمان بن يحيى والمعروف بسليمان بن جبيرول ، ولد فى مالقه فى حدود ٤١٢هـ / ١٠٢١م ، وهاجرت هناك أبو عامر يقوئيل ، هناك فى سرقسطه تجلت معارفه ، وبدت مواهبه ، ونظم شعرا رائعا جميلاً ، وأن اتسمت كتاباته بالغيبيات مما أضطره إلى الهجرة من سرقسطة إلى غرناطة حيث لجأ إلى أبن النغرلة ، وقد طرق ابن جبيرول فى شعره العبرى موضوعات شتى ، ويعتبر شعره من أحسن ما كتب فى الأدب العبرى كله ، كما أنه نظم لأول مرة فى اللغة العبرية قصيدة تتناول النحو العبرى على غرار ألفيه بن مالك وتتكون من ٤٠٠ بيت التزم فيها توالى الحروف الأبجدية العبرية .

ومن أشهر شعراء يهود الأندلس الذين ترجم لهم المقرى فى نفخ الطيب الشاعر إبراهيم بن سهل الاسرائيلى ، وهو شاعر أشبيلية ووشاحها وقرأ على أبى على الشلوبين ، وابن الدباج وهما من علماء النحو الكبار ، ولقد اختلفت الآراء حول أسلام ابن سهل ، وهل هو أسلم حقا أم تظاهر بالاسلام ؟ لكنها اجمعت على رقة شعره وجماله إلى درجة أن ترجم له معظم علماء الأندلس المعاصرين واللاحقين ، وأورد له المقرى أشعارا جميلة وموشحات رقيقة منها قوله :

ليل الهوى يقظـان　　　　والحب ترب السهـــر

والصبر لى خـوان　　　　والنوم عن عينى برى[٢]

ومنهم أيضا إبراهيم بن الفخار اليهودى الذى قد تمكن عند الادفنشى ملك طليطلة النصرانى ، وصيره سفيرا بينه وبين ملوك المغرب ، وكان عارفا بالمنطق والشعر ، قال شعرا جميلا وتبادله مع الأدباء المسلمين ، كما مدح ألفونسو بأبيات عربية أوردها المقرى بعد أن لعنهما معا :

حضرة الأذفنش لا برحت　　　　غضة أيامها عـــرس

فاخلع النعلين تكرمـــة　　　　فى ثراها إنها قـدس

ولم يقتصر الأمر على رجال اليهود فحسب ، بل أن الثقافة الاسلامية العربية قد تمكنت من نسائهم أيضا ، فقد أورد المقرى أنه كانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت اسماعيل

اليهودى ، وكان أبوها شاعرا ، واعتنى بتأديبها ، وربما صنع من الموشحة قسما فأتمتها هى بقسم أخر ، وقال لها أبوها يوما أجيزى :

لى صاحب ذو مهجة قد قابلت   نعمى بظلم واستحلت جرمها

ففكرت غير كثير وقالت :

كالشمس منها البدر يقبس نوره   أبدا ويكسف بعد ذلك جرتها

فقام كالمختبل يقبل رأسها ، ويقول لها : أنت والعشر كلمات أشعر منى ونظرت تلك الشاعرة اليهودية فى المرآة فرأت جمالها ، وقد بلغت أوان التزويج ولم تتزوج فتحسرت وقالت :

أرى روضة قد حان منها قطافها   ولست أرى جان يمــد لها يــدا

فوا أسفا يمضى الشباب مضيعـا   ويبقى الذى ما أن أسميه مفــردا

يا ظبية ترعى بروضى دائمــا   انى حكيتك فى التوحش والحور

أمسى كلانا مفردا عن صاحب   فلنصطبر أبدا على حكم القــدر

ولم يقتصر نبوغ اليهود فى الأندلس فى ذلك العصر على الشعر فحسب ، بل كان منهم من يكتب نثرا رائعا ، احتفظت به المصادر الأندلسية ، ومن أمثلة ذلك تلك الرسالة الجميلة التى كتبها أبو الفضل حسداى يوسف بن حسداى الاسرائيلى ، أحد كتاب عصر الطوائف والتى كتبها ردا على رسالة للكاتب أبى المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كاتب ابن هود ، حاكم سرقسطه ، والذى رحل من عنده إلى المعتمد بن عباد فى أشبيلية ، ومات بعد ذلك فى بطليوس ، ومن يقرأ رسالة حسداى يعرف إلى أى مدى تمكن يهود الأندلس من العربية نثرها ونظمها حتى نظم بعضهم بن بسام فى الذخيرة ومنهم حسداى هذا ، وهى التى لم ينظم فيها الا كبار شعراء العربية .

أما النصارى فلم يفقدوا ابدا مكانتهم الأدبية والعلمية والإجتماعية فى المجتمع الأندلسى ، بل ظلوا على صلة قوية بالأمراء والملوك ، رغم تغير الظروف لصالح الدولة النصرانية فى الأندلس ومن ذلك ما أورده المقرى من أن ابن المعزى النصرانى الأشبيلى أهدى كلبه للمعتمد بن عباد ، ويورد له أشعارا جميله فى وصف هذه الكلبة وفى غيرها من المعانى .

أهل الذمة على عصر بنى نصر فى غرناطة :

نهضت مملكة غرناطة وسط ركام الانهيار الأندلسى بعد معركة العقاب المشار إليها ، وانتظمت فى دولة قوية دامت حوالى قرنين ونصف من الزمان إلى أن سقطت نهائيا عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م .

ورغم التحول السياسى الكبير لصالح الممالك النصرانية الاسبانية ، الا أن مملكة غرناطة لم تحل ابدا من أهل الذمة النصارى أو اليهود ، ورغم ما اتسمت به فترة المرابطين والموحدين من معاملة خشنة نوعا ما لأهل الذمة بسبب هذه التغيرات السياسية كما أوضحنا سلفا ، إلا أن مملكة غرناطة ضمت بين جنباتها مجموعات ضخمة من أهل الذمة ، وأن تغيرت تشكيلتهم الاجتماعية فضمت إلى جانب المقيمين بصفة دائمة من المستعربين طوائف من التجار والاسرى النصارى ممن شكلوا جزء كبيرا من جالية أهل الذمة فى غرناطة وأحوازها .

لقد أعجب ملوك غرناطة وأمرائها بالكثيرين من جند النصارى وفرسانهم ، وكان منهم عددا كبيرا يعيش فى قصر الحمراء على عهد محمد الغنى بالله ، ملك غرناطة ، ولقد تركز عدد كبير من تجار النصارى فى مدينة ألمرية ، ويروى إبن الخطيب أنه عندما قام السلطان يوسف الأول ، ملك غرناطة ووالد محمد الغنى بالله ، بزيارة الى مدينة ألمرية ، فإن تجار النصارى قد صنعوا له مظله من الحرير الطبيعى تحمى الأمير من أشعة الشمس أثناء تجواله بالمدينة .

ولقد عاش فى غرناطة أعداد كبيرة من الاسرى النصارى وكذلك أعداد أخرى من الجوارى ،واللاتى تمتعن بمكانة كبيرة عند ملوك هذه الدولة الاسلامية وكان منهن والدات لعدد من السلاطين ومنهن بثينة والدة السلطان محمد الغنى بالله ، ومريم وائدة السلطان اسماعيل الثانى ، وبهار والدة يوسف الأول وعلوة والدة السلطان محمد الرابع وشمس الدولة والدة السلطان نصر أبى الجيوشى .

ولم يمنع النصارى من بناء كنائسهم فى غرناطة بل لهم معابدهم حيث يقمون ويشار إلى وجود كنيسة بجوار قصر الحمراء ، وأنها كانت تحتفل احتفالا كبيرا بالاعياد النصرانية ، وخاصة الخميس المقدس ، كما كانت تقرع اجراسها باستمرار ، ويشير بن الخطيب عند حديثه عن أحياء غرناطه إلى انه كان إلى جانب فحص غرناطه ، كانت توجد صيغة يطلق عليها اسم " الكنائس "

المصادر و المراجع

١. أحمد الطاهر : عامة قرطبة ، منشورات عكاظ ، الرباط - المغرب ١٩٨٨ .
٢. أحمد مختار العبادى : محمد الخامس ملك غرناطة (بالاستانة) مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ١٢ ، مدريد ١٩٦٦ .
٣. الادريسى : نزهة المشتاق .
٤. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .
٥. ابن حيان الاندلسي : المقتبس ، السفر الخامس ، مدريد ١٩٧٨ - تحقيق شالمينا .
٦. حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
٧. دوزى : مع المسلمين فى الأندلس ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
٨. سعد عثمان : تاريخ اليهود فى الأندلس ، دراسة مقدمة لجامعة الإمام ، أبها ١٤٠٩هـ .
٩. سيمونيت : تاريخ المستعربين فى الأندلس (بالاسبانية) مدريد ١٩٠٣ .
١٠. عبادة كحالة : تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة ١٩٩٣ .
١١. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى ، بيروت ١٩٨٧ .
١٢. عبد الرحمن الحجى : أندلسيات ، دار الارشاد بيروت ١٩٦٩ .
١٣. عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، القاهرة ١٩٦١ .
١٤. عبد المحسن رمضان : تاريخ حركة المقاومة الاسبانية ، القاهرة - مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٧ .
١٥. ابن عذارى : البيان المغرب ، بيروت ، تحقيق كولان ، وليفى بروفنسال .
١٦. فيليب حتى : تاريخ العرب (بالاسبانية) مدريد ١٩٥٠ .
١٧. ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس
١٨. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .
١٩. محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس ، دار الفكر العربى العالمى ١٩٨٢ .
٢٠. محمد عبد الحميد عيسى : الفتح الاسلامى للأندلس ، مكتبة سعيد رأفت ١٩٨٥ .
٢١. محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٨٨ .
٢٢. المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ .

نسبة إلى وجود مجموعة من الكنائس النصرانية بها ويؤكد الدكتور العبادى تمتع اليهود بدرجة عالية من التسامح والمحبة من المسلمين .

ولم تخل غرناطة أيضا من اليهود ، ويؤكد د.العبادى نقلا عن المصادر العربية ، أنهم وأن تمتعوا بحماية ملوك غرناطة ، وحسن معاملة شعبها ، إلا أنهم كانوا يميزون عن المسلمين بالملابس الصفراء ، وكان لهم لباس رأس يختلف عن عامة المسلمين دون أن يعنى ذلك تمتعهم بكافة حقوق أهل الذمة وأن السلطان محمد الخامس قد بسط حمايته على التجار الأجانب دون نظر إلى أجنسهم أو دينهم فى الوقت الذى بدأ اليهود يتعرضون فيه للاضطهاد فى الممالك النصرانية التى سبق أن رحلوا إليها إلى درجة أن الملك الغرناطى محمد الخامس بعد هجومة على مدينة جيان حمل ثلاثمائة أسرة يهودية إلى غرناطة لحمايتهم من الملك القشتالى ايزيكى دى تراستمار Emrique de trastomar والذى كان عدوا لدوداً لليهود لأنهم ساعدوا أخاه بدرو Pedro ضده .

ولقد اعتبر كثير من اليهود الملك محمد الخامس ، المدافع الأول عن اليهود كما وجدوا فى غرناطة المأوى الآمن من الأضطهاد الذى بدأ يصب عليهم فى الممالك النصرانية وحينما سقطت دولة الاسلام فى الأندلس ، ذاق اليهود الأمرين ، وانتهى الأمر بطردهم نهائيا من هناك على يد الملكين الكاثوليكين فرناندوا وايزابيل .

والله ولى التوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإتجاهات الاسبانية حيال الحقبة الاندلسية

مقدمة :

شهدت سنة ١٩٩٢ من التاريخ الميلادى مرور خمسمائة سنه على ذلك الموقف الذى سالت فيه دموع أبى عبدالله الصغير آخر ملوك غرناطة وهو يسلم مفاتيح قصر الحمراء إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل . ملكى قشتالة وأراغون ، منهياً بذلك الوجود الرسمى لدولة الإسلام فى الأندلس فى الثانى من شهر يناير ١٤٩٢ م.

ولقد تحركت جهات كثيرة فى العالم منذ سنوات طويلة للإعداد لهذه المناسبة متخذة من الأسباب والذرائع ما يمكنها من إلقاء الضوء على ما يعنيها من هذ المناسبة ، مجسدة بحق أو بغير حق بعض الجوانب التى تبرز دورها فى الحضارة الأندلسية.

ومما يؤسف له ، أن المسلمين أصحاب هذه الحضارة وصناعها هم آخر من يحاول إعطاء هذه المناسبة حقها من الدراسة والإستيعاب ، ولولا بعض المبادرات مثل مؤتمر الدراسات الموريسكية الذى عقد فى تونس فى نوفمبر عام ١٩٩١ ، وهاتان الندوتان اللتان يعد لهما فى جامعة عين شمس بالقاهرة ، ومكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض لمرت تلك المناسبة دون أن تحرك عند المسلمين هاجساً أو أن تعلمهم شيئاً.

ان درس التاريخ الأندلسى عظيم ومهم ، كما كان هذا التاريخ عظيماً ومهماً ، ولقد أصبح هذا التاريخ محل تنافس يتسابق إلى الفوز به كل من أصحاب الديانات السماوية الثلاثة ، ويسعى المسيحيون واليهود بكل وسيلة إلى إثبات أن لهما - إلى جانب المسلمين - الفضل الأكبر فى تكوين هذه الحضارة.

ومن الطبيعى أن يكون الأسبان الأكثر إهتماماً بهذا التاريخ وهذه الحضارة من غيرهم ، ولقد كان إستعدادهم للإحتفاء بعام ١٩٩٢ كبيراً ، وأعدوا له عدتهم منذ عشرات السنين ، حتى أصبح هذا العام بحق هو "عام أسبانيا" (١)

الهدف من البحث :

يحاول الباحث أن يقدم صورة لتطور الفكر الأسبانى تجاه الحقبة الأندلسية ، لأنه مما لا يمكن الشك فيه أن هذا الفكر قد تباين فى نظرته من عصر إلى عصر ، وحدثت تطورات أدت إلى ظهور مدارس مختلفة يحاول كل منها أن يرسم صورة متباينة لتاريخ المسلمين فى الأندلس.

كما أن مرور القرون الطويلة وغير ذلك من التطورات العلمية العالمية قد أجبر الأسبان على تغيير وجهات نظرهم فمن التعصب الشديد جداً ضد هذه الحضارة إلى حد التصالح معها بل والإندماج فيها إن لم يمكن الإستئثار بها والسيطرة عليها وتتبع خطوات الفكر الأسبانى وتطوره فى هذا المجال يعد أمراً شاقاً للغاية على الأقل من حيث الإستقصاء والتحليل ، ولكن ما يمكن التأكيد عليه أن الخطوط العامة التى أمكن الإمساك بها تكفى للدلالة الواضحة على ما تهدف إليه من إعطاء القارئ المسلم صورة واضحة لموقف البحث الأسبانى حيال هذه الحقبة الأندلسية.

مصادر البحث :

إعتمد البحث فى الدرجة الأولى على المؤلفات الأسبانية سواء ما كان يتعلق منها بالتاريخ الأسبانى العام مثل المجموعة الكبرى "تاريخ أسبانيا "Historia de España" والتى أشرف على إصدارها العلامة الأسبانى "مينينديث بيدال Menindez Pidal أو المؤلفات التى خصصت للتاريخ الإسلامى أو لفترة الوجود الأسبانى على أرض شبه الجزيرة ومن ذلك مؤلفات المستشرق سيمونيت Simonit أو مؤلفات "مدرسة المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية مثل خوان بيرنيت Juan Vernet أو تلك الكتب التى تناولت تأثير المسلمين ودورهم فى تكوين الشخصية الأندلسية ، وأهم هذه الكتب مؤلفات "أميركو كاسترو Americo Castro وسانشيث البرنوس Sanchez Albornoz.

ومن ناحية أخرى رجع البحث إلى بعض المؤلفات العربية التى تعرضت لمثل هذه الموضوعات ومنها مؤلفات الأستاذ الدكتور حسين مؤنس والأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة والأستاذ المرحوم محمد عبدالله عنان ،والدكتور الطاهر احمد مكى ، والاستاذ جلال مظهر وغيرهم.

عرض تاريخى :

بدأ الوجود الإسلامى على أرض الأندلس منذ أرسل موسى بن نصير جيشاً كبيراً بقيادة طارق بن زياد عام ٩٢ هـ / ٧١١ م تمكن من عبور جبل طارق والإنتصار على القوط بقيادة الملك لذريق فى

معركة وادي لكة ، وأعقب هذ المعركة تمكن القوات الإسلامية من كثير من المدن الأندلسية الهامة إلى أن وصلوا إلى العاصمة القوطية - مدينة طليطلة Toledo - وإستولوا عليها.

وفى عام ٩٣ هـ / ٧١٢ عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش كبير ينيف على ثمانية عشر ألفاً من الجند تمكن به من إخضاع بعض مدن غرب الأندلس ومنها أشبيلية وماردة ، ثم إتجه بعد ذلك للقاء طارق بن زياد بالقرب من مدينة طلبيرة وذلك عام ٩٤ هـ / ٧١٤ م.

إتجه القائدان موسى وطارق بعد ذلك إلى فتح شمال شرق وشمال وشمال غرب شبه الجزيرة . وحققا نجاحاً عظيماً جداً ولم يتبق أمامهما إلا أقصى الشمال الغربى حين استدعاهما الخليفة الوليد ابن عبدالملك للعودة إلى دمشق فعادا عام ٩٥ هـ / ٧١٥ م وتركا على الأندلس واليا الأمير عبدالعزيز بن موسى بن نصير.

ولقد تحولت بلاد الأندلس بسرعة كبيرة جداً إلى اللغة العربية والإسلام وظلت أجزاء كبيرة منها تعتز بعروبتها وإسلامها إلى أن تمكن الملكان الكاثوليكيان فرناندو Fernando وإيزابيل Isabelمن الإستيلاء على غرناطة - أخر معاقل المسلمين فى الأندلس : عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م.

يقسم المؤرخون هذه الحقبة الزمنية الطويلة إلى فترات تاريخية مميزة وإن لم تكن متساوية من الناحية الزمنية . فهناك فترة الولاة من الفتح الإسلامى إلى مجئ عبدالرحمن الداخل ونجاحه فى الوصول إلى سدة الحكم فى قرطبة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م مبتدئاً بذلك عصراً تاريخياً جديداً يعرف بالامارة إلى أن قام الأمير عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف تاريخياً بعبدالرحمن الثالث بإتخاذ لقب "أمير المؤمنين" وتسمى الناصر لدين الله وذلك فى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م وبذلك بدأ عصر الخلافة فى الأندلس.

وظل عصر الخلافة قائماً إبان باقى القران الرابع الهجرى كله / العاشر الميلادى إلى أن حدثت الفتنة الكبرى التى إنتهت عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م بالقضاء على الخلافة الأموية فى الأندلس ، وتقسم البلاد إلى عدد من الممالك والدويلات عرفت تاريخياً بإسم "ممالك الطوائف".

- عاشت ممالك الطوائف فى الأندلس حوالى الستين عاماً شهدت البلاد خلالها مجموعة من الأحداث الهامة ، أشهرها ضياع مملكة طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وإستيلاء الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة عليها ، كما أنها شهدت أول دخول للمرابطين إلى الأندلس وتحالفهم مع ملوك الطوائف ضد القشتاليين فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م والتى أحرز المسلمون فيها نصراً عظيماً غالياً ، ولكنهم لم يتقدموا لإسترداد طليطلة.

إعتباراً من عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م بدأت بلاد الأندلس مرحلة جديدة من تاريخها تحت أمرة المرابطين ، وغدت جزء من دولة المرابطين فى إفريقية والأندلس.

وتلى عصر المرابطين الموحدون ، حين نجح الأمير عبدالمؤمن بن على فى إسقاط دولة المرابطين فى المغرب ثم فى الأندلس عام ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م . وكان الصراع شديداً بين الموحدين ومسيحيى الشمال، وتمكن الموحدون من الحفاظ على ماكان بأيديهم من أرض الأندلس قريباً من قرن من الزمان حتى كانت معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م التى كانت خسارتها بالنسبة للمسلمين كبيرة ونتائجها خطيرة (٢).

أعقب معركة العقاب تدهور سريع للدولة الموحدية ، وإنتزع مسيحيو الشمال الكثرة الغالية من أراضى الأندلس ، وسقطت فى أيديهم معظم الحواضر الإسلامية الكبرى كبلنسية ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ وجيان ، وقرطبة الحاضرة التليدة عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م وأشبيلية عاصمة الموحدين عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م.

تقلصت دولة الإسلام فى الأندلس فى إقليم صغير ضمته مملكة إسلامية صغيرة هى مملكة غرناطة والتى تمكنت من الصمود فى مواجهة عاصفة الزحف الأسبانى على البلاد الأندلسية وذلك من حوالى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وظلت صامدة ، مقاتلة أحياناً ومعاهدة فى أحيان أخرى ، حتى تمكن الأسبان من الإستيلاء عليها وإسقاط دولتها عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م.

أما من الناحية الحضارية فلقد تطورت الأندلس فى ظل الإسلام تطوراً تدريجياً مطرداً منذ الفتح حتى وصلت إلى قمة درجات سموها وإرتقائها فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وهو عصر الخلافة فى الأندلس ، والذى يطلق عليه "العصر الذهبى للمسلمين فى الأندلس" وقد بلغت فيه العاصمة قرطبة الغاية (٣).

كما كان القرنان الخامس والسادس من الهجرة عظيمين حضارياً رغم ما فيهما من ضعف سياسى ، وفيهما برزت مجموعة من أبرز الشخصيات الحضارية الفكرية والدينية والعلمية ، وتكفى الإشارة إلى أسماء لامعة مثل المؤرخ خالد الصيت إبن حيان الأندلسى صاحب المقتبس ، وابن بسام الشنترينى وكتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة أو الإشارة إلى الشاعرين الخالدين ابن زيدون وابن عمار ، وإلى اللغويين العظيمين أبوبكر الزبيدى وابن سيده (٤) والى المحدثين المعروفين ابن عبدالبر القرطبى الذى يعد من أكبر المحدثين فى غرب الإسلام كله حسب شهادة ابن بشكوال له ، (٥). وأبو الربيع سليمان بن موسى الكلابى المتوفى سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ والذى كان من أكابر أهل العلم حسب

شهادة المراكشي له . (٦) ومن الفلاسفة ابن طفيل وابن رشد ، والفقهاء أبى الوليد الباجي والقاضي أبوبكر من العربي وغيرهم من الأطباء والرياضيين والكيميائيين والنباتيين والفلكيين الذين ملئوا الدنيا علماً وتأليفاً. (٧)

وخلال هذين القرنين أيضاً سقطت أجزاء كثيرة من البلاد الأندلسية فى أيدى نصارى الشمال وبالتالى وقعت في أيديهم ذخائر التراث الإسلامى المحفوظة بالمكتبات الأندلسية . فعمدوا إلى الإقتباس منها ، وتحول عدد من مدن الأندلس السابقة إلى مراكز للترجمة حيث عمل عدد من علماء المسلمين والمسيحين واليهود إلى نقل هذه الذخائر القيمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ، وتبوأت مدينة طليطلة مركز الصدارة فى هذا المجال ، وإليها هرع الدارسون الأوربيون لتلقى العلم، وأصبحت بلاد الأندلس أوسع معبر عبرت عليه الحضارة الإسلامية إلى أوربا العصور الوسطى ، وعلي ما نقله الأوربيون من علوم وضعت أسس الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة.

هذه هى الملامح العامة التى جعلت جهاتٌ كثيرة فى العالم تتسابق إلى أن تنسب لنفسها بحق أو بغير حق رصيداً ساهمت به فى صنع هذه الحضارة وكما قلت فإن الأسبان كانوا الأكثر إهتماماً بهذا التاريخ وهذه الحضارة ولنلق نظرة الآن على تطور وجهة نظر المؤرخين الأسبان والمتخصصين منهم فى الدراسات العربية حيال الحضارة الإسلامية فى الأندلس.

مدارس الفكر الأسبانى المتصلة بالتاريخ العربى والإسلامى :

إنقسم الدارسون والباحثون الأسبان المهتمون بالدراسات الأندلسية إلى عدة مدارس.

الأولى : ما يطلق عليه فى عالمنا الإسلامى عامة إسم مدرسة المستشرقين (٨) حيث نضع فى سلة واحدة كل المهتمين بالداسات العربية والإسلامية من الغربيين . بينما هم فى أسبانيا يقصرون إسم "المستشرقين Orientalistas فى معظم الأحوال على المتخصصين فى الدراسات الشرقية وخاصة بلاد الشرق الأقصى بدءاً من جنوب آسيا وشرقها إلى اليابان.

وإرتباط هذه المدرسة بالدراسات العربية والإسلامية إرتباط غير قوى وإتجاهات الباحثين فيها لا يركز على المنطقة العربية إلا بقدر العلاقة بين تاريخ هذه المنطقة وتاريخ منطقة الشرق الأقصى علاوة على وجود بعض العلماء موسوعى المعرفة ممن يهتمون بتاريخ وحضارة المنطقتين ، ومن هؤلاء الأب باريخا (1983 - 1890) Felix Maria Pareja casanas والذى كان يشغل لسنوات طويلة مدير مكتبة المعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد EL Instituto Hispano - arabe de Cultura وكذلك رئاسة جمعية المستشرقين الأوربيين (٩) .

ثانياً : المتخصصون فى الدراسات العربية "المستعربون" Los arabistas

وهو التعبير الذى يستخدمه الأسبان للإشارة إلى الدارسين والباحثين والمتخصصين فى مجال دراسات العالم العربى . ورجال هذه المدرسة يعرفون اللغة العربية بدرجات متفاوتة من الإجادة ، وغالبيتهم قد زاروا البلدان العربية وعملوا فيها وتتوزع تخصصاتهم وأبحاثهم على جميع مجالات البحث فى العالم العربى فمنهم من يركز أبحاثه فى مجال التاريخ الأندلسى ، وبعضهم فى تاريخ الإسلام بصورة عامة ، وهناك من جعل ميدان دراساته فى الأدب العربى فى عصوره المتباينة منذ ما قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، ناهيك عن الإهتمام بباقى المجالات العلمية ، والحياة الإقتصادية والإجتماعية ، وتطورات الحياة السياسية إلى أن نصل إلى دراسة اللهجات واللغات المحلية ، والأقليات العرقية.

ويجب أن نتنبه إلى أهمية التفرقة بين هذا التعبير الذي استخدمته فى ترجمة معنى الكلمة الأسبانية Los arabistas كمصطلح يشير إلى الباحثين فى مجال الدراسة العربية ، وبين المصطلح التاريخى "المستعربون" والذي شاع إستخدامه فى الكتابات التاريخية للدلالة على المسيحين الأندلسيين الذين عاشوا فى المجتمع أندلسى ، وتشبعوا بعاداته وتقاليده ، وتحدثوا لغته حتى أصبحوا جزء من نسيجه العام وهؤلاء يطلق عليهم فى اللغة الأسبانية لقب Mozarabes أى المستعربون .(١٠)

ثالثاً المتخصصون فى الدراسات الإسلامية Islamologos :

ويطلق هذا الإسم على الباحثين الذين يركزون أبحاثهم ودراساتهم فى مجال العقيدة الإسلامية ، واشتغل فى هذا المجال بالدرجة الأولى الرهبان والقساوسة وخاصة من طائفة الجيزويت ، ومن الطبيعى أن يرتبطوا إرتباطاً وثيقاً بالمتخصصين فى الدراسات العربية ، ويمكن إدراجهم ضمن إطارهم ، وإن كانت حلقتهم أكثر إتساعاً لأنها تمتد لدراسة الظواهر الإسلامية فى البلاد العربية وغير العربية - ومن أبرز المعاصرين من هؤلاء الأب سلفادور غوميث نوغاليث Salvador Gomez Nogales والذى ركز دراساته كلها على عالم الكلام عامة والفلسفة الإسلامية خاصة . (١١)

رابعاً : المؤرخون الأسبان Los Historiadores : وتضم هذه الجماعة العاملين فى حقل الدراسات التاريخية الأسبانية بوجه عام سواء فى فترات التاريخ القديم أو الوسيط أو الحديث والمعاصر، ويهتم بتاريخ الأندلس منهم ، المتخصصون فى تاريخ العصور الوسطى.

وهذه الطائفة من الباحثين الأسبان لا علاقة لها بالدراسات العربية والإسلامية من ناحية حظهم

الدراسي العام ، ويعتمدون عند كتاباتهم عن أسبانيا الإسلامية خاصة والعالم العربى والإسلامى عامة على ما يكتبه رجال المجموعتين الثانية والثالثة السابق الإشارة إليهما.

وتكمن أهمية هذه المدرسة التاريخية الأسبانية فى أن آرائها هى الأكثر إنتشاراً ، كما تعمل كتاباتها ومؤلفاتها على صياغة العقل الأسبانى وهؤلاء هم الذين يصيغون الكتب المدرسية والمؤلفات العامة أو على الأقل تصاغ هذه الكتب وهذه المؤلفات إعتماداً على كتاباتهم ومن ثم كان تأثيرهم الحاسم فى صياغة الفكر الأسبانى تجاه الحقبة الإسلامية على أرض الأندلس.

ومن أبرز المؤرخين الأسبان الذين أثروا بشكل مباشر فى صياغة الفكر الأسباني فى حيال الحقبة الإسلامية وأهميتها فى تشكيل الوجدان والمزاج الأسبانى نجد أميركوكاسترو Americo castro وسانشيث البرنوس Claudio Sanchez Albornos واللذان سنشير إليهما فيما يلى من صفحات.

مما يجب وضعه نصب أعيننا بإستمرار أن وجهة النظر الأوربية تجاه الإسلام والمسلمين قد تشكلت عبر فترات تارخية طويلة كان الجهل بالإسلام والعداء له هما السمتان البارزتان في العلاقة بينهما ولقد تجلى ذلك فيما عرف فى العصور الوسطى بالحروب الصليبية وفى العصور الحديثة بالإستعمار السياسى أو غيره من الأشكال الإستعمارية المعروفة.

لكن مما يجب أن نضعه نصب أعيننا أيضاً أن ذلك لم يكن موقف جميع الأوربيين ، أو أن ذلك كان هو الموقف فى كل وقت ، ولكن تباينت وجهة النظر الأوربية من فترة زمنية أخرى ومن جماعات من العلماء إلى غيرهم.

ولقد كان التعصب الأسبانى ضد الإسلام والمسلمين شديداً جداً ورغم أنه لم تكن لدى الأسبان وتعصبهم الدوافع الإستعمارية التى كانت خلف كتابات المستشرقين الآخرين فى غرب أوربا ، إلا أنهم كانوا شديدو التعصب بل وأكثر تعصباً من بعض المستشرقين فى الغرب الأوربى.

ويرجع ذلك التعصب الأسبانى إلى أنه إذا كانت أوربا قد رأت فى الإسلام عدواً بعيداً نسبياً ، فقد كان هذا العدو بالنسبة للأسبانى قريباً يساكنه نفس الدار ، بل ويرى فيه مغتصباً لأرضه ذاتها. (١٢)

التطور التاريخي للفكر الأسباني تجاه المسلمين في الأندلس :

لقد مر هذا الفكر بمراحل ثلاث أساسية فى نظرته لفترة الوجود الإسلامى فى الأندلس على النحو التالى :

أولاً : النظرة الأسبانية خلال القرون الممتدة من القرن السادس عشر الميلادى إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، وهى نظرة إتسمت بالتعصب الشديد والكراهية العميقة ضد الإسلام والمسلمين ، وهى أيضاً الفترة التى شهدت أبشع عملية تطهير عرقي وتهجير قسرى فى التاريخ الحديث حين قررت أسبانيا طرد الموريسكيين من أراضيها بصورة لم يسبق لها مثيل ، مما خلق مأساة إنسانية حقيقية ليس هنا المجال للحديث عنها . (١٣)

ولقد كانت الكتابات الإسبانية فى غالبيتها العظمى إن لم تكن جميعها تتسم بروح واضحة من الكراهية تساوت فى ذلك كتابات المؤرخين أو كتابات بعض من كانت لهم بعض المعرفة بالتاريخ العربى والإسلامى ويكفى للدلالة على كتابات تلك الفترة شهادة العالم الأسبانى باسكوال جايانجوس Pascual Gayangos والذى صدر مقدمته لكتاب نفح الطيب إلى اللغة الإنجليزية بتحذير يبين فيه خطأ مؤلفى هذه الحقبة ، فقال :

"ان ماريانا mariana وأكابر المؤرخين الأسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق ، أو نزعة تعصب دينى . لقد أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب ، فكانوا يرفضون وسائل البحث التى تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التى قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . ولقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى مايزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركاً من الانحرافات والمتناقضات. (١٤)

ولقد ظلت بقايا آراء هذه المدرسة المتعصبة حية فى نفوس بعض المؤرخين الإسبان حتى منتصف القرن العشرين ، وربما حتى يومنا هذا ، على الرغم من تغير المناخ العام وتقدم الدراسات الأخرى التى لم تجد مناصاً من الاعتراف بفضل الإسلام والمسلمين ودورهم فى تكوين الفكر الإنسانى عامة والأسبانى خاصة.

وأكبر ممثلى هذه المدرسة هو المستشرق "سيمونيت Simonet " والذى يصفه الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة وهو على حق فى ذلك بقوله :

" ان سيمونيت ، مستشرق أسبانى كاثوليكى ، شديد العصبية لقومه ، بذئ اللسان ، عميق الحقد على الإسلام والمسلمين ، وتحمل كتاباته شحنة مكثفة من الكراهية الشديدة للإسلام وحضارته مع إنكار كامل لمنجزات الحضارة العربية الرفيعة التى شهد بفضلها أعداؤها قبل أصدقائها (١٥)

ولقد تجلت الروح العدائية عند سيمونيت فى كتابه الذى ألفه عن المستعربين الأندلسيين ، والمسمى فى الأسبانية

La historia de los mozarabes de España

ومن السهولة التعرف على الهدف من تأليف الكتاب بمجرد قراءة العنوان "تاريخ المستعربين فى أسبانيا" ومن مطالعة أول سطوره وصفحاته والتى حاول من خلالها أن يصبغ التاريخ الأسبانى كله من خلال نشاط تلك المجموعة التى لولا سماحة الإسلام لما عاشت محتفظة بدينها وعاداتها وتقاليدها رغم وجودها وسط المجتمع الإسلامى يحاول "سيمونيت" ذلك ، ومن ثم يمكن لنا أن نستنتج بسهولة شدة أحكامه المسبقة على الإسلام والمسلمين وخاصة على فترة الوجود الإسلامى على أرض أسبانيا ، والذي يستخدم فى الدلالة عليه لفظ "السيطرة" أو التحكم La Dominacion Islamica ، فيقول فى صدر هذا الكتاب المشار إليه :

ان هدفنا كتابة تاريخ هؤلاء الأسبان الذين أخضعوا للإسلام ، والذين تمكنوا ، دون معاهدات تحميهم ، من الإحتفاظ دائماً وعلى مدى قرون طويلة من الإحتفاظ بدينهم ، وبروحهم القومية ، وبالثقافة العريقة لأسبانيا الرومانية والقوطية والمسيحية ، وقاوموا بكل جلد وصلابة الكثير من التعذيب والإضطهاد والمطاردة وعظيم المصائب . وهم هؤلاء الذين من أجل ذلك كله إستحقوا عاطر الثناء والمديح والإطراء ، وأن نرفع الأيدى بالتحية والتقدير لهؤلاء الأبطال ، الأساتذة ، الشهداء ، الذين ساهموا بما قدموه فى صياغة وتقدم أسبانيا الجديدة. (١٦)

وفى كتاب سيمونيت تحامل شديد على الإسلام والمسلمين ، ولقد تولى الرد عليه المؤرخون المسلمون من أمثال الأستاذ محمد عبدالله عنان فى كتابه القيم "دولة الاسلام فى الأندلس ، كما خصه الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة بنقد شديد فى كتابه "المغرب والأندلس" آفاق إسلامية وحضارة إنسانية من ص ٩١ إلى ١١٢.

كما يعترف الأسبان بتحامل سيمونيت الشديد ، ويرون أنه قد سيطرت عليه الكاثوليكية سيطرة كاملة فى كل أجزاء كتابه ، حتى ليعد سيمونيت كاثوليكياً قبل أن يكون مستعرباً أو أن يكون أستاذاً أو أن يكون أى شئ آخر." (١٧)

ولم يكن سيمونيت وحده المتحامل بهذا الشكل بل كان هناك أيضاً من بين المؤرخين الأسبان من يشاكله رأياً ومن هؤلاء نجد مؤرخاً مثل Policarpo Mingote Y tarazan فى كتابه تاريخ أسبانيا Historia de España الصادر فى "ليون Leon " عام ١٨٨١ تتجلى كراهيته فى الصفة التى يتحدث فيها عن الفتح الإسلامى للأندلس حيث يقول :

" إنه فى بدايات القرن الثامن الميلادى ظهر فى أسبانيا غزاة جدد من شعب يطلق عليه "المسلمون" وهم خليط من القبائل الإفريقية ، والآسيوية ، والفرس والمصريين ، والنوبيين ، والبربر ، والعرب وهؤلاء هم الذين كانت لهم السيادة على العناصر الأخرى بإعتبارهم العنصر الأكثر ذكاء وخيالاً ، وان لم يكن الأكثر عدداً.

إنهم الجنس السامى الذى جاء يفرض حضارته على الجنس الآرى، تلك الحضارة التى مثلها القرآن ، وصبغت بأقوال محمد ، ولم تجد لها فى أرضنا منفذاً ولا قبولاً. (١٨)

ومؤرخ آخر ينتمى إلى بدايات القرن العشرين أيضاً هو خوسيه مورو José Muro فى كتابه تاريخ أسبانيا ، الصادر في مدريد ١٩٠١ تتجلى كراهيته وعدائه فى التركيز على جوانب يود أن يبرز منها نقائص فترات الوجود الإسلامى فى الأندلس ، كما يصدر أحكاماً قاسية على بعض أمراء بنى أمية ومن ذلك وصفه للأمير الحكم الربضى (١٨٠/٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) : ان عطشه الدائم للدماء لم يكن يروى أبداً ، وكان ذلك سبباً فى موت مئات الضحايا فى طليطلة (١٩).

وأن وصف عبدالرحمن الأوسط بأنه كان "والد المساكين" إلا أنه يستطرد عقب ذلك قائلاً أنه كان ضعيف الشخصية ، أسلم قياده الى شخصيات تمكنت من تغيير طبيعته الطيبة . لكى يتحول إلي شخصية متشددة بل ووحشية مع المسيحيين ، حتى أصبح عصره معروفاً فى التاريخ "بعصر الشهداء". (٢٠)

وفى هذه العبارة تجنياً شديداً على عبدالرحمن الأوسط ، لأن المؤلف هنا يخلط بين الفتنة التى قام بها مستعربو قرطبة والتى عالجها الأمير عبدالرحمن الأوسط معالجة حكيمة سنشير اليها فى الصفحات التالية ، وبين ما يعرف "بعصر الشهداء" الذي تعرض له المسيحيون إبان عصر الإمبراطور الوثنى الروماني ديقليديانوس.

وحتى الربع الأول من القرن العشرين نجد مؤرخاً أسبانياً إسمه "لويس دي أركو Luis de Arco فى كتابه "تاريخ الحضارة الأسبانية Historia de la Civilizaciou Española والصادر فى مدريد عام ١٩٢٧ م يتناول الحضارة الإسلامية فى أسبانيا بهذه الكلمات :

يجب علينا عند عرضنا لثقافة وحضارة العرب في أسبانيا بصورة عامة أن نلفت النظر إلى أن أصولهم تنتمي إلى أقاليم متوحشة وغير متمدينة مثل أفريقية التي جاء العدد الأكبر منهم إلى بلادنا ، وأنهم وصلوا إلى أسبانيا وهم في حالة من الخمول والخواء الفكرى ، حتى أنهم أعجبوا أيما إعجاب بحضارتنا وثقافتنا بل وبصورة عامة بتشريعاتنا ونظمنا وبفنوننا الجميلة . وأنهم عملوا على تشرب هذه الحضارة وإقتباسها ، واستفادوا منها في بناء حضارتهم وثقافتهم فيما بعد ذلك. (٢١)

وما تزال لرنة الأسى هذه بعض الصدى في الكتابات التاريخية الأسبانية المعاصرة إلى يومنا هذا وإن خفت حدتها كثيرا جداً - فمثلاً الدكتور لويس سواريث فرنانديث Luis Suaraz Fornandez في كتابه عن تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى Historia de España en la Edad media" يبدى أسفه على ضياع أسبانيا وسقوطها في أيدى المسلمين ويتجلى ذلك عند حديثه عن الفتح الإسلامي للأندلس فيجعل عنوانه "ضياع أسبانيا La perdida de Espana . ويرى : بأن الفكرة القائلة بأن معركة وادى لكة كانت ضربة قاضية مدمرة لوحدة أسبانيا التى نجح القوط في تحقيقها ليست جديدة عند المؤرخين : لقد برزت هذه الحقيقة في المدونة المستعربة La Cronica mozarabe ، أى أنها ظهرت في أعقاب الغزو ، وبعد سنوات قليلة من الهزيمة" (٢٢)

يستعرض سواريث الأحداث الداخلية والمؤامرات التى كانت تحاك في إلبلاط القوطى قبل الإسلام مما أدى إلى الهزيمة في معركة وادى لكة التى لقيت فيها المملكة القوطية مصرعها تماماً ، ويسعى إلى تبرير الهزيمة بإرجاعها إلى الأسباب الداخلية ، وإلي المشاكل التى كانت في البلاط الملكى ، ويؤكد أن كثيراً من المؤرخين والشعراء والكتاب قد أشاروا إلى كثير من الثورات الداخلية وإلي الفساد المتفشى في المملكة القوطية وإلي العيوب الشخصية التى بدت بين آخر الملوك القوط، حتى انه لم يكن في إمكان إحد أن يتخيل أن هذا البلاط لايمكنه الصمود أمام الهجمة الإسلامية ، لأنه كان يبدو قبل ذلك بثلاثين عاماً قوياً وصامداً. (٢٣)

ومما يلاحظ على تلك الفترة الشديدة التعصب ضد الإسلام عامة والفترة الأندلسية خاصة ، والتى إمتدت خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر من الميلاد ، عدم الإلتفات إلى المصادر العربية أو ظهور متخصصين مجيدين للغة العربية يمكنهم أن يقدموا للمؤرخين الأسبان مادة علمية أو حقائق تاريخية معتمدة على ماكتبه الأندلسيون خاصة أو المسلمون عامة.

ولعل ذلك كان من الأمور الطبيعية لأن هذه القرون الثلاثة هى التى شهدت الكثير من مظاهر مقاومة الآثار الباهرة القوية المتبقية من فترات الحكم الإسلامى في الأندلس . فلقد شهد القرن

السادس عشر الميلادى مطاردة شديدة للفكر العربى الإسلامى الأندلسى تمثل فى احراق الكتب والمخطوطات المكتوبة باللغة . وتولى الكاردينال ثيسنيروس El cardinal Cisneros إحراق عشرات الآلاف من الكتب العربية الهامة . (٢٤) كما شهد القرن السابع عشر طرد مئات الآلاف من المور يسكيين ، بقايا المسلمين فى الأندلس بعد الإستيلاء على غرناطة ، إلى خارج أسبانيا ، وتعرض هؤلاء إلى أسوإ عملية إبعاد جماعى عن أرضيهم ووطنهم خلال العقد الأول من القرن السابع عشر الميلادى . (٢٥) ، وأخيراً وليس آخراً كانت هذه هى عصور نشاط محاكم التفتيش فى إسبانيا ، والتى تسببت فى إرهاب شديد لكل ما كان ينتسب إلى الفترة الإسلامية فى الأندلس. (٢٦).

تبدأ المرحلة الثانية من تطور وجهة النظر الأسبانية تجاه الحقبة الإسلامية فى الأندلس مع نهايات القرن الثامن عشر الميلادى وبدايات القرن التاسع عشر من الميلاد ، وذلك بظهور المؤرخ الأسبانى خوسيه أنطونيو كوندى José Antonio Conde والذى يعده جميع المؤرخين أول من لفت الأنظار إلى أهمية المؤلفات العربية فى صياغة التاريخ الأسبانى ، وكان كتابه عن السيادة العربية فى أسبانيا La historia de la Dominacion arabe en España من الكتب التى أثارت جدلاً عالمياً ، وحركت ضده نقداً مريراً تزعمه المستشرق الهولاندى رينهارت دوزى Reinhart, P. Dozy ونفراً من غلاة المتعصبين الأسبان مما أعطى للكتاب شعبية كبرى وجعل موضوعاته وأخباره محلاً للدراسة والتحليل حتى يومنا هذا .

ولد خوسيه أنطونيو فى ١٧٦٦م ، وتدرج بعد ذلك فى الوظائف الجامعية حتى أصبح أستاذاً لكرسي الدراسات العبرية ، ثم الإغريقية ثم العربية . وعضواً بالمجمع الملكى للغة والأكاديمية الملكية للتاريخ فى أسبانيا.

لم يسلم كوندى من مضايقات محاكم التفتيش فقضى شطراً من حياته هاربا فى فرنسا أو مختفيا فى مدريد وعين أمينا عاماً للمكتبة الملكية عام ١٧٩٥ وظل يشغل هذا المنصب عشرين عاماً إستفاد منها فى الإطلاع على المخطوطات العربية وفى تأليف كتابه الذي لم يظهر الجزء الأول والثانى منه الا عام ١٨٢٠ أما الثالث فلم يصدر إلا بعد وفاة كوندى عام ١٨٢٠ م . ولعل تلك الحياة المضطربة والموت المفاجئ لكوندى هما اللذان لم يسمحا له بمراجعة مؤلفه وتسببا فى وجود الكثير من الأخطاء التى جعلته عرضة للنقد الشديد ، والذى خفت حدته كثيراً في الفترة المعاصرة ، أو على الأقل أصبح هناك تفهما لبعضها ، إذا وضعنا فى الإعتبار أن هذه هى المرة الأولى التى يحاول فيها مؤرخ أسبانى الإعتماد على المصادر العربية فى رسم صورة للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، صورة وان لم تكن كاملة فى كل جوانبها فهى على الأقل إبتعدت عن المدونات المسيحية والكنسية والتى

كانت بطبعها متحاملة جداً على الحضارة الإسلامية والأندلسية لقد ترجم كتاب كوندى إلي معظم اللغات الحية ، كما أصبح مرجعاً أساسياً بالنسبة للمؤرخين الاسبان فيما يتعلق بالمسلمين فى الأندلس حتى أنهم لفترات طويلة إقتصروا على النقل منه أو الإنتحال والإقتباس . وبصورة عامة أصبح كتاب كوندى - بما فيه من أخطاء - الأساس لأيه معلومة يرغب الحصول عليها حول العرب فى الأندلس سواء كان ذلك فى مجال التاريخ أو فى المجال الأدبى (٢٧)

إذا كان خوسيه أنطونيو كوندى ، المتوفى ١٨٢٠ م هو الذى فتح الباب أمام الدراسات العربية فى أسبانيا ، فإنه يمكننا القول بكل ثقة بأن العالم الاسبانى باسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayngos هو المؤسس الحقيقى لمدرسة الدراسات العربية الجديدة فى أسبانيا ، والتى بدأت فى إتخاذ مواقف مخالفة لما كان سائداً خلال القرون الماضية ، كما كون مجموعة من الدارسين الهمهم الحساس والمحبة ودفعهم إلى العمل في حقل الدراسات العربية على مايقول "دوجا" M.Dugat.(٢٨).

ولد جايانجوس عام ١٨٠٩ م ، وبدأ حياته العلمية الجادة فى باريس علي يد العالم الكبير المستشرق "سيلفستر دى ساس Silvester de Sacy ، كما تزوج من إنجليزية حملته فيما بعد على الاقامة فى إنجلترا حيث عمل لفترة من الوقت فى المتحف البريطانى British Museum وهناك عكف على ترجمة كتاب نفح الطيب إلى اللغة الإنجليزية وكان عنوانه :

History of the mohammedan dynasties,

وظهر الجزء الأول منه بلندن عام ١٨٤٠ م والثانى ١٨٤٣ م وقد مولت طباعته ونشره الجمعية الآسيوية La Sociedad Asiatica .

لقد كانت نشأة جايانجوس وتنقله بين فرنسا وزواجه من إنجليزيه ، من العوامل التى أعطته تفتحاً عقلياً جيداً وثروة علمية قيمة ومعرفة بعدد من اللغات الأوربية علاوة على لغته الأصلية ودراساته فى اللغة العربية.

لقد ساهم كل ذلك فى خلق عالم متنور ، متفتح الذهن ، مؤهلاً لفهم أبعاد الحضارة الإسلامية عامة والأندلسية خاصة ، فقام بعدة أعمال علمية جيدة للتعريف بهذه الحضارة ، ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أنه "لكى يزيد المستشرق الكبير الأقطار المتحضرة معرفة بتاريخ المسلمين فى أسبانيا ، فقد اختار واحدا من أهم وأكبر كتب تاريخ المسلمين الفكرى والأدبى فى الأندلس ، وهو كتاب نفح الطيب ، فترجمه إلى اللغة الإنجليزية ، وكان الأيسر عليه أن يترجمه إلى لغته الأسبانية ،

لكنه أثر اللغة الإنجليزية لعلمه أنها أوسع إنتشارا ، وأن الانتفاع بالكتاب عن طريقها سوف يكون أشمل وأعمق وأعم . (٢٩)

بالإضافة إلى ذلك فإن جايانجوس قد عاد إلى أسبانيا ، وأصبح عضواً بالأكاديمية الملكية للتاريخ فإنه قد أضاف إلى الفكر الأسبانى عشرات المقالات والأبحاث والكتب التي أظهرت لهم الكثير من الجوانب المشرقة للحضارة الأندلسية.

ونختتم حديثنا هنا عن ذلك العالم الأسبانى بأنه قد وضع الأساس المتين لقيام مدرسة جديدة فى الدراسات العربية ، أكملها من بعده طلابه ومحبوه، هذه المدرسة التى واصل العمل فيها تلميذه النجيب فرانثيسكو قوديرة، والذى ينقلنا معه الى الحديث عن الدراسات الأندلسية ووجهة النظر اليها فى الفترة المعاصرة فى اسبانيا. (٣٠)

ان ظهور خوسيه أنطونيو كوندى ، وباسكوال دى جايانجوس فى نهاية القرن الثامن عشر ، وبدايات التاسع عشر من الميلاد ، أظهر مرحلة جديدة تجاه الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، مرحلة شابها بعض الأخطاء ، أو يمكن أن نجد بعض التجاوزات ، لكنها - بلا شك - كانت مغايرة كثيراً لما كان قبلها ، وممهدة بكل تأكيد لفترة تالية لها هى التى سنشير إليها فيما بعد.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن نفس الفترة الزمنية قد شهدت أيضاً مولد تيار جديد عرف فى التاريخ الادبى الأسبانى بالرومانتكية Romanticismo أثار الخيال والشوق إلى دراسة الآداب العربية وما تحتويه من خيال ، وأدب وآفاق رحبة واسعة ، وكان رائد هذا التيار فى أسبانيا أحد الأدباء المعاصرين لجايانجوس والذى إرتبط به بصداقة عميقة زاد من متانتها محبتهما معاً للمؤلفات العربية ، ومخطوطاتها ، وهو الدكتور "سيرفين استبانيث كالدرون ، الذى عرف بالوحيد Serafin Estebanez calderon "el solitario".

ولد "سيرافين كالدرون فى مدينة مالقة الأندلسية ، وفى ربوع الأندلس أمضى طفولته ، حيث تنسم عبير الحضارة الأندلسية والذى كان مازال قوياً حتى ذلك الوقت فى تلك الأصقاع ، وشب مع رفيق دربه جايانجوس ومعهما ذلك الحنين والمحبة لذلك الماضى البعيد ، وإذا كان جايانجوس قد إتجه إلى المجالات العلمية والبحث العلمى فإن سيرافين قد ظل يلقى الأضواء على الجوانب الأدبية والخيالية فى المؤلفات العربية.

وكما ساهم جايانجوس فى تأسيس مدرسة للدراسات العربية جعلت هدفها دراسة التاريخ الأندلسي والحضارة الأندلسية إعتماداً على مصادرها العربية ، فإن سيرافين كالدرون قد ترك

مدرسة أدبية وفنية لا يمكن لها أن تنكر ، بل لعلها تتباهى بتأثرها الواضح بابداعات الخيال العربى عامة والأندلسى خاصة . (٣١)

ويمكن لنا أن نعتبر القرن التاسع عشر الميلادى قرنا تتأرجح فيه الآراء بين المتعاطفين والمعارضين مما مهد لظهور فترة جديدة تعطى الحضارة الإسلامية الأندلسية حقها وتبرز مواطن قوتها وجوانب إشراقها.

المرحلة الثالثة :

بدأت المدرستان الأسبانيتان فى الدراسات العربية اللتان رعاً غرسهما كل من جايانجوس واستبانيث كالديرون فى النمو والإزدهار حيث جذبتا إليهما عدداً من الباحثين الشغوفين الذين أثارهم ما قد بدأ بتكشف أمامهم من إبداعات الخيال العربى علاوة على المادة العلمية الجديدة ، والحقل الخصب الذى وجدوا أنفسهم بداخله ، فكان منهم خوسيه مورينو نيتو Jose Moreno Nieto الذى ولد ببطليوس ، وشب معجباً بالآثار العربية لهذه المدينة ذات التاريخ الإسلامى العريق ، وأجاد عدداً كبيراً من اللغات أهمها العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والبرتغالية ، والعبرية والسيريالية والإغريقية ، ولقد إستفاد من ذلك إستفادة واسعة وتمكن من أن يصبح أستاذا للغة العربية فى آتنيه مدريد El Ateneo de madrid، ويرى الأسبان أنه لولا عمله بالسياسة التى لم تترك له الكثير من الوقت ، لكان أطول قامه من دوزىDizy أو غيره من المستشرقين الأوربيين(٣٢).

ومن هؤلاء أيضاً اميليو لافونيتى دى الكنترا Emilio Lafuente de Alcantara وهو من أبناء مالقة ، تعلم على استيبانيث كالدرون ، وعشق الموضوعات العربية وألهب خياله ما كان بمالقة وأحوازها من عبق التاريخ ، وحز فى نفسه ذلك التجنى الهائل والجهل والتدمير الذى تتعرض له آثار المسلمين والظلم البين الذى يعانى منه تاريخهم فانتقد ذلك بشدة ، وكان عالماً حريصاً فيما يقدمه من مادة أو كتابات . كما كان شيق الأسلوب رومانسى العبارة مما جذب إلى كتاباته الكثيرين.

بدأ لافوينتي أعماله الهامه بدراسة "الكتابات العربية فى غرناطة Inscripciones arabes de Granada" والذى صدر فى مدريد عام ١٨٥٩ م وفى هذا الكتاب نبه الى حالة هذه الآثار وما تتعرض له من تخريب ، لقد تركوا الجهلاء ومدمرى العصر يعبثون بما تبقى من آثار هذه الحضارة دون أن يكون لديهم علم بما يمكن أن يقوله تراب هذه الأماكن التى أصبحت خرائب، دون أن يدرو أن ما فى أيديهم من بقايا يمكن أن يكون ملهماً جيداً للشعراء ومتذوقى الجمال الذين يمكن أن يدرسوا بعناية وبحرص تلك الدقة العالية وتلك التحف الخزفية الرقيقة التى تكشف عما تمتع به صانعوها من رقة

وإبداع علاوة على ما كان لهم من ذوق وحس رفيعين. (٣٣)

وكان لهذا الكتاب أثره الهام فى لفت الأنظار إلى أهمية ما تتمتع به غرناطة من آثار إسلامية وخاصة قصريها العظيمين قصر الحمراء وجنة العريف.

أصبح لافوينتى عضواً بالأكاديمية الملكية للتاريخ والتى بدأت فى نشر مجموعة من المدونات العربية فى مجالى التاريخ والجغرافيا ، وتحمل لافوينى مسئولية القيام بأول عمل من هذ المجموعة فعمل على ترجمة كتاب أخبار مجموعه ، لمؤلف مجهول وصدر هذا الكتاب فى مدريد ١٨٦٧ بالإضافة إلى هذا فإن للعالم الأسبانى عشرات المقالات والدراسات العلمية فيما يتعلق بتاريخ المسلمين فى الأندلس ، كان آخرها "العلاقة بين بعض الأحداث فى الأيام الأخيرة لمملكة غرناطة Relaciones de algunos sucesos de losultimos tiempos del rieno de Granade. وهى الفترة التى شدت إليها لافوينتى . لما كان في أحداثها من "دراما مأساوية ، ولعظمة الشخصيات التى عاشتها. (٣٤)

ونشير أيضاً إلى العالم الأسبانى الكبير أدوارد سافدرا EDuardo Saavedra Y moragas الذى يعد من كبار أهل العلم فى عصره فقد كان مهندساً ، جغرافياً ، معمارياً ، مؤرخاً وأديباً علاوة علي محاولات تخصصه فى الدراسات العربية.

ولد فى طرجونة Tarragona عام ١٨٢٩ م لكنه عاش فى مدريد وأصبح صديقاً لاستبانيث كالدرون وتلميذاً نجيباً لباسكوال دى جايانجوس وأختير عضواً بالأكاديمية الملكية الأسبانية عام ١٨٧٨ فكان البحث الذى تقدم به فى حفل الإفتتاح متعلقاً بالأدب الألخاميادى. (٣٥)

ومن أهم أعمال " سافدرا" فى مجال الدراسات العربية والإسلامية ترجمته لكتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسى ، وكتابه عن الفتح العربى لأسبانيا . ولقد كانت لكتاباته التاريخية أهمية كبيرة ، صحح فيها بعض المعلومات السابقة وكان ممن أخذ ببعض آرائه وأفكاره وأشار إليه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس فى دراسته القيمة "فجر الأندلس" (٣٦)

تكمن أهمية سافدرا ، ليس فقط فى كتبه ومؤلفاته الكثيرة عن أسبانيا الإسلامية ، وإنما فى احساسه بأن التاريخ الإسلامى فى الأندلس لم يحظ بحقه من العناية ، وأنه إقتصر عند الغالبية العظمى من سكان شبه الجزيرة على بعض جوانب الفروسية ، وقصص الخيال ، وما ابتدع من أفكار حول العرب ، وأن هذا التاريخ حافل بالأقاصيص والأساطير ، رغم أن كل ذلك لا يطابق الحقيقة ، ومن ثم جعل من أهدافه اطلاع مواطنيه الإسبان على حقيقة التاريخ الأندلسى ليس فقط إعتماداً على

المصادر المسيحية المتوفرة ، وإنما أيضاً بناء على المصادر العربية الصحيحة والتى بدأت تترجم إلى اللغة الإسبانية ومن ذلك كتاب أخبار مجموعة وكتاب نفح الطيب للمقري وتاريخ ابن خلدون. (٣٧)

أما الخطوة الكبرى على طريق التحول نحو انصاف الحقبة الإسلامية فى الأندلس ، فقد جاءت على يد عالم الدراسات العربية الكبير فرانثيسكو قوديرة أى زيدان Francisco Codera Y Zaydin والذى يمثل معلماً أساسياً من معالم طريق الدراسات الأندلسية فى أسبانيا.

ولد قوديرة عام ١٨٣٦ وتتلمذ على العالم المشهور باسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayangos، وشب على محبته للعرب والمسلمين حتى يقال أنه ينحدر من أصول عربية ، وكان ، كما وصفه الدكتور مصطفى الشكعة ، يمثل غرة بيضاء فى جبين الإستشراق فى الأندلس فى القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذى ناء كاهله بالأوزار الثقيلة لعدد ضخم من المستشرقين الأوربيين المهتمين بالأندلس. (٣٨)

وأهم ما ينسب إلى هذا العالم الإسبانى الكبير هو أنه لم يقع فى دائرة التعصب التى كانت سائدة ، ولم يدخل فى ذلك الجدل الذى أثاره سيمونيت" وغيره من العلماء ، وإنما - كما يشهد بذلك مؤرخ إسبانى معاصر هو الدكتور بدروشالميتا Pedro Chalmeta فيقول :

ان كل المستشرقين تقريباً والمعارضين ، ومنهم المتعصبون والهجوميون كسيمونيت كان لهم موقف معين . وتشوب آراءهم وجهات نظر محددة ، اللهم إلا فرانثيسكو قوديرة ، الذى تمكن من أن يتحرر من هذا الإسار ، لقد كان باحثاً متعمقاً لايكل العمل ، أميناً لم يتخل عن أمانته وينحاز إلى أي جهة وانما كرس عمله فى أن يعرض بأمانة لسير الأحداث ، شارحاً اياها بطريقة علمية تثير الإعجاب ، ولقد كان أسلوبه شاعرياً رقيقاً ، مع كونه محدداً وقاطعاً بحيث لم يسمح بأية تفسيرات قد تكون ملتوية أو غير واضحة . وأنه لم يترك نفسه أبداً لتقع تحت تأثير أى جدل غير علمى. (٣٩)

لقد قدم قوديرة للدراسات الأندلسية خدمات جليلة ، فعكف على تحقيق النصوص التاريخية الأندلسية ، وأصدر بالفعل فى مدريد ما يعرف حالياً باسم "المكتبة الأندلسية" وتحتوى على أمهات مصادر التاريخ الأندلسي ومن أشهرها تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، وجذوة المقتبس للحميدى ، وبغية الملتمس للضبى ، والصلة لابن بشكوال ، والتكملة لابن الأبار ، والمعجم فى أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، وفهرست ابن خير الأشبيلى. (٤٠)

لقد كان قوديرة معلماً حقيقياً على طريق الإعتراف بما للحضارة الإسلامية من أصالة وآفاق رحبة ، وعلا صوته بالثناء على المسلمين وتمجيد أعمالهم ، وإعلان فضلهم على الحضارة الأوربية حتى أنه

يرى أنهم كانوا أكثر شعوب العصور القديمة والوسطى إهتماماً بالعلم ، وأغزرهم تأليفاً فى شتى صنوف المعرفة ، كما كان يدعو إلى تعريب الحضارة الأوربية ، وينقل د. الشكعة عن جيمس مونرو قول كوديرا : ان من الخطأ العمل على "أوربة" أسبانيا ، بل الواجب هو تعريب أوربا ، وعلى أسبانيا أن تسترد دورها الأندلسى القديم فى هذا التعريب - ويواصل د. الشكعة رأيه فى كوديرا - أنه بدعوته هذه يعتبر أكبر منصف للحضارة والفكر الإسلامى فى الأندلس وقد بدا ذلك واضحاً سواء فى مقدمات الكتب التى حققها أو الكتب التى ألفها مثل : التاريخ الإسلامى لنربونة وجرندة وبرشلونة ، وكتاب اضمحلال دولة المرابطين وسقوطها ، وكتاب دراسات نقدية حول التاريخ الأندلسى. (٤١)

وإذا كان قوديرة معلماً حقيقاً ، إلا أنه فى الواقع ليس "أكبر منصف" فحسب، بل هو "أكبر منصف على عصره" وأن واحدة من مآثر قوديرة الحقيقية تتمثل فى مدرسته للدراسات العربية والتى ضمت عدداً من العلماء الأفذاذ المحبين حقيقة للعرب والمسلمين ، والذين على أيديهم خطت هذه الدراسات فى إسبانيا خطوات كبيرة ، وأعادت صياغة العقل الأسبانى تجاه الحقبة الإسلامية بصورة جدية ، ومن هؤلاء العلماء البارزين خوليان ريبيرا Julian Rebera ، وآسين بلاثيوس Asin palacios وأنجيل غونثاليث بالينثيا Angel Gonzalez palencia، واميليو غارسيا غوميث، علاوة على أحفادهم أصحاب أفضل مدرسة للدراسات العربية حاليا.

ولقد إنتقل ذلك التقدير للحضارة الإسلامية من المتخصصين فى الدراسات العربية إلى المؤرخين الاسبان ، ونتوقف قليلاً أمام أحد هؤلاء المؤرخين الكبار وهو رفائيل التاميرا ، الذى كان أستاذاً جامعياً وعضواً بالمجمع الملكى للعلوم السياسية والأخلاقية ، وعضواً بالجمعية الجغرافية بلشبونة ومعهد التاريخ بكويمبرا ، كما أصبح عضواً بعدد من الجمعيات التاريخية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وشيلى والمكسيك ، وجاء كتابه عن تاريخ أسبانيا والحضارة الأسبانيه لينصف الحضارة الإسلامية فى الأندلس. (٤٢)

يتحدث "التاميرا" عن فتح المسلمين لشمال افريقية والمغرب الأقصى وشبه الجزيرة الإيبيرية معترفاً بسماحة الإسلام والمسلمين وأن موسى بن نصير قد ترك للسكان حريتهم وأملاكهم ، وأنه لم يستولى إلا على أموال من قتلوا فى المعارك - وأموال الفارين ، وبعض أملاك الكنائس ، كما أنهم أعطوا المسيحين الحرية الكاملة فى الإحتفاظ بكنائسهم ، وممارسة شعائر دينهم ، ثم يتحدث عن إستكمال فتح الأندلس على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير مبرزاً أهمية المعاهدة التى وقعها مع الأمير "تودمير" فى جنوب شرق الأندلس وهى المعاهدة التى تبين مدى تسامح المسلمين ، وحسن معاملتهم ، واحترامهم لحرية العبادة للإسبان المسيحين . (٤٣)

ويلفت النظر فى كتاب التاميرا ذلك العنوان الجانبى : سلوك المسلمين فى غزواتهم حيث يؤكد : أن العرب - يقصد المسلمين - لم يهدفوا من فتوحاتهم إجبار الشعوب المغلوبة على إعتناق عقيدتهم ، لأن سلوكهم فى هذا المجال ، وان كان قد تأثر دائماً بشخص الخليفة الحاكم أو القائد العسكرى القائد فى الفتوحات أو درجة المقاومة التى واجهت الجيوش الإسلامية ، إلا أننا يمكن أن نجزم ، بأن العرب المسلمين لم يلتزموا فقط بإحترام الحرية الدينية للشعوب المغلوبة ، وإنما إلى جانب ذلك حافظوا علي حياة هذه الشعوب. ومن ثم بقيت الجموع (٤٣) الغالبة من الشعب الأسبانى والقوطى والرومانى تعيش فى ظل الإسلام تحت قيادة رؤسائهم من الكونتات Los Condes ومع قضاتهم وأساقفتهم وكنائسهم ، وبصورة عامة بكل الحرية المدنية.(٤٤)

ويتباين موقف التامير من عدد من القضايا ، وخاصة موقفه من قضية عمرو بن حفصون أو بعض فترات الأزمات فى التاريخ الأندلسى ، لكنه يعود إلي اسلوبه انرصين فى تناول عصر الخلافة حيث يبدى إعجابه الرائع بالخليفتين عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر بالله . لكن أهم ما يلفت النظر فى كتاب التاميرا هو انصافه للمسلمين فى علاقتهم بغير المسلمين فى الأندلس فيرى أن التعارض فى المصالح السياسية وأن الصراع العسكرى الدائم بين الدويلات المسيحية شمال الأندلس والدولة الإسلامية القائمة فى قرطبة لا يجب أن يوقعنا فى خطأ الإعتقاد بالعزلة أو الانفصال التام بين الشعبين ، لأنه بعيداً عن معسكرات القتال ، كانت العلاقات بينهما على درجة عاليه من الوئام نتيجة لما بينهما من سمات مشتركة وتقارب فى الأمزجة ، أضف إلى ذلك حاجتهما إلى التعاون فى المجال التجارى بل والعسكرى أحياناً ولذلك فليس لنا أن نستغرب أن تكون الزيارات بينهما عادية وشائعة ، بل ومساعدة بعضهما البعض حتى فى المجالات العسكرية ، وأن الزيجات كانت تتم بينهما بصورة عادية جداً ؛ ثم يذكر بعض حالات الزواج والتى بدأت بزواج الأمير عبدالعزيز بن موسى بن نصير بأرملة آخر ملك قوطى الملك لذريق Rodrigo ، وكيف أن الأميرة سانشا Sancha إبنة الكونت الأراغونى "اسنار غاليندو Asnar Galindo قد تزوجت من محمد الطويل حاكم وشقة Huesca إلى آخر هذه القائمة من الزواج المتبادل والتى تمت بين المسلمين ومسيحيات شمال الأندلس . (٤٥)

ثم يتحدث تفصيلياً عن الجماعات المسيحية المقيمة وسط المسلمين والتى عرفت باسم المستعربين Mozarabes وكيف كانت تحترم عادات وتقاليد هذه الجماعات وكيف إنها عاشت طوال حياتها بين المسلمين متمتعة بحريتها الدينية والإجتماعية ، اللهم إلا فى فترات محدودة تعرضوا خلالها لبعض الإضطهاد ، دون أن يكون ذلك أبداً هو السمة المميزة لتاريخهم بين مسلمى الأندلس. (٤٦)

ويواصل التاميرا حديثه مشيراً إلى فضل المسلمين فى حماية اليهود ، وتحسن أوضاع هؤلاء فى ظل سماحة الإسلام فى الأندلس ، وكيف أنهم تمتعوا فى عصرى الإمارة والخلافة بالحماية الحقيقية ، وكيف أنهم عوملوا بما يضمن لهم الحرية والتسامح ، بل فوض إليهم الكثير من شئونهم الداخلية ، وعهد إليهم بالكثير من المناصب الإدارية ، ومن ثم برز من بينهم عدد لا بأس به من العلماء والأدباء والشعراء فى مختلف المجالات. (٤٧)

ويواصل عرضه لكافة مراحل التاريخ الأندلسى بنوع من الحيادية فيتناول نظام الجيش والتقاليد العسكرية كما أوردتها المصادر العربية ويبدى إعجابه بإهتمام المسلمين بالجيوش ، ونظامها وأعلامها ، ووجود الفرسان والمشاة وإستخدامها للسيوف والرماح والأقواس والدروع ، واقامة المسلمين للأربطة والحصون والقلاع للدفاع عن مناطق الثغور البرية والبحرية ، والتطورات التاريخية التى تعرض لها هذا التنظيم العسكرى.

كما استعرض في كتابه مصادر التشريع الإسلامى من القرآن والسنة إلى أن حتمت الضرورة تطور الفقه الإسلامى وظهور العلماء المبرزين فى الفقه الإسلامى وأخذ أهل الأندلس بالفقه المالكى.

وأخيراً فإن أهم ما أسهم به التاميرا هو دفاعه عن المسلمين ضد تعصب من يتهمونهم بالقسوة علي غير المسلمين ، ويشيد التامير بالحرية الدينية الكاملة لهؤلاء ، والتى سمحت لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية كاملة فى المعابد والكنائس ، وأحياناً فى الشوارع العامة دون أن يضطروا إلى اخفاء أنفسهم عند ممارسة تلك الشعائر.

ثم يذكر الكنائس والأديرة التى كانت قائمة فى مدينة قرطبة عاصمة المسلمين ، وفى غيرها من مدن الإسلام كطليطلة وسرقسطة وبلنسية ومارده ومالقة ، وانه وان تعرضت بعض كنائس هؤلاء فى بعض الأحيان لنوع من التدمير إلا أنها لم تلبث أن استعادت رونقها وبهاءها ، كما وجدت فى بعض الأماكن مسجداً للمسلمين وكنيسة للنصارى فى وقت واحد . ويؤكد ألتاميرا دائماً لقد كان التسامح رائعاً ومتبادلاً بينهما حتى أن بعض الأعياد النصرانية مثل يوم القديس يوحنا San Juan ، وأول العام الميلادي كان يحتفل بهما المستعربون النصارى والمسلمون فى آن واحد . (٤٨)

ويقف التاميرا مبهوراً أمام الحضارة الإسلامية فى الأندلس فينقل إلى بنى جلدته من الأسبان المعاصرين ، اعترافه ، بأن اسبانيا الإسلامية قد أصبحت أكثر بلاد أوربا ثراء ونعمة وعدد سكان ، ويشير إلى أن الإحصاء الذى تم فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله فى القرن الرابع الهجرى لبلاد الأندلس يطلعنا على وجود ست مدن كبرى عواصم للأقاليم وثمانين مدينة مزدحمة بالسكان وثلثمائة

مدينة من الدرجة الثالثة وعدد لايحصى من القرى والضياع ، والتى وصلت فى حوض الوادى الكبير فقط إلي اثنى عشر ألفاً . ويختم قائلاً.

فإذا إنتقلنا إلي مدينة قرطبة لرحبت بنا مدينة تحتوى علي أكثر من مائتى ألف منزل ، وستمائة مسجد ، وتسعمائة حمام عام غير ما بها من الخانات والمحلات وغير ذلك من المنشآت العامة.

لقد أمر عبدالرحمن الأوسط برصف شوارع المدينة ، ومدها بالمياه الصالحة للشرب ، وغير ذلك من الأعمال المدنية العظيمة. (٤٩)

ويتناول التاميرا باهتمام الجوانب الإدارية والإجتماعية الهامة من حياة المسلمين فى الأندلس ، فيتحدث بإسهاب عن الثروة والسكان ، عن التجارة والصناعة فى الأندلس ويخصص صفحات للحديث عن الأدب الأندلسى وثرائه الواسع ومضمونه الحافل بالمعانى وصوره التى تثير الإعجاب بالإبداع العقلى ، غير مغفل للفلسفة والعلوم والثقافة لدى المرأة الأندلسية ، ثم ينتقل الى الحديث عن المكتبات ويبدى إعجابه بالعمارة الإسلامية ، ويورد صوراً كثيرة لما بقى منها من آثار هناك.

ولا يخلو كتاب التاميرا من حديث شيق عن الفنون والحرف اليدوية وما وصلت إليه من رقى ، وخاصة فى مجال الخزف والسيراميك ، وحلية الأسلحة وغير ذلك مؤكداً أن إنصراف العرب عن فنى الرسم والنحت لايمكن إرجاعه إلى عوامل دينية لأن القرآن لاينهى أبداً فى أية عبارة صريحة عن ممارسة هذين الفنيين ، وانما يمكن ارجاع ذلك الى اعتبار العرب المسلمين أن الاشتغال بهذين الفنيين يعتبر ترفاً لا مبرر له. (٥٠)

ونصل إلي أحسن فصول الكتاب حديثاً عن المسلمين عامة والأندلس خاصة حين تعرضه للحياة الإجتماعية علي أساس أن هذه الناحية هى التى تلقت الكثير من سهام النقد عند الغربيين وخاصة وضع المرأة وقضية تعدد الزوجات ، فيبين الفرق بين الأسرة المسلمة والأسرة المسيحية من حيث حق الرجل فى التزوج بأكثر من امرأة ، الا أنه يستطرد قائلاً " أن الشريعة الإسلامية تسمح للمرأة أن تشرط علي زوجها إلا يضرها بالزواج بأخرى ، كما سمحت أن يكون هناك أية شروط قد تطلبها المرأة. وأن للمرأة أيضاً كل الحق فى الإحتفاظ بمالها الخاص ، وحق العمل فى هذا المال واستثماره ، واهتمام الشريعة الإسلامية بالأطفال وحمايتهم حتى من آبائهم وأن القضاء الحق فى التفريق بين أب ظالم لا يرعى حق الله فى أولاده أو بين هؤلاء الأولاد. (٥١)

ويعجب التاميرا كثيراً بمحبة العرب للنظافة وشيوع الحمامات العامة فى بلادهم ، متعرضا لبعض خصوصيات هذا المجال من كيفية تصفيف الشعر واختيار الملابس المناسبة للرجل والمرأة

والمناسبة للأحوال الجوية وفصول العام ، وغير ذلك من الجوانب الإجتماعية.

وأجمل فقرات الكتاب هو ما يقدمه لقارئ اللغة الأسبانية عن تأثير المسلمين الحضارى فى الأندلس على باقى أراضى شبه الجزيرة الأيبيريه فأشار إلى أنه ، وان كان لكل شعب خصوصيته ، إلا أن الجوار والرغبة الطبيعية فى التقليد والمحاكاة عند الأفراد والجماعات قد ساهما بشكل فعال فى تبادل الكثير من المؤثرات الحضارية ، فإذا ما وضعنا فى الإعتبار ما تمتعت به بلاد الأندلس على عصر الخلافة من رفعة ورقى وثراء وثقافة أدركنا للتو لماذا كان التأثير وافقا من الجانب الاسلامي الأقوى والأعظم على الجانب المسيحي بداية من النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وحتى قرب نهاية القرن الثالث عشر للميلاد الذي حمل معه أجمل الصور لإزدهار الدراسات الفلسفية فى الأندلس والتى بفضلها إنتقل الى المسيحين التراث اليونانى القديم.

ويواصل الباحث الأسبانى المنصف عرض آرائه حول قوة تأثير الحضارة الإسلامية علي من بقى فى بلادهم من نصارى الأسبان فيقول أن هؤلاء وان كانوا قد نجحوا فى الإحتفاظ بديانتهم إلا أنهم لم يصمدوا أمام زحف اللغة العربية فأقبلوا عليها يتعلمونها إلى درجة أثارت شكاوى القساوسة والرهبان والتى تجلت بصوره واضحة فى شكوى الفارو Alvaro القس القرطبى من أن أهل ديانته يفخرون باجادتهم الحديث باللغة العربية دون أن يشعروا بأى خجل لجهلهم أداء الصلوات باللاتينية. (٥٢)

ولن أستطرد أكثر من هذا حديثاً عن كتاب التاميرا ، لأنه لم يكن الوحيد الذي أنصف المسلمين، وانما ترجع أهميته الى أن صاحبه كان يشغل مركزاً علمياً ممتازاً ، وكان لكتابه صدى طيباً بين طبقات المثقفين والمتعلمين كما كان واسع الإنتشار فى أسبانيا ويكفى أن أقول أنه طبع ثلاث مرات خلال فترة العشر سنوات الأولى من صدوره ، وبالإضافة الى ذلك فانه يساعدنا على إدراك مدى التغير الذى حمله القرن الحالى فى مجال الإعتراف بفضل الحضارة الإسلامية فى الأندلس وعدم التعصب حيالها.

مدرسة " بنو قديرة "

يقصد بتلك المدرسة مجموعة العلماء الاسبان الذين تتلمذوا علي فرانثيسكو قوديرة أو اتبعوا طريقه في تقديم الحضارة الاسلامية عامة والأندلسية خاصة إلي المجتمع الأوربي بما تستحقه من اجلال وتكريم،

لقد خطت هذه المجموعة من العلماء خطوات واسعة نحو ازدهار مدرسة الدراسات العربية في الأندلس، وأصدروا في هذه المجال الكتب والمجلات العلمية التي من أشهرها علي الاطلاق مجلة الأندلس AL-Andalus التي تعد أول مجلة علمية في العالم تتخصص في الدراسات الأندلسية

كما يرجع إلي هذه المجموعة من تلاميذ قوديرة الفضل في انشاء أول مؤسسة حكومية اسبانية متخصصة في الدراسات العربية وهي معهد أسين بلاثيوس في مدريد التابع للمجلس الأعلي للأبحاث العلمية في أسبانيا ومدرسة الدراسات العربية في غرناطة التابعة لنفس المعهد، وليس المجال هنا مناسبا لعرض جهود هؤلاء العلماء، ويقتضي الأمر ضرورة تخصيص بحث مستقل لكل واحد من أفرادها وتابعيهم، لكنني سأكتفي بعرض لأهم شخصياتها والذين يترأسهم ولاشك العالم الاسباني الجليل " خوليان ريبيرا JulianRibera الذي ولد عام ١٨٥٨م في مقاطعة بلنسية الأندلسية التي تأصلت فيها الحضارة الاسلامية بعمق، وتركت فيها الي الآن بعض المعالم البارزة والمعروفة.

ولقد قام ريبيرا بتحقيق كتاب قضاة قرطبة للخشني، وحقق ديوان ابن قزمان، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية مع ترجمته الي اللغة الاسبانية، واهتم بالشعر الأندلسي والموسيقي الأندلسية، والكتب والمكتبات، وأصدر في ذلك عددا جما من الدراسات وخاصة كتابه عن التربية الاسلامية في الأندلس. (٥٣)

لقد وصل ريبيرا إلي مالم يصل اليه العلماء من قبله في محبته لمسلمي الأندلس حتي نادي " بأسبنة " هذه الحضارة أي اعتبارها حضارة إسبانية أوكما يقول د. الطاهر أحمد مكي : كان يري وبحق ، أن حظ الاسبان النصاري المعاصرين من الزهو بحضارة الأندلس لا يقل عن حظ العرب المسلمين، أو الذين استعربوا أيام دولة الاسلام، لأن واقع الدولة لم يتغير جوهريا ، فجمهرة الناس قديما وحديثا تنتمي الي الأصول نفسها ، وكل ماهنا لك انهم الآن يتحدثون الاسبانية، ويدينون بالمسيحية، وكانوا قديما يتخذون الاسلام دينا ، ويلهجون بالعربية لسانا ، وهو سبب ليس كافيا - فيما يري - لكي يدير الإسبان المعاصرون ظهورهم لهذه الحضارة المجيدة. (٥٤)

ووصل ريبيرا الي ماأكثر من ذلك، فلقد تبني فكرة الأصل الاسباني لمسلمي الأندلس وحاول أن يثبت هذه النظرية وأن يدلل عليها علميا " فهو يري أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح انما دخلوا - كما هو معروف - علي هيئة جنود، ولم ينتقلوا اليها كأسر، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل - وكانت الاسبانيات الجانب الآخر في تكوين هذه الأسر وانجاب هذا النسل . وقد أقبل علي الزواج المختلط أول أمير عربي ولي الأندلس بعد الفتح، وهو عبد العزيز ابن موسي بن نصير، كما أقبل عليه غيره من العرب، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات حتي لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . واذا كان الولد - في الحقيقة - ابنا لابيه كما هو ابن لأمه، واذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه، اذا كان ذلك كذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الاسباني حتي لم يعد للواحد منهم سوي قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الاسباني الذي يكاد أن يكون خالصا .

ويجري الاستاذ ريبيرا تجربة علي الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته : ان عبدالرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي، لأنه كان من أم غير عربية، وكذلك ابنه هشام لا يحمل الاربع دم عربي لأن أمه كانت أيضا غير عربية، وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من امير الي آخر، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي، فالحكم بن هشام ليس له من الدم العربي الا الثمن، وعبد الرحمن الأوسط ليس له الاجزءاً من ستة عشر جزءاً، والأمير محمد ليس له جزء من إثنين وثلاثين جزءاً، والمنذر بن محمد ليس له جزء من أربعة وستين جزء، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتي بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، وليس له من الدم العربي الاجزء من مائتين وستة وخمسين جزءاً، اما ابنه الحكم الثاني، فليس له تبعا لذلك الاجزء من خمسمائة واثني عشر جزءاً، وأخيراً يأتي هشام الثاني فلا يكون له من الدم العربي الاجزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً. (٥٥)

لقد وصل الأمر عند ريبيرا الي حد التجاوز ومحاولة اخراج الحضارة الأندلسية من اطار الحضارة الاسلامية، وضمها نهائيا إلي الحضارة الاسبانية، باعتبار مبدعيها اسبانا مسلمين، وليس لهم من الأصول العربية الا القليل.

وليس بغريب أن تشهد تلك الفترة أيضا ظهور تعبير " أسبانيا الاسلامية " La Españа musulmana بدلا من الأندلس Al - Andalus كدليل علي الرغبة المتزايدة بين الاسبان علي مزيد من الاعتزاز بالحضارة الأندلسية، فأذا أضفنا إلي ذلك ظهور مجموعة من الدراسات حول

الشخصيات العبقرية الأندلسية كابن حزم الأندلسي أو ابن مسرة القرطبي والتي تحاول أن ترجع نبوغ مثل هذه الشخصيات وتفوقها إلي ما يجري في دمائها من أصول أسبانية (٥٦) أمكن لنا أن ندرك أن المسألة قد بدأت تتجاوز حدود الاخلاص والمحبة والوصول إلي درجة من الاستحواذ الذي لا يمكن القبول به، ولقد شعر بهذا القلق الدكتور أحمد هيكل قائلا : ولسنا ننكر الدوافع الكريمة التي حملت الأستاذ ريبيرا علي محاولة إثبات أن الأندلسيين اسبان مسلمين، فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلي التراث الاسباني، لكننا مع ذلك لانستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا فيما ذهب اليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم،ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها علي الأسرة الأموية الأندلسية كدليل عليَ ذوبان الدم العربي في الدم الاسباني لأننا لا نتصور أولا أن كل الذين جاءوا الي الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق، ولأننا لا نتصور ثانيا أن الوفود علي الأندلس كان دائما من نصيب الرجال دون النساء، ولأننا لا نتصور ثالثا أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائما من اسبانية جديدة ... الخ (٥٧).

ومن الشخصيات العلمية الكبري التي خطت في مجال الاعتراف بعظمة الحضارة الاسلامية في الأندلس خطوات أوسع الراهب الاسباني ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios غدي علما خالدا من بين رجال العلم الاسبان في النصف الأول من القرن العشرين، وكان عضوا بالأكاديمية الملكية للتاريخ في أسبانيا Real Academia de la historia وكذلك الأكاديمية الملكية لعلوم الأخلاق والسياسة Real academia de ciencias moralesy Politicas ومن أجله تأسس معهد ميغيل أسين للدراسات العربية في مدريد ضمن المجلس الأعلي للأبحاث العلمية في أسبانيا.

وبما أن أسين بلأثيوس كان راهبا فمن الطبيعي أن تتركز دراساته في المجال الفكري والعقائدي عند المسلمين الاسبان دون أن يعني ذلك اقتصاره علي هذا المجال من الدراسة.

ان أهم كتابات أسين بلاثيوس انما جاءت في دراسته عن ابن حزم القرطبي، والتي جاءت في اللغة الاسبانية في خمسة أجزاء ضخمة مشتملة علي ترجمة لمعظم اعمال ابن حزم ومن أول سطوره في مقدمته لهذا الكتاب نجد أن الرجل قد تمكن بقدر الاستطاعة التحرر من اطار وظيفته الكنسية ليكون حر الرأي منصفا للفكر الاسلامي الأندلسي أيما انصاف، فهو يستهل مقدمة هذا العمل الكبير عن ابن حزم بقوله : يعد ابن حزم الأندلسي، فيلسوف قرطبة، واحد من أعظم الأقلام خصوبة وأصالة بين مفكري اسبانيا الاسلامية، لقد كان الرجل : مؤرخا، شاعرا، منطقيا، مفتيا، فقيها، مفسرا شارحا، مجادلا، ميتافيزيقا، سيكلوجيا (نفسيا) سياسيا، ضليعا في كل فرع من فروع العلوم الاسلامية والاغريقية، وأنه قد كرسي حياته لها فجاء نابغا في كل مجال منها اللهم ماعدا "الرياضيات"

التي اعترف امن حزم بعدم اتقانه لها. (٥٨)

ومن أعماله الهامة أيضا كتابه عن ابن مسرة القرطبي من رجال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، حيث حاول أسين أن يلقي الضوء علي من يمكن اعتباره أول مفكر أندلسي حاول القول ببعض آراء مفكري اليونان، أو الحديث عن بعض آراء الفكر الاعتزالي في الأندلس. (٥٩)

ولم يقف نشاط أسين بلاثيوس عند التأليف في محيط الفكر الاسلامي والكتابة عن الفلاسفة والمتصوفة من المسلمين الأندلسيين، وانما اتسعت دائرة نشاطه لتشمل التحقيق والترجمة والنشر، حيث نشر كتاب الحدائق لابن السيد البطليوسي سنة ١٩٤٠ مع مقدمة باللغة الاسبانية، كما ترجم كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ونشره في مدريد عام ١٩٢٨م.

أما القنبلة الهائلة - أنقل كلمات أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي - التي فجرها المستشرق الاسباني العظيم أسين بلاثيوس وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديمية الملكية الاسبانية في جلسة ٢٦ يناير ١٩١٩ لما أعلن أن " دانته " في " الكوميديا الالهية " قد تأثر بالاسلام تأثرا عميقا واسع المدي يتغلغل حتي في تفاصيل تصويره للجحيم والجنة . اذ تبين له أن ثمة مشابهات وثيقة بين ماورد في بعض الكتب الاسلامية عن معراج النبي صلي الله عليه وسلم، وما في " رسالة الغفران " للمعري، وبعض كتب محيي الدين بن عربي من ناحية، وبين ماورد في" الكوميديا الالهية".

وفي هذه المشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل من المؤكد أن التشابه هنا لم يكن أمرا عرضيا وتوارد خواطر، بل كان من تأثر مباشر بالتصويرات الاسلامية للآخرة ، وراح أسين يعدد نقاط التشابه هذه استفادا إلي المصادر الاسلامية، مقارنا اياها بما ورد في " الكوميديا الالهية ، وكل ذلك بعلم غزير ومنهج دقيق " (٦٠)

لقد كان ذلك الموقف يمثل قمة الشجاعة لأسين بلاثيوس في مواجهة رأي أوربي عام كان يضع دانتي وملحمته موضعا رفيعا من التقديس والتكريم، وكان اعتزازهم الأكبر يتركز علي أن فكرة الملحمة وصورها الخيالية والإبداعية انما هي وليدة عقلية دانتي،ولذلك كان من الطبيعي أن يتعرض بلاثيوس لهجوم شديد من الأوربيين، وخاصة الايطاليون منهم . لانه بذلك يطيح بأصالة درة من درد الفكر الأوربي عامة والايطالي خاصة، ولذلك عاد أسين بلاثيوس ليؤكد نظريته مدعما بالوثائق والنصوص مقدما للعالم الغربي كله بما لايدع مجالا للشك الأصول التي اقتبس منها دانتي أفكاره في الكوميديا الالهية فأصدر في ذلك كتابا قيما والحق به الآراء الجدلية والنقد والمحاورات التي

دارت حول هذا الموضوع. (٦١)

ولم يكن ذلك هو المجال الوحيد الذي حاول فيه أسين أن يثبت فيه فضل الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي علي عمالقة الفكر الأوربيين، فلقد كانت خبرة الرجل بفقه اللغة العربية، وتضلعه في الفلسفة الأوربية في القرون الوسطي، قد مكناه من أن يقوم باكتشافات هامة قبل ذلك البحث بسنوات، تتعلق بتأثير ابن رشد في لاهوتيات القديس توما الاكويني، ابن عربي في ريموندلال، واخوان الصفا في انسيلموا دي تورميدا. (٦٢)

أما العلم الثالث في تلك المجموعة العظيمة من تلامذة قوديرة فهو العالم الاسباني انخيل غونثاليث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia ١٨٨٩ - ١٩٤٩م الذي تعمق في الدراسات العربية والثقافة الاسلامية حتي أصبح أحد أعلامها البارزين وتبوأ كرسي الدراسات العربية بجامعة مدريد . وكان نشاطه واسعا فبالإضافة إلي التدريس والعمل الجامعي الذي أثمر الآن في اسبانيا العشرات من العلماء الكبار المتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية كان اهتمامه بالتأليف والعمل العلمي، فقد ترجم إلي الاسبانية قصة حي بن يقظان وطبعت في مدريد ١٩٣٤ لأبي بكر بن طفيل، كما نشر كتاب " تقويم الذهن " في المنطق لأبي الصلت بن عبد العزيز الداني سنة ١٩١٥ في مدريد

ومن أهم أعمال جونثاليث بالينثيا، التي ألقت أضواءا باهرة علي تاريخ المسلمين في الأندلس، كتاب تاريخ الأدب العربي الاسباني Historia de La Literatura arbigo - Españ‌ola والذي طبع لأول مرة عام ١٩٢٨م وأعيد طبعة مرة ثانية ١٩٤٥. (٦٣)

أعطت مدرسة قوديرة وجهود كل من خوليان ريبيرا وآسين بلأثيوس وأنخيل جونثاليث بالنثيا ثمارا وافرة تتمثل في عدد جم من تلاميذهم الذين أصبحوا اعلام الفكر الإسباني في النصف الثاني من القرن العشرين، وظهرت في اسبانيا أجيال متعاقبة ومتعاصرة كل منها يتفوق علي الآخر اما بالتميز في تخصص معين أو بالثراء في الانتاج أو في اجادة اللغة.

كما تشهد هذه الفترة زيادة عدد الأقسام العلمية المتخصصة في الدراسات العربية والاسلامية، بحيث أصبحت هذه الاقسام قائمة في كافة الجامعات الاسبانية تقريبا، كما أصبحت تغطي كل الأرض الاسبانية من برشلونة شمالا إلي غرناطة في أقصي الجنوب

وحيث أن المجال لن يسمح بالحديث عن العلماء المعاصرين أولا لكثرتهم وثانيا لغزارة إنتاجهم الذي تنوع ليلقي الضوء علي كل ناحية من نواحي الحياة بين المسلمين الأندلسيين.

ولم تقتصر هذه الجهود علي تاريخ الأندلس، بل اتسعت لتعرف الاسبان بتاريخ المسلمين عامة، وأوضاعهم الحالية، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لذلك سأكتفي بما عرضت وأنتقل إلي الحديث عن بعض النقاط التي أثارت جدلابين الباحثين والتي تختلف المواقف حولها كثيرا جدا.

الموقف من الفتح الإسلامي للأندلس :

كان الفتح الاسلامي السريع لبلاد الأندلس، وانتصار المسلمين الحاسم في معركة وادي لكة والسقوط الكامل للملكة القوطية واحدا من النقاط التي أثارت جدلا عميقا بين المؤرخين الاسبان وخاصة فيما يتعلق بتبرير الهزيمة وتعليق سببها علي الخيانة من جانب أبناء الملك غيطشة ورغبتهم في الانتقام من الملك لذريق مغتصب عرش ابيهم، كما أنهم يحملون الكونت خوليان Julian حاكم مدينة سبتة مسئولية دعوة العرب المسلمين لدخول الأندلس، كما أتهم بعضهم المسلمين بأنهم انما دخلوا الأندلس أول الأمر لمساعدة أنصار غيطشة والانصراف بعد ذلك، لكنهم لم يوفوا بعهودهم وحولوا الأمر إلي إحتلال كامل للأندلس (٦٤) ولقد فندت هذه الرواية تفنيدا قويا في دراسة لي سابقة (٦٥).

ونتيجة للفهم الصحيح والتطور الفكري الذي شهدته ساحة الدراسات العربية، نجد أن الاسبان يقرون بأن سلوك المسلمين الممتاز مع أهل البلاد المفتوحة هو الذي كان يلعب الدور الأساسي في انتصاراتهم المستمرة ويري الأستاذ خوان بيرنيت Juan Vornet - وهو واحد من كبار علماء اسبانيا المعاصرين، ورائد مدرسة الإهتمام بالعلوم عند العرب، في برشلونة ومترجم القرآن الكريم إلي اللغة الاسبانية - " أننا لا يجب أن نطيل الوقوف أمام هذه القضية لأننا نري لها مثلا وشبيها في فتوحات الاسلام الأخري - والتي ضمت بلادا كثيرة كان لها هي الأخري هوية وشخصية قومية، وكان لها أيضا مؤسسات حكومية ثابتة وأكثر رسوخا مما كان لدي العرب الفاتحين، ففارس، علي سبيل المثال قد سقطت في أيدي المسلمين بنفس السرعة التي سقطت بها اسبانيا، وبيزنطة نفسها كادت أن تهوي تماما، أمام هؤلاء الفاتحين، ولم يتبق منها الا القليل بعد أن انتزع المسلمون من أملاكها بلاد الشام ومصر، وشمال أفريقية.

ان هذه ظاهرة واضحة في كل الفتوحات الاسلامية، ولا يمكن ارجاعها إلي ما كانت تمتلكه القوات الاسلامية من ذخيرة وعتاد يتفوقان بهما علي غيرهم من أهل الحضارات الأخري - لا، لم يكن الأمر كذلك، وانما يمكن أن ترجع الأمر حقيقة إلي أن الديانة الجديدة كانت سمحة، ولقد انتشرت بسرعة لأنها كان بالامكان تشربها بسهولة، أو علي الأقل، فإنها لم تدخل في صراع مع العقائد التي كانت منتشرة في البلاد التي تم فتحها.

وهذا العامل الأخير هو الذي أراه قد حدث فعلا، ففي بعض هذه البلاد لم تكن المسيحية قد تعمقت بصورة كاملة - واسبانيا من هذه البلاد، فالمسيحية لم تكن قد شملت كل أجزائها حتي ذلك الحين . ومن هنا فإن ظهور نظام جديد، يسمح بالحرية الذاتية والاستقلال الداخلي لأصحاب البلاد الأصليين، ولا يفرض عليهم الاجزية بسيطة، أقل بكثير مما تعودوا علي دفعه قبل ذلك، قل ذلك حطم أسوار المقاومة العقائدية بسرعة كبيرة، ودفع بكثير من اليهود والنصاري الي اعتناق الديانة الجديدة والتي كانت بالنسبة لهم تمثل تفوقا اجتماعيا ملحوظا غير كل ماسبق لهم التعود عليه والتعامل معه. (٦٦)

الموقف من المستعربين :

سبقت الاشارة إلي أن المستعربين هم نصاري الأندلس الذين عاشوا في كنف المسلمين، وتمتعوا بالحرية الدينية الكاملة حتي كان لهم قضاتهم وأساقفتهم. كما أنهم اندمجوا في الحياة اليومية للمسلمين وتعلموا اللغة العربية، وعاشوا متمتعين بنفس حقوق المسلمين، وكانوا دائما موضع رعاية حكام الأندلس، ومع ذلك لم يخل الأمر من مواقف توتر بين الجانبين مثلما حدث علي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط حين سري بين مسيحي قرطبة - اوبين بعضهم - هوس الرغبة في الاساءة الي المسلمين بسب نبيهم صلي الله عليه وسلم والطعن في دينهم، ولقد حاول الأمير عبد الرحمن معالجة هذه القضية حتي انتهت علي عهد ابنه الأمير محمد.

ولقد تطور موقف الاسبان تجاه هذه القضية فمن الأحكام الجائرة جداً لسيمونيت والتي خصص لها كتابا كاملا سبقت الاشارة إلي أن تصل إلي أحسن موقف لمؤرخ اسباني عند البرفيسور لويس سواريث فرنانديث في كتابه عن تاريخ اسبانيا فيلقي باللوم علي الجانب المسيحي الذي هاله انتقال أعداد كبيرة من المسيحيين الاسبان الي الديانة الاسلامية، مما أثار قلق بعض مفكري المستعربين ورؤسائهم، ومن ثم بدأت حملة التحريض لاثارة الحماس الديني عند المسلمين، واشعال روح التعصب عند المسيحيين مما أدي الي وقوع بعض الأحداث المؤسفة علي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، والتي كان يمكن تجنبها لو قابل هؤلاء المسيحيون المسلمين في منتصف الطريق وقبلوا منهم روح المودة والتسامح التي كانوا يبدونها باستمرار. (٦٧)

الموقف بالنسبة لكينونة اسبانيا

توجد قضايا كثيرة تباينت حولها آراء المفكرين الاسبان عبر العصور ومن ذلك ثورات المولدين في الأندلس، ومنها ثورة عمرو بن حفصون في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وكذلك

وجود الأندلس تحت حكم المرابطين والموحدين باعتبارهما في نظر الاسبان أسرات افريقية حكمت الأندلس أو سيادة مغربية علي الأندلس.(٦٨)، كذلك كان اليهود في الأندلس من الموضوعات الهامة التي كثرت حولها الدراسات، ومن أهمها دراسة الدكتور سواريث عن اليهود في اسبانيا في العصور الوسطي (٦٩)، لكن أكبر القضايا التي أثارت تيارا عنيفا من الجدل ارتبط باسبانيا الاسلامية هي تلك ارتبطت " بالذات الاسبانية " ومن أين استمدت خصائصها ومكوناتها، لماذا ذلك المزاج الاسباني، أو لماذا أصبحت اسبانيا احدي الامبراطوريات العظمي في التاريخ ثم ما لبثت أن تحطمت سريعا، لماذا لم تكن اسبانيا أوربية قلبا وقالبا حتي أصبح هناك تساؤلا يرتبط بالجغرافيا " لمن تنتمي اسبانيا " وهل هي افريقية اوربية ؟ (٧٠) ولقد أصبحت كينونة اسبانيا موضعا لحوار علمي رائع في الغرب الأوربي كله حين كتب أميركو كاسترو Americo Castro كتابه المعنون . اسبانيا عبر تاريخها : المسلمون، المسيحيون، اليهود والذي صدرت طبعته الأولي عام ١٩٤٨م، وقام سانشيث البرنوس بالرد عليه، فأصبح لكل منهما أتباع داخل اسبانيا وخارجها، خصوصا أوربا والقارة الأمريكية حيث كان كاسترو يدرس في الجامعات بالولايات المتحدة الأمريكية، وكان سانشيث البرنوس يدرس في جامعة بوينوس ابريس بالأرجنتين ومع ذلك لم يكن لذلك الحوار صدي في العالم العربي

لقد كان محور النقاش حول طبيعة وأهمية التاريخ الأندلسي في تكوين التاريخ الاسباني وفي تأثيره في تكوين الشخصية الاسبانية المعاصرة،

لقد عرض كاسترو نظرته التاريخية لاسبانيا في اطار علاقتها باوربا من جهة وبالأندلس والشرق من جهة أخري، واعتبر كاسترو وجود الأندلس في جوار الممالك المسيحية من أهم العوامل التي أثرت في تطور الاسبان المسيحيين، ويقدم كاسترو تصوره للعلاقة بين المسيحين الاسبان والأندلسيين حيث اعتبر الحضارة الأندلسية تحديا لاسبانيا المسيحية ودافعا وراء تطورها، فقد كان رد الفعل المسيحي الاسباني هو السبب الأساسي وراء توحيد صفوفهم ليفرضوا سيطرتهم علي الأندلسيين المسلمين واليهود، وقد وصلت هذه المواجهة قمة حدتها بين القرن التاسع والثاني عشر الميلاديين.(٧١)

وعلي الرغم من أن أميركو كاسترو لم ينكر وجود علامات تحضر ثقافي شهدتها اسبانيا خلال العصر القوطي، ويشير - علي سبيل المثال - الي وجود هو ريشيوس Paulo Orasios .(٧٢) والقديس ايسيدورو الإشبيلي San Isidoro de Sevilla (٧٣) ، فإنه يري أن المسلمين جاءوا الي الأندلس يحفزهم مصدري قوة يثيران الأعجاب هما الوحدة السياسية وحماسهم العظيم لذلك الدين الناشئ، ويري أنه اذا كان برابر الشمال قد هاجموا أوربا فإنهم لم يخلفوا وراءهم غير الدمار بينما الأمر بالنسبة للمسلمين كان علي العكس من ذلك تماما، فلقد كان المسلمون يخطون خطوات واسعة

علي طريق الرقي والتقدم، بل كان تقدمهم يتم بصورة تلقائية وأنهم عضدوا معاركهم بخلفية دينية وسياسية رائعة، واكثر من ذلك فإن المسلمين قدحملوا معهم الي البلاد التي فتحوها شذي وعبير أفضل ما في ثقافة الأقدمين، وما لبثوا الا قليلا حتي أعادوا نبض الحياة الي تلك الثقافة الكلاسيكية .(٧٤)

ثم يستعرض أمبركو كاسترو العلاقات بين المسيحيين والمسلمين والتشابك في العلاقات بينهما ويبين أنه من الصعب جدا القيام بعملية الفصل بينهما ،لأن الحياة المسيحية الاسبانية كلها، بكل مؤسساتها لا يمكن تفهمها الا اذا وضعنا في خلفيتها التاريخ الاسلامي، " لقد بدا لي بوضوح أن العصور الوسطي المسيحية، كما لو كانت المهمة الأساسية لأهلها تكمن في محاولة الجماعات المسيحية الاحتفاظ بوجودها في مواجهة عالم بدالها خلال تلك الحقبة متفوقا وعظيما في كل مجال من مجالات الحياة " . (٧٥) . ثم يواصل عرضه لأهمية التاريخ الاسلامي في تكوين الشخصية الاسبانية المسيحية فيقول : لقد اعتنق المسيحيوْن كثيرا من قيم ومعاملات المسلمين، سواء أكانت تلك القيم والمعاملات مادية أو انسانية، لكنهم لم يتشربوا الأنشطة المنتجة لهذه القيم أو المعاملات، وذلك لأنهم كانوا في نفس الوقت مجبرين علي خلق قيم ومعاملات مضادة لها، لعلها تمكنهم ذات يوم من الانتصار أو التفوق علي المسلمين ان اسبانيا العصور الوسطي ليست الا نتاجا أو حصيلة لذلك التزاوج بين الاحساس بالخضوع والاعجاب لعدو متفوق يسمو عليهم - وبين الجهد الذي يجب أن يبذل لتخطي هذا الوضع أو الارتفاع فوق هذا الاحساس بالدونية.

أن التأثير الاسلامي في أسبانيا لم ينته عند عام ١٤٩٢م، لأن كثيراً من المسلمين ظلوا يواصلون حياتهم كرعايا للملك الاسباني، وخاضعين للمسيحيين، ولقد احتفظ هؤلاء بدينهم وعاداتهم، وكان لهم من التأثير مالا يمكن اغفاله أو التقليل منه سواء في المجالات الأدبية أو الدينية.

وحتي عندما قرر الملك فيليب‌الثالث طرد كافة بقايا المسلمين من إسبانيا عام ١٦٠٩م، فهل يمكن لنا أن نتخيل أنهم خرجوا نهائيا ؟ انني أعتقد أن الأمر لم يكن علي هذا النحو،لأن هناك من هو علي يقين كامل، أن عظمة هؤلاء المسلمين قد ظلت حية نابضة في البساتين اليانعة في مرسية Murcia بلنسية Valencia وحتي في أراجون Aragon ولا يمكن أن نعتبرها مصادفة أن الوجود الاسلامي قد ظل حيا علي أرض اسبانيا أكثر من تسعة قرون، وتلك حقيقة لا يمكن اغفالها، أن عالم المثقفين - بما في ذلك متوسطي الثقافة - يعرف أن الصدي الاسلامي قد ظل حيا في الآثار الخالدة بمدينة قرطبة Cordoba وغرناطة Granade وأشبيلية Sevilla وطليطلة Toledo وكثير من المدن الأخري الأقل قيمة.

ففي مجال اللغة - سواء الحية المستخدمة أو المهجورة منها - مازالت تحيا الآلاف من المفردات العربية، ولقد نهل الأدب الاسباني كثيرا من المصادر العربية، وليس أدل علي ذلك من أنه في كتاب:

Disciplina Clericalis قد أحصيت ٣٣ أقصوصة من أصل عربي انتشرت في أسبانيا وفي أوربا أيضا.

ولأن لذلك كله أهمية كبري، ومع وجود كميات ضخمة من التراجم التي تتناول هذا الموضوع، فإننا لا نستطيع الحديث عن شئ حيوي أكثر من ذلك حتي جاء العالم الأسباني الكبير آسين بلاثيوس، وبدأ البحث في مجال تاريخ المشاعر الدينية، والأحاسيس الروحية، واستطاع أن يثبت، أنه حتي في هذا المجال الخاص جدا، فإن الأشكال الصوفية والروحية التي تجلت عند الصوفي الأسباني العظيم القديس يوحنا الصليبي San Juan de la Cruz لا يمكن فهمها أو ادراكها بعيدا عن الاشكال الصوفية والزهدية التي كانت سارية بين الموريسكيين.

بعد هذا من المستحيل أن نستبعد عند التفكير في هوية اسبانيا هذه القرون التسعة من التمازج الاسلامي المسيحي. (٧٦)

لقد أغضب هذا التحليل لكينونة اسبانيا المؤرخ الاسباني الكبير كلاوديو سانشيث البرنوس، فانبري للرد عليه بعنف وشدة " علي أن اعترف أنني كرست وقتي لكتابة هذه الصفحات الكثيرة لما رأيته من صدي الآراء المزيفة التي قال بها اميركو كاسترو، وتأثير هذه الآراء علي الكثيرين من الكتاب والمفكرين.

أن آراء كاسترو محرفة، تنبئ عن جهله بكثير من قضايا التاريخ الاسباني وعدم انتباهه إلي المشاكل والقضايا التي تناقض نظريته.

ان جمال اسلوبه ، وروعة خياله ، والجهل الطبيعى للكثير من المتحمسين لماضى أسبانيا قد جعل عدداً من الكتاب يتحمس له ، وللأسف فإن من بينهم بعض الكبار الذين يقبلون بآرائه ، تلك الآراء التى لا أراها ضعيفة فحسب ، بل هى مجرد خيال وإستعراض لمن قفز متأخراً إلى مجال النقد الأدبى والإبداع التاريخى. (٧٧)

ثم يستعرض "البرنوس" الوضع المتفرد لأسبانيا جغرافياً حيث تقع منعزلة عن أوربا فى نهاية العالم ، حيث كان بحر الظلمات هو آخر الأقاليم ، وكذلك سلاسل الجبال التى تفصل بين أوصالها وفى نفس الوقت تربط بينها ، ومجموعة الأنهار التى لم يكن واحداً منها سبيلاً للتجار أو للمراكب ،

ومع ذلك كانت أسبانيا ، تلك المنطقة الموحدة التى تشعر بوحدتها رغم تمزقها وصعوبة الإتصال بينها.

وعن تاريخها المتميز أيضاً ، حيث سكنها الناس من قديم الزمن ، ولجأ إليها السكان من اسكندنافيا ، من جبال المانيا وغاباتها ، من القوقاز والبلقان ، من آسيا الصغرى ، من ضفاف الدانوب ، من الشام ، من مصر ، من وسط أفريقيا ، وكيف تسبب ذلك فى صراع وحشى طويل بين هذه الأجناس ، إنتهى فى النهاية بصهرهم فى بوتقة واحدة ، جعلهم الصراع عبر آلاف السنين شعباً واحداً.

لقد أهمل كاسترو كل ذلك ، واستبعد كل الحقائق التاريخية والجغرافية ، والتى لا يعرف كاسترو عنها شيئاً أو أنه تجاهلها لكى يصيغ نظريته المصطنعة.

إن تاريخ أمة من الأمم لا يمكن أن يبدأ من لحظة محددة فى الماضى وعلى من يرغب فى تفسير التركيبة النفسية لأى مجتمع من المجتمعات أن لا يهمل أو يستبعد ماضى هذا المجتمع البعيد . (٧٨)

ثم يبدى رأيه بعد ذلك متحسراً على ما أصاب أسبانيا بسبب الإسلام فيقول : ان الصراع الإسبانى مع الإسلام قد ولد نتائج درامية فى سلسلة البناء السياسى لأسبانيا ، لأن الوحدة القومية التى تم بناؤها فى العصر الرومانى ، وتجددت فى القرن السابع على يد المملكة القوطية قد إنهارت وإختفت لعدة قرون ، فإذا وضعنا فى الاعتبار أن هذه الوحدة لم تكن قد ترسخت طويلاً ، فإن الوجود الإسلامى ظل يضغط بإستمرار على ماتم إسترداده من أرض أسبانيا بمجهود شاق.

ليس من الممكن ذكر هذه الحقائق التاريخية دون الإحساس بالألم لذلك التمزق الأسبانى ، أو لضياع Hispania ، لقد تحول الصراع مع المسلمين إلى صراع متفرق ، تقوم به مراكز مقاومة متفرقة كل منها تشعر بكيان تاريخى مختلف عن الأجزاء الأخرى، لم تعد تشعر هذه المراكز بأن لهم عدواً مشتركاً يجب أن يتوحدوا فى مواجهته ، وأحيانا كانت جهودهم تتجه إلى آفاق متباينة تبايناً شديداً جداً ، لقد أغرقوا فى الإنعزالية ، وتحولوا إلى أقاليم تجاهلت تماماً أنها كانت منذ زمن . أسبانيا القديمة الرومانية والقوطية . (٧٩)

ولم يحاول أميركو كاسترو الرد على نقاط محددة لسانشيث البرنوس وانما ترك كتابه القديم والذى زادت عدد طبعاته ، وكتب كتاباً جديداً يتناول فيه الحقيقة التاريخية لإسبانيا La Realidad de España، حاول فيه مناقشة القضية من جديد واضعاً فى إعتباره ما أثاره "البرنوس" من قضايا ، وأكد فى هذا الكتاب على أنه ليس لتاريخ اسبانيا القديم دور يذكر فى التأثير المباشر فى التكوين النفسى والمزاجى للشعب الأسبانى ، ويستعرض بدقة شديدة الفروق التى

مرت بها الشعوب على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية ، منذ وصول الأيبيريين والكلتيين ، ومروراً بالعصر الفينيقى والرومانى والقوطى مؤكداً أن كل جماعة من هؤلاء لم يكن لديها الإحساس بأنهم "إسبان" كما نعرف " الإسبان" هذه الأيام.

وبعد أن يستعرض العوامل البيولوجية والحياتية فى تكوين الأمم وتغاير هذه العوامل من فترة إلى أخرى ، فإنه يقوم بصورة لاتقبل الجدل الأمثلة من آراء المؤرخين فى فرنسا والمانيا ، والذين لا يرجعون تأسيس قوميتهم أو هويتهم إلى العصر الرومانى أو قبل ذلك كما يسعى الاسبان.

ويتوقف كاسترو أمام الإيطاليين ، وكيف أن مؤرخيهم لا يمكن أن يجعلوا من أنفسهم أحفاداً للرومان ، رغم أن التاريخ الرومانى كله قد جرى على أرضهم : أنهم شعب جديد يختلف عن هؤلاء الرومان وهذا هو الحال عند الفرنسيين أو الأسبان أو الأنجلوساكسون . (٨٠)

ولقد أثار هذا الكتاب ثورة سانشيث البرنوس الشديدة ، كما أثاره سرعة إنتشار الكتاب فى العالم حيث بلغت طبعاته تسع طبعات خلال فترة زمنية قليلة ، فألف كتاباً ضخماً بعنوان "إسبانيا ذلك اللغز التاريخى España : un enigma historica ، وجد أيضاً رواجاً شديداً حتى طبع منه ست طبعات ، يستعرض فيه الأسباب التى دعته الى كتابته ، مرجعاً السبب الأساسى إلى الآراء التى قال بها كاسترو وإلى النجاح الذى أصابته آراؤه حتى أن كتابه قد طبع ست مرات ، " لم أكتب للتظاهر أو للإستعراض ، وانما للتفكير والتأمل فى دراما الأمس والماضى ، ولم أكتب شماته فى المحترفين على ضوء نار المهارة والصنعة ، انما أردت أن أضيئ عقول وقلوب أحبتى الاسبان بنظرة هى قبل كل شئ واعدة ومحملة بالأمل فى ماضيهم بغرض الإنطلاق بهم نحو المستقبل .(٨١)

وفى هذا الكتاب يشتاط غضباً ، ويهاجم كاسترو وآراءه بعنف شديد حتى كاد أن يصفه بأنه ليس أسبانيا ، " إنه لم يجر بخياله أبداً تلك الفكرة العظيمة التى تكشفت عنها الحقيقة فى المجرى الصعب لتاريخ أسبانيا . كانت آراؤه شئومة ، لأن كاسترو ادعى الحق فى أن العابه النارية وكأنها التفسير الحقيقى لماضى أسبانيا وحاضرها . لقد أساء كثيراً إلى ، وطننا ، ولم يكتب من أجل هذا الوطن . (٨٢)

ويدخل حلبة الصراع مؤرخون معاصرون ذوى مكانة عظيمة فى الحياة العلمية الأسبانية مدافعين عن دور الإسلام فى صنع اسبانيا وعن حقبة التاريخ الأندلسى ، ومن هؤلاء الكتاب الدكتور خوان بيرنيت الذي قام بتفنيد آراء سانشيث البرنوس التى تتهم التعصب الإسلامى بأنه المتسبب فى تغيير مسار المصير الأسبانى وتحويله إلى وجهه أخرى ، وبعد أن يستعرض آراء كل من العالمين الكبيرين

فانه يرد على سانشيث البرنوس بأن التعصب الإسلامى انما ولد فى تلك اللحظة التى أجمع فيها باقى العالم على معاداته والتعصب ضده ، لقد وجد المسلمون أنفسهم فى موقف دفاعى ، وأصبح من الصعب عليهم ترك الناس ليحاسبهم الله سبحانه وتعالى فى الحياة الآخرة على ما يأمرهم به الدين الإسلامى.

ثم يواصل حديثه ليدحض الآراء التى تعزو إلى الفترة الأسبانية تخلف أسبانيا عن جاراتها الأوربيات ، ويرفض ذلك بشدة ، لأن ما لايمكن الحوار حوله أنه إذا كان فى مقدور الاسبان صنع حضارة متفردة علميا وحضارياً إبان العصر الإسلامى ، فلا يمكن أبداً أن ترجع الى الأصل البشرى الأسبانى والى الفترة الإسلامية الأسباب التى تعزو اليها الفشل الاسبانى فى العصور الحديثة والمعاصرة ، وأن هذا العقم الذى تبدى فى تاريخ أسبانيا الحديث . يجب علينا إذا أردنا التعرف على أسبابه أن نبحث فى مجالات أخرى . (٨٣) ثم يواصل تدعيم آرائه حول عظمة أسبانيا الإسلامية بانبهارالأوربيين باسبانيا الاسلامية الى درجة أنهم فى بداية عصر النهضة كانوا يعتقدون بأن جميع الشخصيات العلمية الشامخة فى العالم الإسلامى انما كانت شخصيات أندلسية ، وحتى يومنا هذا فإن أعظم مؤرخى العلوم جورج سارتون G. Sarton ، لم يتردد فى أن يسجل أن إسبانيا ابان العصور الوسطى كانت أعظم مركز ثقافى حضارى بفضل المسلمين واليهود . (٨٤)

كما دخل حلبة النقاش عالم اسبانى آخر يعمل بالولايات المتحدة الأمريكية حيث هاله اتهام العصر الإسلامى بأنه هو الذي لوى المصير الأسبانى ، وحول دفته بعيداً عن القارة الأوربية ، فعلى الرغم من بريق بعض الوقائع التاريخية وعلى الرغم من المكانة العلمية الكبيرة للقائلين بهذا الرأى ، فإننا نرى أن هذه النظرية غير مقبولة اذا ما تم طرحها منعزلة عن السياق التاريخى لوجهات النظر الأخرى.

ويتطلب الأمر الاجابة على سؤال محدد ، ما النتائج التى ترتبت على الفتح الإسلامى لاسبانيا فيما يتعلق بتاريخ اسبانيا وكينونة الاسبان بحيث تقع كل المسئولية على ذلك الإسلام الغريب الفاتح ، وكيف أنه هو وحده قد استطاع سواء بالمحاكاة أو التمثيل والاقناع قد أصبح العامل الوحيد المؤثر فى الأفعال وفى ردود الأفعال عند الأسبان. (٨٥)

وحين يورد الإتهام الذى وجهه سانشيس البرنوس للاسلام "بالتأثير المشؤوم" على تطور ماهو اسبانى وبأنه "غير المصير الذي كان يمكن أن تؤول اليه اسبانيا" يؤكد أنه ليس عادلاً لأن " الحياة التى لاتسمح لبنى الانسان اختيار العناصر التناسلية المكونة لكينونته ، لاتسمح بذلك أيضاً بالنسبة

لتاريخ الشعوب".

وعلى مدى صفحات طويلة يناقش "كانتارينو" الخصائص الاسبانية مقارنا اياها بالأوربية ، ويبن كيف أن عملية الاسترداد المسيحى التى واكبت حركة الاسترداد السياسى هى التى فرضت معنا دينيا للحياة عند الاسبانى يختلف اختلافاً جذرياً عما هو أوربى ، وأجبر اسبانيا على تبنى موقف دينى خاص وتحولت مؤسساتها العسكرية إلى مؤسسة صليبية ، كما تحولت المسيحية فيها الى قاعدة للمفهوم القومى ، حتى تحولت الحياة الروحانية الى حركة مناهضة للحضارة الإسلامية ، ولهذا فإن اسبانيا المسيحية جعلت نفسها معبراً انتقاليا للمعارف والعلوم العربية واليهودية نحو أوربا دون أن تتوصل هى الى الاستفادة منها

ونتيجة لذلك تخلفت اسبانيا عن الحضارة الأوربية ، ويهتف فى آخر سطور كتابه قائلاً : لم يكن الاسلام ، وانما المسيحية الارثوذكسية المتشددة فى العصور الوسطى . ذات الطابع الديرى الخشن هى التى غيرت من القيم الفكرية العظيمة للإسلام ، وهى التى تولد عنها ما يتصف به الاسبان من خصائص ، تفصل أسبانيا عن أوربا. (٨٦)

لم تجبر هذه الآراء العلمية سنشيث البرنوس على التراجع عن آرائه وأفكاره وانما حملته على أن يخفف منها كثيراً ، كما حملته على الإعتراف بما كان لاسبانيا الاسلامية من فضل عظيم ، ليس على اسبانيا فقط ، وانما على كل القارة الأوربية ، فأصدر مجلدين كبيرين بعنوان "اسبانيا الاسلامية" لقى رواجاً كبيراً فى أسبانيا وخارجها قدم لهما بأن "اسبانيا الاسلامية - الأندلس - عالم اللغة العربية لم تحظ بما هى جديرة به من دراسات ضمن التاريخ الأسبانى ثم يكمل ..... وعلى مدى تلك القرون الطويلة مارس الاسلام فى الأندلس تأثيراً حضارياً على درجة عالية من القوة والخطورة على الممالك المسيحية الاسبانية التى عاشت معه وبجواره فوق أرض شبه الجزيرة الأيبيرية.

لقد عبرت الأفكار والمعتقدات ، والصيغ الدينية ، والفنية وأساليب الحياة الاجتماعية ، والعادات والتقاليد عبر الكثير من الطرق والممرات التى كانت تربط بين تلك الشعوب المتجاورة على الرغم من قعقعة السلاح ودوى المعارك التى لم تتوقف بينهما أبداً.

وعلى مدي القرون ... وبالرغم من المعارك التى أؤكد استمرارها دائماً بين الجانبين - حدثت هجرات لجماعات المسيحين التى كانت مقيمة فى بلاد المسلمين ، وانتقلت الى أقاليم اسبانيا المسيحية حاملة معها المؤثرات الاسلامية وخصائص الحياة الاسلامية ، وكذلك الحال حينما استولت القوات المسيحية على المدن الاسلامية فان هذه الجيوش تعايشت مع سكان هذه المدن ذات الكثافة

الاسلامية العالية .

هذه الهجرات من الأراضى الاسلامية الى الأراضى المسيحية ، والغزوات التى اخضعت مدنا اسلامية لحكم مسيحى الشمال ، كل ذلك ولا شك . سبب تبادلاً ثقافياً وحضارياً وتأثيراً وتأثراً . ومن الطبيعى أن يتدفق الموج من الثقافة الأعلى والأكثر تفوقاً وحيوية . ألا وهى الثقافة الإسلامية.(٨٧) ثم يعترف بأنه لا يمكن أن ينكر أن أسبانيا الاسلامية - الأندلس - قد لعبت دوراً أساسياً ، ولا يمكن أبداً أن يكون هامشياً ، فى تاريخ أسبانيا وبتدانها من دول أمريكا اللاتينية.(٨٨)

وأخيراً ليس من الممكن عرض جميع الآراء التى قال بها البرنوس رغم أهميتها ، أو عرض آراء المؤرخين الآخرين ، وأختم هذا البحث بان مدرسة الدراسات العربية المعاصرة فى أسبانيا ، قد وصلت فى تقييمها لاسبانيا الاسلامية - الاندلس - الى أفضل مما وصل اليه العالم العربى ، لكن الأمر يحتاج إلى دراسة مفصلة ، وإلى بحث أكثر إتساعاً.

والله ولي التوفيق

الدكتور / محمد عبد الحميد عيسي

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

بكلية التربية - جامعة عين شمس

(١) أنظر مجموعة المقالات القيمة التى تكتبها الدكتورة / عائشة عبدالرحمن "بنت الشاطئ" فى جريدة الأهرام المصرية كل يوم خميس والتى بلغ عددها مع نهاية عام ١٩٩٢ أربع وثلاثين مقالة مبرزة الدرس والعبرة التى يمكن استخلاصها من التاريخ الأندلسى.

(٢) عبدالرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، ص ٤٩٣.

(٣) محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس - دار الفكر العربى - القاهره. ١٩٨٢ ص ١٥٣ - ١٥٨.

(٤) الحميدى : جذوة المقتبس - طبعة القاهرة ص ٣٨١

(٥) ابن بشكوال : الصلة - طبعة القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ٢ ص ٦٧٧ ، الترجمة ١٥٠١.

(٦) المراكشى : الذيل والتكملة . تحقيق احسان عباس ، طبعة بيروت د . ت - المقدمة ١٩٦٤ . جـ ٤ ص ٨٥.

(٧) أوردت هذه الأمثلة من القمم الشامخة لتعرض حكم المرابطين والموحدين للكثير من النقد باعتبارهم أسراً افريقية على ما يقول "سواريث فرينانديث فى كتابه "تاريخ أسبانيا فى اعصور الوسطى ، وهناك المزيد من الأسماء اللامعة في كل مجال من هذه المجالات تثبت عظمة العطاء الاسلامي فى الأندلس ابان القرنين الخامس والسادس وأوائل السابع من الهجرة ، أنظر فى ذلك كتابى " تاريخ التعليم فى الأندلس ص ٢٨٠ وما بعدها إلى ص ٣٤٠ ، وأنظر كذلك كتاب الدكتور حسن على حسن : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، دار الخانجى بالقاهرة ١٩٨٠ . الطبعة الأولى.

(٨) مما لا شك فيه أن مدرسة الاستشراق قد نمت فى أوربا عامة لخدمة أهداف استعمارية ، ونتيجة لسقوط معظم أقطار العالم الاسلامي تحت السيطرة الأوربية ، لكن الاسبان يرون أن ظروف بلادهم الدولية فى ذلك الوقت - ابان القرن التاسع عشر من الميلاد - لم تجعل دراسات المستشرقين موجهة إلى هذا الهدف أساساً ، حيث لم تكن لهم أراض مستعمرة فى العالم الإسلامى إلا أجزاء صغيرة فى شمال المغرب أنظر المقالة القيمة لبرنابى لوبيت Bernabe Lopes Garcia، بعنوان التخصص فى الدراسات العربية والاستعمار Arabismo y Colonialismo فى مجلة أوراق ملحق العدد الحادى عشر ١٩٩٠ . ص ٥٠ . . Awraq, V.XI. 1990 PP.50 ، هذا ولقد عقد فى مدريد عام ١٩٨٨ؤ مؤتمراً علميا للدراسات الافريقية والعربية والشرقية، ثم تناول عدد كبير من هذه الموضوعات ، وطبعت أعماله فى مجلة أوراق والتى كرست أعدادها لدراسات العالم العربى والإسلامى المعاصرين ، أنظر ملحق العدد الحادى عشر لعام ١٩٩٠ Awraq, Estudios sobre el mundo arabe e islamico contemporaneo, madrid anejo al vol. XI (1990).

(٩) ولد الأب باريخا فى مدينة برشلونة عام ١٨٩٠ وأصبح واحداً من أكبر المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية والشرقية ، وأنشأ عدداً من المعاهد المتخصصة فى هذا المجال ، كما كون الجمعية الأوربيه للمستشرقين والباحثين فى الدراسات العربية والإسلامية ، وكان مديراً لمكتبة المعهد الأسبانى العربى للثقافة فى مدريد حتى توفى عن ثلاثة وثمانين عاماً بمدريد ١٩٨٣ وأطلق اسمه على ما يعرف الآن بمكتبة معهد التعاون مع العالم العربى فى مدريد (أنظر مجلة أوراق ، العدد الخامس والسادس مدريد ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م ص ٣٠١.

(١٠) السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٢٤١.

(١١) كان سلفادور غويث نوغاليس من العاملين النشطين فى مجال الفكر الإسلامى إشتغل بالمعهد الأسبانى العربى للثقافة ، وكان رئيساً لجمعية الصداقة الإسلامية المسيحية التى نظمت مؤتمراً عالمياً بقرطبة عام ١٩٧٧ أقيمت خلاله لأول مرة صلاة جامعة بمسجد قرطبة ، وأصدر نوغاليث عدداً كبيراً من المؤلفات الدراسية تركزت حول الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ودراسة تأثير الفلاسفه الإسلامين فى الفكر الأوربى ، ومات نوغاليس فى حدود عام ١٩٨٥ بمدريد.

(١٢) Antonio Ramos : Historia de Españа, Mexico, Tomo I, PP. 286.

وأنظر أيضاً تحليل "أميركو كاسترو فى كتابه España en su Historia , Barcelona 1984, pp49 حيث يقول : لقد بدا لى بوضوح أن العصور الوسطى المسيحية كما لو كانت المهمة الأساسية لأهلها تكمن فى محاولة الجماعات المسيحية الإحتفاظ بوجودها فى مواجهة عالم بدا لها خلال تلك الحقبة متفوقاً فى كافة المجالات. ص ٥٠

(١٣) محمد عبده حتاملة : محنة مسلمى الأندلس ، الطبعة الأولى ، عمان ١٩٧٧م. ومؤلفاته الأخرى فى هذا المجال ، وأنظر كذلك الكتاب القيم للأستاذ محمد عبدالله عنان "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة - ١٩٦٦.

(١٤) محمد عبدالله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس : ط ٣ ، القاهرة ١٩٨٨ جـ ١ ، ص ١٠

(١٥) مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس : دار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٨٧ ، ص ٩١.

(١٦) Simonit : la historia de los mozarabes de España, madrid 1897 - 1903. P. I.

(١٧) Manzanares de Cirre, Manuela: Arabistas españoles del siglo X1X, madri 1972, PP. 133

(١٨) Mingote Y Tarazona, P. Historia de España, PP. 67

(١٩) Jose muro : Historia de España, PP. 174

(٢٠) Jose muro : op. cit. PP. 174

(٢١) Del Arco, Luis : Historia de la civilizacion Española, PP. 79.

(٢٢) Suarez Fernandez. L., Historia de España en la edad media, P. 9

(٢٣) Suarez Fernandez. Op. Cit, p. 9

(٢٤) أنظر فى ذلك مقالة الدكتور جمال محرز : المكتبات وهواة الكتب فى أسبانيا الإسلامية (مجلة معهد

المخطوطات العربية بالقاهرة . العدد الرابع ، جـ ١ لسنة ١٩٥٨م

(٢٥) لوى كارداياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون (المجابهة الجدلية ١٤٩٤ - ١٦٤٠) ، ترجمة الدكتور عبدالجليل التميمى طبعة زغوان بتونس ١٩٨٩.

وأنظر فى هذا المقام الدراسة القيمة للدكتور عبدالله جمال الدين بعنوان "المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون ، القاهرة ١٩٩١م ودراسة الدكتور أسعد حومد : محنة العرب فى الأندلس" المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٨ الطبعة الثانيه، وكذلك الدراسة القيمة جداً للدكتور محمدرزوق ، المغربى ، بعنوان "الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦ - ١٧ من الميلاد والذي صدر من دار أفريقيا الشرق بالدار البيضاء ١٩٨٩م.

(٢٦) ينقص المكتبة العربية دراسة علمية جادة عن ما يسمي بمحاكم التفتيش La Inquisicion ، ولكن يمكن الإطلاع على بعض ما قامت به هذه المحاكم من دور فى الكتب المشار اليها فى الهامش رقم ٢٥ وكذلك فى كتاب عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، والمطبوع فى القاهرة ١٩٨٣ م ، وكذلك كتاب الأستاذ محمد على قطب محاكم التفتيش فى الأندلس ، والمطبوع بالقاهرة ١٩٨٥ ، وأحيل القارئ المتخصص إلى الدراسة العميقة التى نشرها المؤرخ الأسبانى خوان أنطونيو يورنتى فى أربعة مجلدات بعنوان Historia .Critica de la Inquisicion" en España., Madrad 1980.

(٢٧) Manzanares de Cirre : Arabistas del S. XIX, P. 63

(٢٨) Manzanares de cirre, Op. Cit. P. 83

(٢٩) مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس ص ٣٩.

(٣٠) أنظر البحث القيم عن باسكوال جاياجوس Manzanarez de cirre : Arabistas Españales .des S. XIX PP. 83 - 101.

(٣١) حفلت معظم كتب الأدب الأسبانى بترجمات ضافية لسيرافين كالدرون وتكفى الإشارة إلى ثلاثة كتب يمكن أن تعطينا فكرة كاملة عن جهود هذا الأديب الأسبانى الكبير.

I - Antonio Canovas del Castello : El solitario Y su tiempo, madrid 1883.

B - Emilio Garcia Gomez : Sella del Moro y Nuevas escenas anadaluzas, Madrid 1948.

C - Manzanares de cirre : Arabistas españoles del S.XIX, PP. 105 - 118. Madrid 1972 pp. 105 - 118.

(٣٢) Manzanarez de cirre " Arabistas españales del S. XIX, PP. 165 - 168.

(٣٣) أنظر Lafuente y Alcantra : Inscripciones arabes de Granada, Madrid 1859, PP. 16
وكذلك

(٣٤) Manzanares de cirre, Arabistas, P. 172.

(٣٥) كان ذلك البحث من الأبحاث الجادة والقيمة والتى فتحت الباب أمام دراسة ذلك الأدب الذي كتبه الموريسكيون بالحروف الأسبانية ، مع أنه أدب عربى ولقد لجأ الموريسكيون لذلك هربا من محاكم التفتيش التى كانت تتعرض لهم.

(٣٦) أنظر د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ الصفحات ١١ ، ١٢ ، ١٣ ومابعدها.

(٣٧) Manzanares de Cirre, op. cit. PP. 185 - 186

(٣٨) مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس ، ص ٤٠.

(٣٩) Chalmita, Pedro, El Prologo del Libro de arabistes .

(٤٠) طبعت معظم هذه المصادر فى مدريد فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر من الميلاد ، ثم أعيد طبعها عشرات المرات فى العالم العربى والإسلامى ، إعتماداً فى معظمها على تحقيق كودبرة وتلامذته من بعده.

(٤١) مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس ص ٤١.

(٤٢) طبع كتاب التاميرا فى برشلونة عام ١٩١٣ بالعنوان التالى : -

Altamira y Crevea, Rafael : Historia de España y de la civilizacion española, Barcelona 1913, 2 tomos.

(٤٣) Altamira : Op. Cit. PP. 227 - 228

(٤٤) Altamira : Op. Cit. PP. 229 - 230

(٤٥) Altamira : Op. Cit . PP. 262

(٤٦) نفس المصدر ص ٢٦٣.

(٤٧) نفس المصدر ص ٢٦٦.

(٤٨) التامير : نفس المصدر ص ٢٧٤.

(٤٩) راجع كتاب التاميرا المشار إليه والذى يحتاج إلى ترجمة كاملة إلى اللغة العربية لدلالته الكبيرة على تطور نظرة الاسبان حيال فترة الوجود الإسلامى فى الأندلس.

(٥٠) التاميرا : المصدر السابق ص ٢٩٤.

(٥١) التاميرا : المصدر السابق ص ٢٩٦.

(٥٢) التاميرا : نفس المصدر ص ٢٩٦.

(٥٣) ترجم الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى هذاالكتاب إلى اللغة العربية ونشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١.

(٥٤) ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ترجمه د. الطاهر مكى. دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١ ، ص ٤.

(٥٥) أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ص ٣٥ - ٣٧.

(٥٦)أنظر فى ذلك مثلاً دراسات ميغيل أسين بلاثيوس عن ابن حزم القرطبى وابن مسرة فى :
A sin palacias : Abenhazam de cordoba ; Madred 1928.
.Asin palacios, Ibn Masarra Y su escuela. Madrid. 1914.

(٥٧) أحمد هيكل : المدر السابق ص ٣٦.

(٥٨) . Asin Palacias : Ibhazam de cordoba, Madrid 1927, Tomo, I. pp.5

(٥٩) أنظر فى ذلك كتاب آسين بلاثيوس عن ابن مسرة ومدرسته Ibn Masarra Y su Escuela ، السابق الإشارة اليه ، وكذلك مقالتى عن " ابن مسرة والمدرسة المدرسية فى الأندلس ، وقد نشرت ضمن أعمال مؤتمر الحركات الهدامة فى التاريخ الإسلامى والذى عقد بجامعة الزقازيق ١٩٩٠.

(٦٠) عبدالرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى، الطبعة الثالثة- دار القلم ببيروت ١٩٧٩،ص ٤٩.

(٦١) أنظر Asin palacias : La Escatologia musulmane en la Divina Camedia, Madrid 1961

ولقد قام أستاذ جلال مظهر بترجمة هذا الكتاب من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ونشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٨٠م.

(٦٢) من مقدمة "دوق ألبا " للطبعة الإنجليزية ، لكتاب آسين بلاثيوس المنقول إلى اللغة العربية . ترجمة جلال مظهر ص ٧.

(٦٣) ترجم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان "تاريخ الفكر الأندلسى" وعلى هذه الترجمة الضافية اعتمد الكثيرون ممن كتبوا فى التاريخ أندلسى أوالأدب الأندلسى أو الحضارة الأندلسية.

(٦٤) Arranz velarde : La España musulmana, Madrid, 1941, PP. 12

(٦٥)محمد عبدالحميد عيسى : الفتح الإسلامى للأندلس ، القاهرة ١٩٨٥ ص ١٠٥.

(٦٦) Juan Vent : La cultura hispanoarabe en oriente Y occidente, Barcelona 1978, PP. 24 - 2

(٦٧) Suarez Fernandez : Historia de España en la Edad Media, P. 43.

(٦٨) أنظر فى ذلك لويس سواريث فرينانديث فى كتابه المشار إليه ص ١٢٢ ، ص ١٣٢.

(٦٩) Suarez Fornandez : Judios españoles en la Edad Media, Madrid 1980.

(٧٠) Vila, Valenit, Juan : la Peninsula Eberica Barcelona 1968. PP. 6

(٧١) محمد بن عبود : مباحث فى التاريخ الأندلسى ومصادره ، المغرب ١٩٨٩ ، ص ٢١.

(٧٢) عاش هذا العالم فى القرن الرابع الميلادى ، وألف كتاباً فى تاريخ العالم ترجم إلى اللغة العربية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، ثم قام الدكتور عبدالرحمن بدوى بإعادة تحقيق الكتاب والتقديم له ونشره مرة أخرى عن طريق المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، وصدرت طبعته الأولى ببيروت ١٩٨٢م.

(٧٣) يعتبر الاسبان القديس ايسيدورو أعظم ممثل للثقافه الكلاسيكية على عصره فقد كان واسع المعرفه متبحرا فى كل مجالات العلم التى عرفت على عصره ، ومن أهم مؤلفاته : La historia de los Godos, Vandalos Y Suavos (تاريخ القوط والوندال والسواف) وكذلك موسوعتة الشهيرة والمعروفة بإسم Etimologias. أنظر كتاب : التاميرا : تاريخ أسبانيا والحضارة الأسبانية والذي أشير إليه من قبل فى هذا البحث ، ص ٢١٦.

(٧٤) Americo , Castro : España en su historia PP. 47.

(٧٥) Americo Castr : Op. Cit. PP. 49.

(٧٦) Americo Castro : Op. Cit. PP. 50 - 51.

(٧٧) Sanchez albornoz : El drama de la formacion de España y los Españoles, Barcolona, 1977, PP. 11.

(٧٨) Sanchez Albornoz : Op. Cit. PP. 23

(٧٩) Sinchez Albornoz : p[. Cit, pp. 31

(٨٠) Americo Castro : La Realidad le España qº edicioi Mexico . 1980. PP. 21

(٨١) Sanchez Albronz : España , un enigme historico Barcelona 1977. 6 - ed . PP. 2.

Sanchez Albornoz; *Op .Cit. PP. 3.* (٨٢)

Vernet, Juan : *La cultura hispanarabe, Borcelona 1978, PP. 26.* (٨٣)

Vernet, Juan : *Op. Cit. PP. 27* (٨٤)

Cantarino, *vicente Entre monjes Y musulmanes El conflicto que Fue* (٨٥)
España : Madrid - *España 1978. P. 9*

Cantarino, Vicente : *Op. Cit. PP. 305 .* (٨٦)

Sanchez Albornoz : La *España musulmana Madried ¡974., P. 1 . 4 edicion.* (٨٧)

Sanchez Albornoz : *OP. Cit. P. 20* (٨٨)

المصادر العربية

أسعد حومد : محنة العرب فى الأندلس - المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٨٨ - الطبعة الثانية.

أسين بلاثيوس : أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية - ترجمة جلال مظهر. مكتبة الخانجى - القاهرة سنه ١٩٨٠.

إبن بشكوال : أبوالقاسم خلف بن عبدالملك المتوفى ٥٧٨ هـ -

كتاب الصلة طبعة القاهرة ١٩٦٦.

جمال محرز : المكتبات وهواة الكتب فى اسبانيا الإسلامية - مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة - العدد الرابع ، جـ ١ عام ١٩٥٨ م.

حسن على حسن : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين - دار الخانجى بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٠.

حسين مؤنس : فجر الأندلس - القاهرة - الطبعه الأولى ١٩٥٩.

الحميدى : أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح المتوفى فى ٤٨٨ هـ

.جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس - طبعة القاهرة ١٩٦٦.

خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس - ترجمة د . الطاهر أحمد مكى - دار المعارف - القاهرة ١٩٨١.

السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس - بيروت ط ١٩٦١.

عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة - دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة - القاهرة ١٩٨٣ م.

د . عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) : عام أسبانيا : مجموعة مقالات الأهرام - صباح الخميس إسبوعياً من عام ١٩٩٢.

عبدالرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩.

عبدالرحمن على الحجى : فى التاريخ الأندلسى - دار القلم - بيروت ، الطبعة الأولى - ١٩٧٦.

عبدالله جمال الدين : المسلمون المتنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون - القاهرة ١٩٩١.

لوى كارديال : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون (المجابهة الجدلية ١٤٩٢ - ١٦٤٠ م)- ترجمة د. عبدالجليل التميمى - الطبعة الثانية - زغوان - تونس ١٩٨٩.

محمد رزوق : (الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ - ١٧ من الميلاد) الدار البيضاء - المغرب ١٩٨٩م.

محمد عبدالحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس - دار الفكر العربى - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٢ م.

-----------------: الفتح الإسلامى للأندلس - القاهرة ١٩٨٥م.

محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس - الطبعة الثالثه - القاهرة ١٩٨٨ م.

-------------- : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين - القاهرة ١٩٦٦ م.

محمد عبده حتاملة : محنة الأندلس - الطبعة الأولى - عمان ١٩٧٧.

محمد بن عبود : مباحث فى التاريخ الأندلسى ومصادره - المغرب - ١٩٨٩م.

محمد على قطب : محاكم التفتيش فى إسبانيا - القاهرة ١٩٨٥ م.

المراكشى : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك المتوفى ٧٠٣ هـ.

الذيل والتكملة : تحقيق د. حسان عباس طبعة بيروت د. ت.

مصطفى الشكعة : المغرب والأندلس : آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ، ومباحث أدبية. دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٧ م.

هوريشيوس : تاريخ العالم تحقيق ودراسة ونشر الدكتور عبدالرحمن بدوى - بيروت ١٩٨٢ م.

المصادر الاجنبية :

Rafael Altamiar y Crevea;

Historia de España y de la civilizacion española, Barcelona 1913.

Antonio Llorente, Juan

Historia critica de la Inquiaicion en españa, madrid 1980.

Arranz Velarde

La España musulmana, Madrid 1941.

Asin Palacios, Miguel

Abenhazam de cordoba Madrid 1928.

La escatologia musulmana en la Divina Comedia - Madrid 1961.

Ibn Masarra y su escuela. Madrid 1914.

Cantarino, vicente

Entre monjes y Musulmanes, el conflicto que fue España. Madrid - 1978.

Castro, Americo.

España en su historia : cristianos, moros y Judios. Barcelona - España, 1984.

la realided de España. Mexico 1980.

Del Arco, Luis:

Historia de la civilizacion española 2º edicion, España 1927.

Lafuente y alcantra'

Inscripciones arabes de Granada. Madrid - 1859.

Manzanares de cirre, Manuela

Arabistas españoles de siglo XIX. Madrid 1972.

Menindez, Pidal :

Historia de España . Espasa Calpe - Madrid : 1964.

Mingoto y Tarazona; Policarpo. Historia de España-Leon - España 1881.

Muro, José :

Historia de España 3º edicion, Madrid 1901.

Ramos, Antonio :

Historia de España . Mexico. S.F. " بدون تاريخ "

Sanchez albornoz / claudio

El drama de la formacion de España y los españoles - Barcelona 1977.

la españa musulmana Madrid 1974.

España , un enigma historico - Barcelona 1977.

Simonit Francioco Javier -

La historia de las mozarabes de España Madrid 1897.

Suerez Fornandez, Luis.

Historia de España en la edad Media, Madrid, 1970.

Judios españoles en la edad Media - Madrid 1980.

Vernet, Juan

la cultura hispanoarabe en oriente y occidente. Barcelona 1978.

حضارة الإسلام فى صقلية :الرباط القوى بين مصر وبلاد المغرب

بقلم أ. د / محمد عبد الحميد عيسى

استاذ التاريخ الاندلسى بتربية عين شمس

موقع صقلية الجغرافى :

تتمتع جزيرة صقلية بموقع جغرافى متميز مكنها من اداء دور تاريخى نادر المثال ، وجعلها مطمع انظار كل القوى العالمية باستمرار ، كما جعل الصراع حولها واحداً من صفحات التاريخ العالمى الممتد منذ القدم والى ان إستقرت اوضاع الدول فى العصر الحديث واختفاء نكسرة الإحتلال او الاستيلاء او الانفصال عن الاوضاع القائمة الا فيما ندر .

فهى تقع الى الجنوب من إيطاليا ويفصل بينهما مضيقاً ضيقاً يعرف بمضيق مسينا ومن هنا تعتبر هذه الجزيرة امتداد جغرافى لشبه الجزيرة الايطالية ، كما انها من الناحية الاخرى على مسافة يسهل عبورها بحراً إلى الشمال الافريقى ، وهى التى تربط بين الحوض الغربى للبحر المتوسط والحوض الشرقى لهذا البحر . وهى قريبة من جزيرة مالطة ، يصفها الحميرى فى الروض المعطار بانها : جزيرة عظيمة ضخمة خطيرة ، قيل ان فيها مائة بلد وثلاثين بلداً بين مدينة وقلعة غير ما بها من الضياع والمنازل . و يبالغ الحميرى فى وصف مساحتها وتضارب الاقوال حول طولها وعرضها ، ونقل وصف بعض الجغرافيين الأقدمين والذى ينص على انة لايدرى بوجود من هو اكثر منها بلاداً ولا عمارة ، كما يكثر وصف ما بها من البراكين وانواع المياه والعيون والعجائب كما لاينسى ان يشير الى الأقوام الذين سكنوا هذه البلاد فى القدم وارتباطها ببعض الأحداث العالمية عامة والاسلامية خاصة (١)

الفتح الإسلامى للجزيرة :

من الاحداث التاريخية الهامة جداً فى المسار الزمنى للأمة الاسلامية إمتداد الفتوحات الاسلامية الى جزيرة صقلية ، ويمثل هذا الفتح تحديداً اهمية بالغة

(١) الحميرى : الروض المعطار . حرف الصاد . صقلية ص ٣٦٦ الى ص٣٦٨ تحقيق د. احسان عباس

للاعتراف بالدور الخطير والجلل الذى قامت بة بلاد المغرب العربى فـى الفتـح الاسلامى . فلشعوب هذه البلاد الفضل - بعد الله سبحانه وتعالى - فى نقل حركـة الفتوحات الاسلامية الى القارة الاوربية وهى ميزة خاصة بشعوب المغرب العربى لم تتح لغيرها من شعوب للامة الاسلامية الا فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر من الميلاد حينما تمكن الاتراك العثمانيون من فتح القسطنطينية ومـن ثـم الامتداد بعد ذلك فى شبه جزيرة البلقان واوروبا الشرقية مـيزة اخـرى تحسـب لشعوب بلاد المغرب العربى هى استخدامهم البحر والاسـاطيل فـى فتوحاتـهم الاسلامية سواء أكان ذلك بالنسبة للاندلس او بالنسبة لصقلية لنه من المعـروف ان الفتوحات الاسلامية الكبرى قد توسعت على اساس الجوار الجغرافى البرى فقـد بات بتوحيد بلاد العرب ومنها امتدت شمالا الى بلاد الشام غربا والعراق وفـارس شرقا ومن الشام الى مصر ومن مصر الى بلاد المغرب حيث توقف عقبة بن نافع رحمة الله عليه على ضفاف المحيط صائحا بانه لو علم بوجود ارض خلف هـذا البحر لغزاها فى سبيل الله . اما ما حفظه التاريخ لبلاد المغرب ليؤدو فيه دورهـم التاريخي فقد كانت ارضا وراء البحر تحتم عليهم استخدام الاسطول فى الوصـول اليها وهنا وجه الصعوبه والفرق بين ان يكون الجوار بريا او ان يكـون بحريـا تتحدث المصادر التاريخية عن معرفة المسلمين بجزيرة صقلية منذ بداية الفتوحات الاسلامية وخاصا بعد توطد سلطانهم على سواحل البحر المتوسط من بلاد الشـام شرقا وحتى مدينة طرابلس غربا فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ثـم تقدمهم غربا فى عهد الخليفة عثمان ابن عفان رضى الله عنه وانتصار المسـلمين على البيزنطينية فى معركة سبيطله وكذلك استخدام المسلمين للاساطيل البحريـة وانتصارهم البحرى الحاسم فى معركة ذات السوارى ومن ثم اصبحـت الامـور امامهم ممهدة للتعرف على جزر البحر المتوسط الشرقية منها او الغربية وذلك من الطبيعي وجود مجالات للوصول الى صقلية منذ عهد الخليفة عثمان بـن عفـان وتكررت بعد ذلك فى عهد الخليفة معاوية بن ابى سفيان ومن اشهر هذه الغـزوات التى قام بها عبد الله بن قيس الذى ظفر بغنائم وفيرة ومن بينها ايقونات من الذهب والفضة مرصعة بالآلىء فحملت هذه الى الخليفة الاموى الذى ارسلها كمـا تفيـد

الرواية الى الهند عن طريق البصرة لبيعها بثمن غالى . [٢] وان كـــان الدكتـــور حامد زيان قد ارجع هذه الغزوة الى معاوية بن حديج والى مصر قبل معاويه بـــن ابى سفيان وانها خرجت من الاسكندرية وعادت اليـــها وارســـلت الغنـــائم الـــى العاصمة دمشق حيث قام الخليفة بارسالها الى الهند . [٣]

اما فى عصر الاموى فقد كانت صقلية مركزا بيزنطيا مهما فى مقاومـــة الفتـــوح الاسلامية فى بلاد المغرب ، واليها لجأت الاساطيل البيزنطية للاعـــداد للاغـــارة على المسلمين كما هرب اليها البيزنطية اكثر من مـــرة حيـــن انتصـــر عليـــهم المسلمون فى قرطاجنه واجبرهم على الرحيل الى صقليـــة ، ولذلـــك كـــان مـــن الطبيعي ان يحاول ولاة المسلمين فى بلاد المغرب للاغارة على صقيلية اكثر مـــن مرة لكن بدون الاستطالة فيها او اتخاذ ما يلزم لضمها الدولة الاسلامية .

---

٢ د/ عزيز احمد تاريخ صقلية الاسلامية . ترجمة الطيبى . طرابلس المغرب ١٩٨٠ . ص ٩

٣ انظر تاريخ الحضارة الاسلامية ، فى صقلية القاهرة ١٩٧٧م ص ١٤ .

ولقد ساعد على عدم استقرار المسلمين فى صقلية بالرغم من كثرة الحملات التى قام بها الولاة المسلمين فى بلاد المغرب والاندلس فى العصر الاموى والصراع الذى نشب بين المسلمين بعضهم البعض فى كل من بلاد لالمغرب والاندلس فيما تسميه المصادر العربية بثورات البربر وحروبهم ضد العرب بالاضافة الى استمالة البيزنطيين فى الدفاع عنها .

وفى العصر العباسى الاول قلت المحاولات للاغارة على صقلية ونجح البيزنطيون فى تامين الجزيرة الى ان تولى الاغالبة بلاد المغرب شبه مستقلين عن العباسيين فازدادت العلاقات مع صقلية سواء سلما او حربا وتباينت هذه العلاقات حسب الاوضاع الداخلية والعلاقات مع القوى المجاورة كالامويين فى الاندلس والادارسة فى المغرب الاقصى او مع عاصمة الخلافة الاسلامية ذاتها ففى عام ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م عقد ابراهيم بن الاغلب صلحا مع حاكم صقلية جدده ابنه عبد الله الاول فى عام ١٩٨ هـ ٨١٣ م وحينما ال الامر الى الامير زيادة الله بن الاغلب عام ٢٠١ هـ ٨١٦ م وانتهت مدة الصلح جائته فرصة ذهبية من داخل جزيرة صقلية ذاتها حيث تروى معظم المصادر العربية انه وفد على زيادة الله بن الاغلب القائد البيزنطى فيمي مستصرخا ومستنجدا به ضد بعض المنافسين له انتهز زيادة الله هذه الفرصة وكان تواقا لفتح هذه الجزيرة واستشار خاصته فى ذلك وكتب الى فيمي بنيته,مساعدته وبدأ الامير زيادة الله الاغلب للاعداد للحملة الكبرى على جزيرة صقلية

<u>حملة اسد بن الفرات :-</u>

يروى ياقوت الحموى بعد ان ذكر قصة فيمي التى استغلها الامير زيادة الله - ان زيادة الله بن الاغلب ندب الناس لذلك - اى لفتح صقلية - فابتدروا اليه ورغبوا فى الجهاد ، فامر عليهم اسد بن الفرات وهو يوم اذ قاض القيروان ، وجمعت المراكب من جميع السواحل وتوجه نحو صقلية فى ٢١٢ من الهجرة ٨٢٦ م فى ايام المامون فى تسعمائه فارس وعشرة الاف راجل فوصل الى الجزيرة ، وجمع الروم جمعا عظيما ، فامر اسد بن الفرات فيمي واصحابه ان يعتزلوهم ، وقالوا لا حاجة لنا الى الانتصار بالكفار ، وحملوا على الروم حملة

صادقة فانهزم الروم ، وقتل منهم قتلا زريعا وملك اسد بن الفرات بالتنقل جميع الجزيرة ، وقد توفى ٢١٣ هـ ٨٢٧ م. [٤]

ومع ذلك تؤكد كل المصادر الاخرى ان جيش أسد بن الفرات قد واجه مقاومة شديدة سواء من الحامية البيزنطية او من اهالى صقلية الذين احتموا بقلاعهم وحصونهم القوية وانه توفى قبل ان يكمل الا القليل من فتح الجزيرة الصقلية .

تواصلت النجدات على كلا طرفى الصراع فى جزيرة صقلية وخاصة على الجانب الاسلامى حيث ساهم ولاة المسلمين فى الدولة الاغلبية والامراء فى الاندلس فى تثبيت اقدام الفاتحين .

المسلمين خطوة بعد خطوة وظل هذا الصراع قائما لما يقرب من ستون عاما حتى تمكن المسلمون فى النهاية من فرض سيطرتهم على الجزيرة واقامة حكم اسلامى بها وتم تقويض النفوذ البيزنطى بها ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى ساد النفوذ الاسلامى شتى انحاء الجزيرة ، وفشلت محاولات الاباطرة البيزنطيين استعادت هذه الجزيرة .

<u>فترات الوجود الاسلامى فى الجزيرة الصقلية :-</u>

يميل معظم المؤرخين الى تقسيم الوجود الاسلامى فى جزيرة صقلية الى ثلاثة اقسام رئيسية هى : - صقلية تحت حكم الامراء . الاغالبة . صقلية تحت حكم الفاطميين و صقليه تحت حكم النورمانديين .

ومع اختلاف بسيط فى التقسيمات الا انه هناك اجماع على التفرقة بين عصرين ، اولهما كانت صقلية حضارة وحكما اسلاميا ، ويقصد بذلك عصر الاغالبة والفاطميين وهى فترة امتدت من سنة ٢١٢ لسنة ٤٦٤ هـ (٨٢٧ - ١٠٧١ م)

والثانى : كانت صقلية من ناحية السيادة نورماندية لكنها من ناحية الحضارة كانت عربية اسلامية .

وما يعنينى من هذا التقسيم هوان فترة الامراء الاغالبة كانت فترة محاولات الفتح ومحاولات الاستقرار ، ولقد واجه فيها الامراء الاغالبة بكل بسالة واصرار

ياقوت الحموى . معجم البدان ج ٣ ص ٤١٧ . طبعت لحياء التراث بيروت د.ت

جديرين بالاعجاب المقاومة الشديدة من كل من الدولة البيزنطية واهـــل صقليـــة ولذلك لم يعرف الهدوء طوال تلك الفترة حتى سقطت دولة الاغالبـــة علـــى يـــد الفاطميين عام ٢٩٦ هـ /٩٠٩ م ، لكن بعد ما تم الاستيلاء للمسلمين تماما علـــى الجزيرة . اما الفترة التى امتدت من عام ٢٩٧ هـ/ ٤٦٤ هـ وهى فترة السـيادة الفاطمية على الجزيرة فهى الفترة التى جمعت فى قسم كبير منها فى دولة واحـدة كل من مصر وبلاد المغرب وصقلية ، لقد ورثت الدولة الفاطمية على عهد ابـــى عبيد الله المهدى اول الخلفاء الفاطميين كل املاك دولة الاغالبة ومن هذه الامـــلاك الاسطول الاغلبى وجزيرة صقلية ومن ثم انحاز اليهم القائد على ابن احمـد ابـن احمد ابن ابى الفوارس وال صقليه السابق وتزعم الفئة المناصرة للفاطميين وتمكن من الانتصار على الوالى الاغلبى احمد بن الحسين ، ومن ثم عينه الخليفه المهدى الفاطمى واليا على الجزيرة ، وكان هذا هو اول وال فاطمى على جزيرة صقليه . استمر الحكم الفاطمى على جزيرة صقلية ما يقرب من مائة وسبعين عاما ، وليس من غرضى فى هذا المجال الحديث عن التاريخ السياسي المفصل لجزيرة صقليـة ابان الحكم الفاطمى ولكن يكفى ان نشير الى ان فترة وجود الفاطميين فـــى بـــلاد المغرب كانت علاقتهم بصقلية تتعرض فى بعض الاحيان لثورات قـــام ببعضـــها سكان صقلية سواء من المسيحيين او المسلمين وانتهت باستقرار الأمور للفاطميين فى الوقت الذى تمكن فية الفاطميين من الاستيلاء على مصر عـــلم ٣٨٥ه / ٩٨٦م ، ومن ثم ترك المعز لدين الله الفاطمى اميراً على صقلية ابا القاســـم علـــى بـــن الحسن بن على بن ابى الحسين الكلبى الذى ساعدتة الظروف علـــى أن تكـــون امارة صقلية شبة مستقلة للكلبيين .

ولقد اخذ النفوذ الفاطمى فى جزيرة صقلية فى الضعف مع نهاية القـــرن الرابـــع الهجرى وغدت علاقة الخلفاء الفاطميين بهذة الجزيرة مقصورة على ارسال الولاة اليها لادارة شئونها لكن بعض الولاة لم يكن من الكفاءة والقدرة للســيطرة علـــى الامور فحدثت الانقسامات بين اهلها مما شجع البيزنطيين على غزوها فى عـــهد الامبراطور ميخائيل الرابع الذى انفذ اليها حملتين الاولى سنة ٤٢٩ ه (١٠٣٧) لم تحرز اى نجاح اما الثانية فكانت فى السنة التالية ، وقد استطاعت هذه الحملـــة ان

تستولى على يسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة ، غير ان المسلمين سرعان ما تمكنوا من استعادة اكثر البلاد التى استولى عليها البيزنطيون . (٥)

اصاب صقلية فى القرن الخامس الهجرى وخاصة بعد الربع الاول منه، ما اصاب معظم بلاد العالم الاسلامى من هوة الانزلاق الى الصراعات الداخلية والاقتتال فيما بين بعضهم البعض حتى وصل الامر الى قيام احد امراء الجزيرة ويسمى ابن الثمنة بالتوجة الى مالطة ودعوة الامير النورماندى رجار لامتلاك الجزيرة واطمعة فيها ووعدة بالمساعده حتى اطمأن الامير النورماندى الى قوله وسار معه بجيوشه ، وشجعه البابوية هذا الاتجاة .ولم يجد روجر حين وصوله الى صقلية مقاومة تذكر ، وخاصة ان كان الى جانبة ابن الثمنه ، وفشلت محاولات المعز ابن باديس واهل صقليه فى صد النورمانديين مما اتاح الفرصه للغزاة للاستيلاء على مدن الجزيرة علي مهل وتؤدة لايمنعهم احد ، وقاومت بعض المدن مقاومة شديدة ومنها قصريانة وجرجنت فحاصرها النورمان وضيقوا علي المسلمين حتي اكلوا الميته ، وعدموا ما ياكلون ، ولم يلبث اهل جرجنت ان سلموا مدينتهم للنورمان عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م بينما استسلمت قصريانة عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م وبذلك ملك النورمان جميع الجزيرة ومن ثم صارت صقلية امارة نورماندية يحكمها الامير روجر . (٦) ولعل فى ذلك درسا نتبينه من البداية والنهاية فى الدور الذى لعبه فيمي الصقلى فى ادخال المسلمين الى الجزيرة ، والدور الذى لعبه بن الثمنه فى ادخال النورمان الى صقلية ومن ثم اخراج المسلمين منها .

<u>الحياة الثقافية فى صقلية :</u>

قصدت من الاشارة الى فترات التاريخ السياسي لجزيرة صقلية ان ابين ان فترة الازدهار الثقافى فى هذه الجزيرة كانت هى فترة السيادة الفاطمية وهى ذات الفترة التى جمعت بشكل مباشر او غير مباشر كل من مصر وبلاد المغرب وصقلية ضمن دولة واحدة هى الخلافة .

---

٥ محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ ص ٢٣٦ .

٦ حامد زيان : المصدر السابق ص ٧٤ .

الفاطمية .، مع عدم الانكار ان البدايات الاولى للحياة الثقافية فى صقلية قد نشأت مع الفتح الاسلامى بها ، وخاصة ان قائد عملية الفتح الأول القاضى اسد بن فرات كان من اعلام الفقهاء المسلمين ، وهو الذى بدأ هذه الحياة الثقافية مع وصول اول طلائع جيوش المسلمين الى هذه الجزيرة بما كان يقوم به من افتاء او دروس او حث لجنوده ومقاتليه .

من جانب اخر يجمع المؤرخون على ان المسجد كان اهم مؤسسة تعليمية على الاطلاق ، ووجود المسجد يعنى فى المقام الاول وجود حياة تعليمية ، ودراسة اوضاع المساجد فى اى منطقة من العالم الاسلامى هى دراسة المكان الرئيسي للحياة الثقافية الاسلامية فى اى فترة من فترات تاريخها ، ومن الطبيعى ان تكون المساجد قد بنيت باكرا وبعد الفتح مباشرة فى كل مدينة او قرية امكن للمسلين الاستيلاء عليها وضمها الى سيادتهم ، ولذلك يمكننا التأكيد علي تطور الحياة الثقافية في جزيرة صقلية قد أخذ خطا متصاعدا منذ بدايات الفتح لكي تصل الي قمة ازدهارها وعظمتها خلال العصر الفاطمي ، ومع ان الحضارة في صقلية تكاد ان تكون مشابهة تماما للحضارة الاسلامية في الاندلس حتي وصل الامر بالكثيرين من المؤرخين الي الربط الكامل بينهما ، الا ان المصادر الاساسية لتغذية تيار الحضارة الاسلامية فى صقلية انما جاءها فى المقام الاول من بلاد المغرب بحكم الجوار الجغرافى ومن مصر بحكم الوحدة السياسية والمكانة المتميزة للبلاد المصرية فى اطار هذه الحضارة الاسلامية دون ان يعني ذلك التقليل من أهمية الروافد الأخرى سواء الأندلسية او الحجازية او الشامية او العراقية مما هو معروف عن وحدة المصادر الثقافية الاسلامية وكثرة روافدها التى تصب فى كل اتجاه ومن ذلك جزيرة صقلية .

توقفت كثيرا امام ذلك الهجوم القاسى الذى شنه ابن حوقل على اهل صقلية رغم ان زيارته لتلك البلاد جاءت فى احسن فترات تطورها الثقافى ، فلقد زار ابن حوقل صقلية عام ٣٦٢ هـ اى بعد منتصف القرن الرابع وهو ذلك القرن الذى يجمع الناس على تسمية بالعصر الذهبى للحضارة الاسلامية ومع ذلك نجد ان حوقل يصف اهل صقلية بانهم " اقل الناس عقلا ، واكثرهم حمقا ، واقلهم

رغبة فى الفضائل ، واحرصهم على اقتناء الرذائل. " (٧) ولهذا لا ترى فى صقلية عالما ولا عاقلا بالحقيقة بفن من العلوم ، ولا ذو مروءة ودين ، بل الغالب عليـــهم الرقاعة والضعة وقلة العقل والدين . (٨)

---

٧ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٣ ص ٤١٩ : مادة صقلية .

٨ نفس المصدر ج١ ص ٤٨٣ .

واذا كانت تلك الكلمات القاسية تحتاج الى دراسة متانية لمعرفة دواعى ابن حوقل ، الى كتابتها الا ان المنهج العلمى يعلمنا ان نستبعد الاحكام العامة والمرسلة ، وخاصة اذا دحضتها قرائن اخرى يجمع عليها كثير من المؤرخين ، فقد توفرت لهذه الجزيرة عدة عوامل ساعدت على ازدهار العلوم والاداب بها ، فقد كانت ماوى مناسب لكثير من العلماء الذين ضاقت بهم بلادهم ، كما كان الجوار الجغرافى عاملا هاما فى انتقال العلماء والطلاب من معظم بلاد العالم الاسلامى وبلاد الجوار الجغرافى خاصا الى صقلية ومن صقلية الى هذه البلدان وهى الوسيلة الاساسية لتدعيم حركة النشاط العلمى فى اى مكان .

اضف الى ذلك وجود عدد من الامراء الاغالبة او امراء الفاطميين من الكلبيين الشغوفين بالعلم والعلماء مما جعلهم يعفون من الخدمة بالجيش كل من كان معلما مما كان سببا قويا للاهتمام بمهنة التعليم وكثرة التعليم كثرة ساحقا لهذه الجزيرة ومما يبين فساد راى ابن حوقل ان هجومه على صقلية واهلها لم يقتصر على قلة العلم ، وانما تعدى ذلك الى الصفات الاخلاقية التى لا نراها بين البشر عاما وما بالك بالمسلمين خاصا فهو يقرر انهم كانوا على سوء من الخلق والمأكل والمطعم المنتن والاعراض القذرة ، وطول المراء مع انهم لا يتطهرون ولا يصلون ولا يحجون ولا يزكون ، وربما صاموا رمضان ، واغتسلوا من الجنابة حتى يصلوا الى القول: وليس يشبه وسخهم وقذرهم وسخ اليهود ، ولا ظلمة بيوتهم سواد الاتاتين .

حتى كثرة المساجد فى صقلية فانه يرجعها الى شدة انتفاخ رؤوسهم ، وقلة عقولهم وغير ذلك من الاوصاف السيئة التى نقلتها عن المؤلفات الجغرافية الاخرى (٩) .

من جانب اخر نرى الشريف الادريسي ، وهو من عاش فى صقلية وعايش اهلها ،يسهب فى مدح الجزيرة واهلها ويبالغ فى الاعتزاز بها فهى : فريدة الزمان فضلا ومحاسنا ، ووحيدة البلدان طيبا ، وملوكها من اعظم الملوك قدرا ، واكبرهم خطرا ، وارفعهم هما ، واشمخهم قدرا ورتبة . (١٠) .كما نجد روايات اخرى

---

٩ انظر الحموى فى المجلد الاول والثالث فى باب : بلرم ، وباب : صقلية .

١٠ الادريسي : نزهة المشتاق ج٢ ص ٨٨ ٥٨٩ .

تمتدح مسلمي صقلية وهم : مرموقون من بين من جاورهم بنظافـــة الاعـــراض والثياب والاحوال ، متميزون بالجميل في الناس ، وحسن الصـــور وقصـــد فـــي المعاش ، الى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة (١١) .

فاذا نزلنا على الارض الواقع نجد ان الحياة الصقلية قد مضت على غرار غيرهـا من اقاليم العالم الاسلامي ، وانها استفادت من كل العوامل الجغرافية والسياســـية لكي ترتقي .

هذة الحياة الثقافية ارتقاء كبيرا . كما كانت صقلية مقرا ومراكز لتيارات فكرية في مختلف جوانب النشاط .

كانت المساجد في الغالب مراكز لهذة النشاطات الفكرية ، وفيها كانت يدرس كافـة العلوم الدينية ، وخاصة علوم القرآن ومنها علم القراءات والذي برز فية عدد مـن العلماء ومنهم المقرئي محمد ابن خراسان النحوي الذي كان والده من موالي بنـي الاغلب وقد درس في مصر ثم اخذ القراءة عن ابن المظفر ابن احمد ابن حمـدان ،ولعلة ذلك كان بالعراق وعاد الرجل الى صقلية ودرس بها الى ان وفاة الاجـــل عام ٣٨٦ه /٩٩٦م . وكذلك اسماعيل ابن خلف الذي درس في مصر وتولى عنـد عودتة التدريس في صقلية ثم رحل عنها بســـبب الاضطرابـــات السياســـية الـــى الاندلس ثم الى مصر ، ومن اشهر مؤلفاتة كتاب " العنوان في القراءات " ورسالة في شكل النص القرآني الكريم .

اما مجال العلم الحديث فهناك عدد كبير من العلماء في هذا المجال وصلت الينـــا اسمائهم واعمالهم ، وغيرهم لم تصل سوى الاسماء ومنهم : ابو بكر محمـــد بـــن ابراهيم التميمي ، وابن الفراء ، وموسى بن الحسن ، وعبد الرحمن بن محمد بـــن بكر ، وابو السعود سليمان وابو الفضل العباس بن عمرو وابو محمد عمار الكلبى ، ومعظم هؤلاء رحلوا الى مصر وتعلموا بها وعادوا الى صقلية ودرســـوا فـــي مساجدها ، والفوا في مجالات تخصصهم على ارضها .

---

١١ عزيز احمد : المصدر السابق ص ٤٨ .

اما الفقه وهو عمدة الدراسات الدينية فبكل تاكيد فقد وضع اساسه القاضى اسد بن الفرات والذى كان عالما وفقيها فى المقام الاول ، وقد الفت عدة كتب عن المذهب المالكى فى صقلية الاغلبية من بينها كتاب صنفه يحي بن عمر بن يوسف بن عامر الاندلسى المتوفى عام ٢/٩/٢هـ- ٩٠٣، وكان كتابه منتشرا فى صقلية انتشاره فى افريقيا وهناك فقيه صقلى اخر بارز هو ميمون بن عمر الافريقي الذى تولى القضاء فى القيروان ، ثم تولاه فى صقلية ، ونظرا للصلة الوثيقة بين افريقيا وصقلية فان علماء البلدان الواحد منها كانوا يشغلون مناصب فقهية في البد الاخر ، وبالاحرى انتقال الكتب والاراء بين البلدين .

ولم تقتصر الدراسات الدينية فى صقلية على ما ذكرنا فقط وانما لدينا اشارات كثيرة فى المصادر الاسلامية من علماء صقليين فى علم الكلام والمذاهب الدينية ، كما يشتمل ادب التراجم على معلومات وافرة عن صلحاء من هذه الجزيرة ، عفوا عن الرزائل ، وقضوا اياما وليالى فى التهجد والاستغفار ، وانهم كانوا موضع تقدير الاهالى واجلالهم . كما تشير الى وجود تيار صوفى متميز برز منهم صوفيون حازوا الاحترام والتقدير حتى خارج بلادهم ومنهم سعيد بن سلام الصقلى والذى رحل الى الحجاز حيث حظى باحترام شديد ، ثم توجه الى بلاد فارس وتوفى فى عام نيسبور ٣٧٤هـ / ٩٨٣ م .

اما فى مجال الدراسات العربية وهى قرينة ولصيقة الدراسات الدينية فقد وجدت فى صقلية مناخا مناسبا فهاجر اليها كثير من علماء العالم الاسلامى ، فالنحوى واللغوى والشاعر القرطبى موسى بن اصبغ الذى وفد الى الجزيرة واستقر بها ، وفى مطلع القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وصل الى صقلية عالم لغوى بارز هو سعيد بن فتحويه ورجل نحوى صقلى شهير هو ابو عبد الله بن الكتانى الى العراق وخاراسان وبلاد الغزنوية وتوفى باصبهان ١١١٨ م وسكن صقلية كذلك ابو عبد الله محمد بن موالى بنى الاغلب وهو نحوى ومقرىء متصدر . اما كتاب رياض النفوس فهو مساهمة صقلية بارزة فى ادب الطبقات . وامضى طاهر ابن محمد ابن الرقبانى الصقلى اللغوى الشطر الاكبر من حياته ولم يكن فى زمانه اعلم منه بلغة العرب : وقصدته العلماء من كل مكان . وكان ابن

على لغويا ايضا ، وكان يحفظ عن ظهر قلب شطرا كبيرا مــن الشــعر العربــي الجاهلي . (١٢) .

ويؤكد د.احسان عباس امتداد شهرة علماء صقلية فى مجال اللغة الى غيرها مــن البلدان كما انها اجتذبت اليها فريقا من المشاهير اللغويين ودرسوا فيــها وافــادو ويورد قائمة كبيرة باسماء المشاهير من هؤلاء حتى يصل الى القول فــاذا ذهبنــا نبحث عن جهود صقلية نفسها وجدنا نهضتها اللغوية تعاصر نشاطها فــى الفقــه والفينا مدرسة بن البر اللغوى تظهر هناك الــى جــانب مدرســة عبــد الحــق والسمنطارى فى الفقه والحديث ، ويشير الى تأثير المدرسة اللغوية الصقلية وكيف تخرج منها عدد كبير حتى غادت لنا مدرسة واضحة المعانى نعــرف اصحابــها باعينهم وبعض اثارهم واشار الى شيخ هذه المدرسة محمد بن على بن الحسين بن البر التميمي الغوثى والذى درس فى مصر حتى اصبح احد الائمة فى علم العربية والاداب واللغة وانه جمع الى ذلك جودة الضبط وحسن الخط ، وان هذا الرجــل استقر فى صقلية معلما ومدرسا رحل اليه الطلاب من المغرب والاندلس ، وطبقت شهرته بلادا كثيرة وترك لنا عددا كبيرا من الطلاب البارزين المشــهورين . (١٣)

ويعتبر صلة قوية تربط بين الاسكندرية والمهدية وصقلية ومن اشهر العلماء الذين ارتبط اسمهم بصقلية ، ويتفق الجميع على ربطه بالمدرسة اللغوية والادبيــة فــى صقلية هو الحسن ابن رشيق القيروانى ، وهو وان كان تونسى الاصــل الا انــه هاجر الى صقلية وعاش بها الى ان وافاه الاجل المحتوم .

اما فى مجال الادب وخاصا الشعر فقد تجمعت عدة عوامل لتجعل مــن صقليــة مركزا هاما من مراكز الحياة الادبية وخاصة فى عصر حكامها من بنــى كلــب ويرى الدكتور سعد اسماعيل شلبى ان عددا من الاسباب قد تجمعت لتكــون مــا اطلق عليه الادب الافريقي ، ومن هذا

---

١٢ عزيز احمد : المصدر السابق ص ٤٢

١٣ احسان عباس : العرب فى صقلية ـ بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٥-١١٠ .

الادب ما يمكن ان يسمى " ادب الحل والترحاب " المرتبط . بحياتهم القلقة غير المستقرة حيث كانوا ينتقلون بين صقلية وافريقيا .كما تنتقل قطع الشطرنج فشاع فيهم حب التراسل بالاشعار ، والدعوى الى المغامرة والمخاطرة ، كما شاع خلالها كثرة الحديث عن طيف الخييال مرجعا السبب فى ذلك الى توزع الاحباب بين افريقيا وصقلية وصعوبة اتصال احداهما بالاخرى نتيجة للظروف السياسية ، ويؤكد فى دراسة انه كان لصقلية بعض الاثر فى تطوير الشعر من ناحيتين هامتين هما الغزل والزهد ، مبينا الاسباب التى عزت الى ازدهار كلا منهم على ارض صقلية ، ولعل قمة الحياة الادبية فى صقلية تتمثل فى شاعرها العظيم ابن حمديس الصقلى والذى لا يمكننا حصر الدراسات التى قامت على شعره واهتمت به وبدراسته . (١٤)

الى جانب الحياة الادبية والدراسات الدينية شهدت صقلية تطورا طيبا فيما يمكن ان نسميه بالعلوم العقلية وكذلك العلوم العملية وعلوم الاوائل ، فهناك الدراسات الفلسفية حيث كتب بها سعيد ابن فرحون التجيبي القرطبى والذى استوطنها مع نهايات القرن الرابع الهجرى ، رسالة حسنة فى المدخل الى علوم الفلسفة سماها شجرة الحكمة ورسالة فى تعديل العلوم وكيف درجت الى الوجود من انقسام الجوهر والعرض .

ومما يدل على انتشار علوم الفلسفة رأى المذرى : ان المطعن فى كل امام طلاعة على كتب الفلاسفة لانها تكسبة جرأة على المعانى، وتسهيلا للهجوم على الحقائق ، ويؤكد الباحثون معرفة كتب ابن سينا والغزالى ورسائل اخوان الصفا فى جزيرة صقلية . (١٥)

ويعتقد ان المصادر قد صمتت كثيرا آراء الفقهاء المنشودة عن الكثير من اخبار الدراسات الكلامية وعلوم الاوائل ، وانها صمتت اكثر من العلوم العقلية فلا تحدثنا

---

١٤ د. سعد اسماعيل شلبى : ابن حمد يس الصقلى : حياته وشعره . القاهرة د . ت ص

١٥ احسان عباس : المصدر السابق ص ١٢١ .

عن الطب والفلك والتنجيم ، وان ذكرت بعض المصادر ابا عبد الله ابن ووصفته بانه الطوبى ووصفته بانه اربى فى الطب على ما سويه وان كان محــلا لمــدح معاصرية . كما اشارت المصادر الى طبيب صقلى يحسن اليونانية يعمل فى بلاط الامير عبد الرحمن الناصر وكان يعرف اشخاص العقاقير والادوية ، واشتغل مـع جماعة اخرين من اطباء قرطبه فى البحث عن تصحيح اسماء العقاقير التى وردت فى كتاب ديسقوريدس . ولعل فقر جزيرة صقلية النسبى فى مجال العلوم العقليــة يرجع الى العامل الجغرافى وقربها من القيروان وكذلك القاهرة واللتــان جزبتــا باضوائهما العلماء من صقلية اليهما ويؤكد الدكتور احسان عباس ان بلاط صاحب القاهرة كان يغرى العلماء الصقليين انفسهم .

بالهجرة من وطنهم ، وهجرة المهندسين والفلكيين الصقليين الى مصر شاهد علــى ذلك فقد كان المهندس الصقلى احمد ابو محمد عبد الكريم يعمل فى زمن الحـــاكم فى مرصد القاهرة ويحضر مع زملائه كل يوم فى خدمته الى ان امـــره الحـــاكم بكسر المرصد وتفرق من حوله اهل الحساب والهندسة والتنجيم كما كان فى مصر المعلم الصقلى الطبيب فى مصر وكذلك احمد بن مفرج وكان متصرفا فى التنجيـم .

اما فى الجزيرة نفسها فتخبرنا المصادر ان ابا الفضل احمد بن دابق كــان عالمــا بالهندسة وان اخاه عمر كان كاتبا منجما مهندسا وغـــيرهم كثــيرون ممــا حــدا بالمؤرخ اسكوت الى ان يصف الحياة العلمية فى جزيرة صقلية على النحو التــالى : من مأذن المساجد بمدينة بلارم كان الفلكى العربى يرقب حركـــات الاجــرام ، ويعين مواقيت الكسوف والخسوف ومواقع النجوم ، مستعينا علـــى ذلــك بــالات اخترعت فى حوض الوادى الكبير وعند نهر دجله حتى يصل الى القول : فكانت مدن الجزيرة حافلة بمن يقرأون الطالع ويعبرون الرؤية ويتنباون بالغيب كما كانت دار عالم الصنعة مزارا يامه الناس على اختلاف طبقاتهم . [١٦]

---

[١٦] احسان عباس : المصدر السابق ص ١٢٣-١٢٤ .

واخيرا فان هذا المناخ الثقافى الطيب لا يمكن ان ينبع من فــــراغ او ينمــو دون الاعتماد على حياة اقتصادية متميزة ، ومع انه ليس هدفى هنا توضيــح مســتوى الحياة الاقتصادية فى جزيرة صقلية الا ان جميع المصادر التى كتبت عن تـــاريخ صقلية فى العصر الاسلامى تشير الى التقدم الكبير فى مجالى الصناعة والزراعـة وتجمع على ان المسلمين قد انعشوا الزراعة فى صقلية باساليب ومحاصيل جديـدة ، وانهما اصبحت فى العهد الاسلامى بلادا زراعية غنية وانها قد ادخلــت اليــها محاصيل جديدة مثل النارنج والليمون ، وقصب السكر ، وبزور القطن واشـــجار التوت وتربية دود القز وزراعة النخيل مما احدث تغيرا جوهريـــا فـــى اقتصـــاد الجزيرة الزراعى .

اما فى المجال الصناعى فقد كان ببيلرم واحدا من اول مصانع الورق فى اوروبــا كما عرفت الجزيرة عددا من الصناعات المهمة والتى نقلها الاوربيون بعد ذلــــك الى قلب القارة الاوروبية مما جعل من صقلية فى العصر الاسلامى قنطرة شهيرة لعبور العلوم والتقنية والفنون الى القارة الاوروبية ، وليس ذلك مجال حصر مـــا اخذته اوروبا عن صقلية . ويمكن الاستقراء فى هـــذا المجـــال بـــالرجوع الـــى المصادر المتخصصة (١٧) ولكن ما نريد ان نؤكده هنـــا هـــوان هـــذا الازدهـــار الاقتصادى والعلمى والذى بلغ قمته فى عهد الفاطميين

ويؤكد ان عصر الازدهار هناك فى الحقيقة كان هو العصر الذى توحـــدت فيـــه بلاد المغرب ومصر وصقلية تحت عباءة الفاطميين وينفى تماما بعض الادعـــاءات التى تقول ان انتقال الخلافة الفاطمية الى القاهرة تلاه تدن تدريجي فى الحضــــارة المزدهرة فى الشمال الافريقي الذى كانت تنتمي اليه جزيرة صقلية . (١٨)

---

١٧ امين توفيق الطيبي : دراسات فى تاريخ صقلية الاسلامية . ليبيا ١٩٩٠ م ص ١٢٥ .

١٨ الطيبي : المصدر السابق ص ١٩٢ محمد توفيق الطيبى .